

الدكتور يوسف القرضاوي

الإيمان والحياة



الناري السبائي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين

الْإِيمَانُ وَالْحَيَاةُ

الأمم والحياة

تأليف

الدكتور يوسف القرضاوي



الناري السبائي

الناشر
مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية بعبدين

الطبعة الثانية

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

جميع الحقوق محفوظة



الناري السبائي

مطبعة الاستقلال الكبرى
دعوى تجميع الزكاة بالقاهرة ١٩٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه (وبعد) .

فإن قضية « الإيمان » ليست أمراً على هامش الوجود، يجوز لنا أن نقفله أو نستخف به، أو ندعه في زوايا النسيان، كيف وهي أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره؟ بل أجد قضية الإيمان هي أعظم « قضية مصيرية » بالنظر إلى الإنسان. إنها سعادة الأبد أو شقوته، إنها لجنة أبدأ أو لنار أبدأ، فكان لزاماً على كل ذى عقل أن يفكر فيها ويطمئن إلى حقيقتها .

وقد فكر الكثيرون من أولى الألباب، وانتهى كل منهم إلى إثبات العقيدة في الله بطريقة الخالص .

فمنهم من استند إلى صوت الفطرة في أعماقه « أفى الله شك لا فاطر السموات والأرض »^(١) « فطرة الله التي فطر الناس عليها »^(٢) .

ومنهم من اعتمد على مبدأ « السببية » الذي يقرر أن كل صفة لا بد لها من صانع، وكل حادث لا بد له من محدث، وكل حركة لا بد لها من محرك، وكل نظام لا بد وأن يكون وراءه منظم، وهذا المبدأ ثابت ثبوت الأوليات البديهية في العقول .

(٢) سورة الروم ٣٠

(١) سورة إبراهيم ١٠

ومنهم من ناقش المسألة مناقشة حسابية ، رياضية ، فانتهى إلى أن الأضمن
لحياته ، وما بعد حياته : أن يؤمن بالله وبالأخرة والبعث والجزاء . وفي مثل هذه
يقول الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات ، قلت : إليك
إن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي فالحسار عليكما

وقال الفيلسوف الرياضي « باسكال » :

« إما أن تعتقد أن الله موجود أو لا تعتقد ذلك ، فإذا تختار ؟ إن عقلك
لعاجز كل العجز أن يختار ، وإنها للعبة جارية بينك وبين الطبيعة ، رمى فيها كل
منكما بسهمه ، ولا بد أن يربح أحد السهمين . . فوازن بين كل ما يمكن أن
تربح ، وما يمكن أن تخسر . إذا راهنت بكل ما تملك على ظهور السهم الأول
— أى على وجود الله — فإذا كسبت الرهان ، فقد حصلت على سعادة أبدية .
فإذا أخفقت فسوف لا تفقد شيئاً مهماً ... فليست تخاطر إلا بشيء فان ، وكل
غرم فان ، — ولو كان محقق الوقوع — متحمل ومعقول » .

ونحن نزيد على هذا فنقول : إن الذى يؤمن بالله والدار الآخرة لا يخاطر
بدينه القانية ليربح آخرته الباقية ... كلا ، إنه بإيمانه يربح الحياتين معاً ، ويفوز
بالحسينين فى الدنيا والآخرة جميعاً . وصدق الله العظيم : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ
ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » ^(١) « الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » ^(٢) .

إن العبادات التى فرضها الدين إنما هى وسائل لتزكية نفس المؤمن وترقية روحه ،
وما أقل ما يبذل فيها من جهد ، إلى جنب ما يكسب وراءها من خير .

وإن المحرمات التي حظرها عليه الدين ، إنما صان بتحريمها عقله وخلقه ونفسه وماله وعرضه ونسله ، فهو إنما « يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْعَلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » (١) .

والدين إذا حرم على الناس شيئاً عوضهم ما هو خير منه ، مما لا يشتمل على مفسدة الشيء المحرم .

إن المؤمن لم يخسر شيئاً بعبادة الله سبحانه ، واتقائه ما حرم الله عليه ، وإنما ربح الهدى والاستقامة على الحق ، والثبات على الخير، والاستعلاء على الشهوات، وربح بعد ذلك هدوء النفس وطمأنينة الحياة .

* * *

وفي عصرنا هذا أصبح الناس يجرون وراء المنفعة لاهئين ، حتى إن كثيراً منهم ليرون الحق فيما ينفعهم لا فيما يطابق الواقع أو ما تقوم البراهين على صحته .

وقد قام مذهب برأسه ينادى بأن « المنفعة مقياس الحقيقة » ويصر على أن المهم من كل شيء هو نتائجه وما يترتب عليه من آثار في حياتنا العملية ... وعلى أن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع ، بل انسجامه مع ما يقع ، وهكذا ، فكل شيء يحكم عليه بما يتبعه من نتائج ، فإن كانت هذه النتائج متناسبة مع أغراضنا ، ومع ما نريد من مقدماتها ، كانت خيراً وصدقاً وحقاً . . . وإن كانت غير ذلك كانت شراً وكذباً وباطلاً ، ولا يوصف الفعل بحسن ولا قبح ولا يوصف القول بالصدق والكذب حتى تعرف ثمرته (٢) هذا هو مذهب « البراجماتزم » .

(١) سورة الأعراف ١٥٧

(٢) مقتبس من خاتمة الدكتور محمود حب الله لكتابه « لإرادة الاعتقاد » و « العقل والدين » الوليم جيمس .

ونحن لانخشى هذا المذهب على عقيدتنا — وإن كنا لانوافق عليه في الجملة فإننا نوقن أن أففع شئ للناس هو الحق ، وأن أضر شئ بالناس هو الباطل ، وقد ضرب القرآن مثلاً للحق بالماء السائل والمعدن النافع ، وللباطل بالزبد الرابى على وجه الماء حين يسيل به الوادى أو الرغوة المنتفخة على وجه المعدن حين يوقد عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع .

ثم قال تعالى معقباً على هذا التمثيل : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » (١) .

والذى يَمْكُثُ فى الأرض هو الحق ، وهو الذى عبّر عنه القرآن بـ « ما ينفع الناس » إنه ينفعهم مادياً ومعنوياً ، ينفعهم أجساماً وعقولا وقلوباً ، وينفعهم أفراداً وجماعات ، وينفعهم دنيا وآخرة .

إننا إذا وافقنا على اعتبار المنفعة فى الجملة فإننا نختلف مع الماديين فى قياس المنفعة ، وتحديد نوعها ومداها . نحن لا نقيس المنفعة بالسكم وبالمادة فحسب ، ولا نعتبر المنفعة الفردية وحدها بل ندخل فى اعتبارنا السكم والكيف والمادة والروح ، والفرد والمجتمع جميعاً .

بل نحن لانقصر المنفعة على الحياة العاجلة هنا ، بل نضع فى حسابنا دائماً الحياة الآخرة حياة الخلود التى أعدت للإنسان وأعد لها الإنسان .

* * *

هذه السطور تمهيد لا بد منه ، لبيان غرضنا من تأليف هذا الكتاب :
« الإيمان والحياة » (٢) .

(١) سورة الرعد ١٧

(٢) هذا الكتاب هو الذى سبق أن أعلنت عنه بعنوان « العقيدة والحياة » ولكنى آثرت أن أستعمل الكلمة التى استعملها القرآن الكريم فى التعبير عن العقيدة وهى كلمة « الإيمان » ولا شك أن لها ما أعمق وأقوى .

إننا نريد أن نلقى بعض الضوء على الآثار المباركة للدين في حياة الإنسان .
مقتصرين على الدين في جانبه العقدي . الدين باعتباره إيماناً بالله وبرسالته ، وبالدار
الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وثواب وعقاب .

وفي هذا الكتاب سنتبين بوضوح تلك القرية الظالمة ، التي زعمت أن
الدين مخدر للشعوب . أو معوق للحياة ، كما يزعم الماركسيون .

أجل ، لو أننا احتكنا إلى مقياس المنفعة وحدها ، ورضينا منطق الذين
لا يمتنعون فكرة إلا لمصلحة . ولمصلحة دنيوية فحسب ، لوجدنا الدين — مع
هذا — ثقيل الميزان مبین السلطان ، فقد أثبت التاريخ والاستقراء لحياة البشر أن
الدين ضرورة لاغنى عنها : ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ، وتزك نفسه ، وضرورة
للمجتمع ليستقر ويتماسك ، ويرتفع ويرقى .

والفرد بغير دين ولا إيمان ريشة في مهب الريح لا تستقر على حال ، ولا تعرف
لها وجهة ، ولا تسكن إلى قرار مكين . الفرد بغير دين ولا إيمان إنسان ليس له
قيمة ولا جذور ، إنسان قلق متبرم حار ، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده ،
لا يدري من ألبسه ثوب الحياة . ولماذا ألبسه إياه ، ولماذا ينزعه عنه بعد حين ؟ !
وهو بغير دين ولا إيمان : حيوان شره أو سبع فاتك ، لا تستطيع الثقافة
ولا القانون — وحدهما — أن يحدّا من شرايته ، أو يقلّما أظفاره .

والمجتمع بغير دين ولا إيمان ، مجتمع غابة . وإن لمعت فيه بوارق الحضارة .
الحياة والبقاء فيه للأشد والأقوى ، لا للأفضل ولا للأتقى . . مجتمع تعاسة وشقاء
وإن زخر بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم . . مجتمع تافه رخيص ، لأن غايات
أهله لا تتجاوز شهوات البطون والفروج . فهم : « يتمتعون ويأكلون كما تأكل
الأنعام » .

و (العلم) المادى وإن امتد رواقه ، واتسعت ميادينه ، ليس بمستطيع أن يحقق الطمأنينة والسعادة للناس ، لأن العلم يرقى الجانب المادى للحياة ، فيختصر الشقة البعيدة ، والزمن الطويل ، إلى مدة أقصر ، ولهذا سموا عصرنا هذا « عصر السرعة » أو عصر « التغلب على المسافات » .

ولكن هل يستطيع أحد أن يسميه عصر « الفضيلة » أو عصر « الطمأنينة » أو عصر « السعادة للبشر » ؟ ؟

إن العلم هياً للإنسان الحديث وسائل الحياة ، ولكنه لم يهده إلى غاياتها إنه زين له ظاهرها . ولكنه لم يصله بأعماقها ، وما أتعس الإنسان إذا أغرقته الوسائل فذهل عن الغايات . وإذا شغل بالسطح عن القاع ، وبالقشر عن اللباب ! العلم المادى أعطى الإنسان أدوات كثيرة ، ولكنه لم يعطه « قيمة » كبيرة أو « هدفاً » رفيعاً يحيا له ويموت عليه .

ذلك أن هذه ليست وظيفة العلم وليست من اختصاصه . وإنما ذلك من اختصاص الدين .

* * *

ولقد رأينا من المفكرين والفلاسفة من لا يؤمنون بالله . ولكنهم يؤمنون بالإيمان بالله ، أى يعتمدون بنفع هذا الإيمان باعتباره قوة هادية موجهة ، وقوة مؤثرة دافعة ، وقوة منشئة خلّاقة .

لم يستطع هؤلاء أن يحددوا ما للإيمان بالله من طيب الأثر فى نفس الفرد وفى حياة المجتمع ، فقال بعضهم : لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه !! أى نخترع للناس إلهاً يؤمنون به ، ويلتمسون رضاه ، ويخافون حسابه ، حتى ترتدع الأنفس الشريرة ، وتستقيم أخلاق الجماهير .

وقال آخر : لِمَ تشككون في الله ، ولولاه لخاتنى زوجتى ، وسرقنى خادمى ؟ !

ونحن لانوافق على منطق هؤلاء في عمومهم ، فإن الحق أحق أن يتبع مهما تكن نتيجته ، والأباطيل يجب أن تطارد كيفما كانت العاقبة . . ولكن الذى يعيننا من قول هؤلاء - وهم خصوم وأعداء الإيمان - أن أثر الدين والإيمان في النفس والحياة لا يمكن أن يكابر فيه إنسان منصف ، ولو كان من خصوم الإيمان .

إن الحقيقة يجب أن تحترم لذاتها ، وإن لم تجلب نفعا ، أو تدفع ضررا ، فكيف إذا كان من ورائها أعظم المنافع ، وأطيب الثمرات ؟ !

وجود الله تعالى وتفرد بالسلطان والتدبير واستحقاق العبادة ، وبعثة النبيين وصدق ما أخبروا به عن الحياة الآخرة - كل هذا حق قامت الأدلة على صدق ثبوته ، والإيمان به واجب ، لأنه حق . ومع أنه حق ، فقد نيط به صلاح الظاهر والباطن ، ورقى الفرد والمجتمع ، وسعادة الدنيا والآخرة .

* * *

ونحن حين نتحدث عن ثمرات الإيمان وآثاره في النفس والحياة إنما نعنى الإيمان القوى الدافق . الإيمان حين يبلغ مداه ، ويشرق على القلوب سناه ، ويخط في أعماق النفوس مجراه ، لا نتحدث عن الإيمان الضعيف المزعزع ، الإيمان الخدر النائم ، إنما نتحدث عن الإيمان الحى اليقظ . ولا يضيرنا أن أصحاب هذا الإيمان قليلون ، . . فإننا نقاش هنا الماديين الذين يشككون في قيمة الإيمان . ليتعلموا أن الإيمان الذى يحاربونه كلما زاد عمقه في القلوب وسلطانه على النفوس ، ازداد أثره المبارك في حياة الأفراد والجماعات .

وإذا كان هذا أثر الإيمان عموماً ، فإن الإيمان الإسلامى خصوصاً أكثر فمناً

وأطيب ثمرًا ، فإن الإيمان في الأديان الأخرى قد علق به ماشابهٌ وكثير صفاءه . وربما أمكن أن يؤخذ من تعاليم بعض الأديان ، أو من سلوك رجالها ، بأنها عدو للحياة ، أو أفيون للشعوب . كما زعم كارل ماركس اليهودي ، وتلقفها البيغاوات هنا ، فرددوها ترديد الحاكى ، دون بصر ولا تمييز ، فإن الدين هنا غير الدين هناك ، والمجتمع هنا غير المجتمع هناك .

إن عقيدة الإسلام عقيدة تنسج للروح والمادة ، والحق والقوة ، والدين والعلم والدنيا والآخرة ، إنها عقيدة التوحيد التي تفرس في النفس الكرامة أو الحرية ، وتجعل الخضوع لغير الله كفرًا وفسقًا وظلمًا ، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله .

* * *

وإذا كان للدين والإيمان هذا الأثر في كل بلاد الدنيا ، فإن أثره عيق ، وضرورته أعظم في بلادنا الإسلامية والعربية خاصة .

إن لكل قفل محكم أصيل ، مفتاحًا معينًا ، مهما تحاول فتحه بغيره كانت محاولتك عبثًا لا فائدة منه ، ولا طائل تحته . إلا إضاعة الوقت والجهد في تجارب فاشلة .

ومفتاح الشخصية الإسلامية والعربية على وجه خاص هو الدين ، هو الإيمان ، هو عقيدة الإسلام .

ومهما نحاول أن نذكر هذه الشخصية ، وأن نفجر طاقاتها المكنونة بغير مفتاحها الأصيل — وهو الدين والإيمان — فإننا نحاول عبثًا ، كمن يبني على الماء أو يكتب في الهواء .

بعقيدة الإسلام انطلق العرب من جزيرتهم ، يخرجون العالم من الظلمات إلى

النور ، ويؤدبون بسيوفهم الأَكاسرة والقياسرة ، وكل من صغر خده من الجبابة ، وينقلون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان والظلام إلى عدل الإسلام .

وبعقيدة الإسلام انتصرت أمتنا العربية على أوربا ، وقد جاءت بقضها وقضيضها في تسع حملات صليبية ، تريد أن تلتهم الأخضر واليابس في هذا الشرق المسلم .

وبعقيدة الإسلام انتصرت على غزو التتار الذين زحفوا على هذا الشرق كالريح العقيم « مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْأَرَمِيمِ »^(١) وكادوا يدمرون الحضارة الإنسانية كلها ، لولا أن قيض الله لهم من مسلمي مصر والشام من ردم على أعقابهم وهزمهم بإذن الله في « عين جالوت » وكان مفتاح النصر صيحة أطلقها القائد المملوكي « قطز » فهزت المشاعر ، واستشارت العزائم ، وأيقظت الهمم ، وهبت بها على المقاتلين نسائم الجنة . تلك هي الصيحة التاريخية « وإسلاماه » .

وأمتنا العربية اليوم تحارب عدواً شريراً يحتم على صدرها ، ويحتل قلب ديارها ، ويهدد وجودها وكيانها بالتفتيت والتمزيق ، ذلك هو « إسرائيل » التي تمدها وتعاونها كل قوى الكفر في العالم شرقية وغربية .

ولن نجد — في حربنا مع هذا العدو — سلاحاً أمضى ولا أبقى من الإيمان . إنه لا بد من العناد الحربي والقوة المادية التي أمرنا الله بإعدادها ، لتهرب بها عدو الله وعدونا ، ولكن السلاح لا يعمل إلا في يدي بطل ، والبطل لا يصنعه إلا الإيمان .

ولقد فتن أقوام منا بالمذاهب المادية الحديثة التي قذفنا بها الغرب ، والتي

لا تجعل لله ولا للآخرة مكاناً في الحياة ، ولا تعترف بالدين إلا باعتباره خادماً وأداة
يمكن استخدامها - عند الضرورة - لاسترضاء الجماهير المتدينة أو إلهائها أو
استئثارها لفرض موقوت .

ومن أجل ذلك نُحْيِي الدين والإيمان عن مكانه في قيادة الأمة وتربيتها .
وعزل عن التعليم والثقافة والتوجيه والإعلام ، وعن سائر ميادين الحياة الفكرية
والعملية والاجتماعية والسياسية ، إلا بعض رسوم ومظاهر وقشور أبقيت للدين
لا تسمن من شبع ولا تغنى من جوع .

فلما قامت المعركة القريبة في « ٥ - ٦ - ١٩٦٧ » بيننا وبين عدونا كان
معنا سلاح كثير وإيمان قليل ، فلم يغن عنا السلاح شيئاً ، لم تغن الدبابات والطائرات
والأساطيل وقواعد الصواريخ ، لأن هذه الأسلحة - على حداتها وضخامتها -
لم يقم عليها رجال مؤمنون . ورحم الله المتنبئ حين قال :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام ؟!

وهذه حقيقة - على مرارتها وقسوتها - يجب أن تكون لدينا الشجاعة
لنعترف بها ، ونتخذ من هذه التجربة درساً وعبرة ، ونبنى حياتنا على أساس من
الإيمان ومقتضياته ونغير ما بأنفسنا ، ليغير الله ما بنا ، وإلا فسنظل كالثور في الساقية .

إن عدونا يجند أبنائه على أساس ديني ، ويقذف بهم في قلب المارك بأحلام
دينية تدور حول مجد إسرائيل ، وملك سليمان ، ونبوءات التوراة ، فكيف ننكر
دور الإيمان ، وننحى المؤمنين ، بل نضطهدهم ونمذّبهم ! ، ونلقى بشعارات
« النصر للثوار » و « الغلبة للجماهير » وأمتنا لاتعرف إلا أن « النصر للمؤمنين ،
والعاقبة للمتقين ^(١) » .

(١) انظر في هذا ، كتاب « درس النكبة الثانية : لماذا انهزمنا وكيف نتصّر ؟ » للمؤلف .

ألا إن كل عمل يوجه ضد الدين والإيمان في بلادنا إنما هو عمل عدائى موجه إلى صميم كياناتنا ومقومات حياتنا ، وجذور نهضتنا .

« نحن قوم مؤمنون » وهذا الإيمان هو أساس شخصيتنا ، وسر قوتنا ، ورافع رايتنا ، هو سر مجدنا فى الماضى ، وباعث انتفاضتنا فى الحاضر ، ومناط آمالنا فى المستقبل .

« نحن قوم مؤمنون » وهذه قضية بدئية ، يجب أن يلتقى على حمايتها وتثبيتها وإشاعتها قلم الكاتب ، ولسان الخطيب ، وفكر الفيلسوف ، ووجدان الشاعر ، وريشة المصور ، وتقنين المشرع ، وسلطان الحاكم ، وقوة الجيش . ورقابة الشعب . يجب أن يرهاها الأب فى البيت ، والمعلم فى المدرسة ، والأستاذ فى المحاضرة ، والأديب فى القصة ، والصحفى فى الخبر ، والمؤلف فى الكتاب . وكل ذى فن فى فنه .

إن كل ثغرة تفتح فى أى جانب من جوانب حياتنا الثقافية والفنية والعملية لعصوب منها سهام الشك أو الجحود إلى صدر الإيمان ، تعد خيانة عظمى لأمتنا وخروجاً سافراً على مبادئها ، ومروفاً من صفوفها ، وانضماماً إلى أعدائها ، وتعويقاً لما تقوم به الجوانب الأخرى من جهاد إيجابى ببناء .

وإنى للى يقين أن كلمة الإيمان ستعلو وتنتصر ، وأن كلمة الكفر والشك ستكون هى السفلى ، وصدق الله العظيم : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » (١) .

المؤلف



النارِي السَّيَّي

الباب الأول

الإيمان الذي نعيشه

- حقيقة الإيمان
- مزايا العقيدة الإسلامية

حقيقة الإيمان

مفهوم الإيمان الذي نعنيه :

ما الإيمان الذي نعنيه في هذه الدراسة ، ونحاول تجلية آثاره في النفس والحياة ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تتضح إلا إذا عرفنا مفهوم الإيمان ، ومتعلق الإيمان . أما مفهوم الإيمان ومعناه ، فإنه ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن ، فما كثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (١) .

وليس هو مجرد قيام الإنسان بأعمال وشعائر اعتيد أن يقوم بها المؤمنون ، فما كثر الدجالين الذين يتظاهرون بالصالحات ، وأعمال الخير ، وشعائر التعبد ، وقلوبهم خراب من الخير والصلاح والإخلاص لله : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ، بَرَاءُونَ النَّاسِ ، وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا » (٢) .

وايس هو مجرد معرفة ذهنية بحقائق الإيمان ، فكلم من قوم عرفوا حقائق الإيمان ، ولم يؤمنوا : « وَجَعَدْنَاهَا أُنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا » (٣) وحال الكبر أو الحسد أو حب الدنيا بينهم وبين الإيمان بما علموه من بعد ما تبين لهم الحق : « وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (٤) .

(١) سورة البقرة ٨ ، ٩ (٢) سورة النساء ١٤٢

(٣) سورة النمل ١٤ (٤) القرة ١٤٦

إن الإيمان في حقيقته ليس مجرد عمل لسانى ولا عمل بدنى ، ولا عمل ذهنى .
إن الإيمان في حقيقته عمل نفسى يبالغ أغوار النفس ، ويحيط بحوائجها كلها
من إدراك وإرادة ووجدان .

فلا بد من إدراك ذهنى تنكشف به حقائق الوجود على ما هى عليه في الواقع ،
وهذا الانكشاف لا يتم إلا عن طريق الوحي الإلهى المعصوم .

ولا بد أن يبلغ هذا الإدراك العقلى حد الجزم الموقن ، واليقين الجازم ،
الذى لا يزله شك ولا شبهة : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ
يَرْتَابُوا » ^(١)

ولا بد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إذعان قلبى ، وانقياد إرادى ، يتمثل
في الخضوع والطاعة لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم : « فَلَا وَرَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا
مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّوْا تَسْلِيمًا » ^(٢) « إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى
اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ » ^(٣) « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ
يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » ^(٤) .

ولا بد أن ينبع تلك المعرفة ، وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية ، تبعث على
العمل بمقتضيات العقيدة ، والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية والجهاد فى سبيلها
بالمال والنفس ، ولماذا نجد القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تَلَّاتِ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى

(٢) النساء ٦٥

(٤) الأحزاب ٣٦

(١) الحجرات ١٥

(٣) النور ٥١

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يَكْمُلُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » (١) .

والقرآن الكريم يعرض دائماً الإيمان في أخلاق حية ، وأعمال ناصعة ، يتميز بها المؤمنون . من الكفرة والمناققين « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُغْرَضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ... » الآيات (٢) .

وقال تعالى في وصف المؤمنين الصادقين : « إِنَّمَا لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

يقول أحد العلماء في تفسير هذه الآية :

« فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله ، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب ، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس . ولا يتلجلج فيه القلب والشعور ، والذي ينبثق منه الجهاد بالمدل والنفس في سبيل الله ، فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب في واقع الحياة في دنيا الناس ، يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة ، ولا يطبق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه ، والصورة الواقعية من حوله ، لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة ، ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله

بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن ، يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ، ليرأها محتلة في واقع الحياة والناس ، والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني وواقعه العملي ، وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشأن المنحرف .

هذه العناصر والمقومات التي ذكرتها هي التي تكون « الإيمان الحق » وإن شئت قلت « العقيدة الحقة » وإذا فقد بعض هذه العناصر فإن ما بقي منها لا يستحق أن يسمى « إيماناً » أو « عقيدة » .

يمكن أن تسمى « فكرة » أو « نظرية » أو « رأياً » أو أى عنوان من هذه العناوين ، أما الإيمان الحق فهو الذى تشرق شمسهُ على جوانب النفس كلها ، فتنفذ إليها أشعتها حاملة الضوء والحرارة والحياة ، أجل تنفذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه ، وإلى القلب فتهزه وتحركه ، وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها ، وإذا اقتنع العقل ، وتحرك القلب ، واتجهت الإرادة ، استجابت الجوارح ، واندفعت للعمل استجابة الرعية للراعى المطاع .

ويجئني ما كتبه في هذا المقام الأستاذ أحمد أمين رحمه الله مفرقاً بين الرأى والعقيدة^(١) قال : « فرق كبير بين أن ترى الرأى وأن تعتقده ، إذا رأيت الرأى فقد أدخلته في دائرة معلوماتك ، وإذا اعتقدته جرى في دمك ، وسرى في مخ عظامك ، وتغلغل في أعماق قلبك .

ذو الرأى فيأسوف ، يقول : « إنى أرى صواباً ما قد يكون في الواقع

باطلا ، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم ، وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً ، وقد أكون مخطئاً فيه وقد أكون مصيباً .

أما ذو العقيدة فجازم بات ، لاشك عنده ولا ظن ، عقيدته هي الحق ، لا محالة ، هي الحق اليوم ، وهي الحق غداً ، خرجت عن أن تكون مجالا للدليل^(١) وسمت عن معترك الشكوك والظنون .

ذو الرأي فاتر أو بارد ، إن تحقق مارأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة ، وإن لم يتحقق مارأى فلا بأس ، فقد احترز من قبل بأن رأيه صواب يحتمل الخطأ ورأى غيره خطأ يحتمل الصواب ، وذو العقيدة حار متحمس ، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته .

ذو الرأي سهل أن يتحول ويتحور ، هو عند الدليل ، أو عند المصلحة ، تظهر في شكل دليل ، أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله : « لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، على أن أدع هذا الذي جئت به ما تركته » .

الرأي جثة هامدة ، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها ، والرأي كهف مظلم لا ينير حتى تلقى عليه العقيدة من أشعتها ، والرأي مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض ، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتوالد على سطحه . والرأي سديم يتكون ، والعقيدة نجم يتألق .

الرأي يخفق المصاعب ، ويضع العقبات ، وبصفي لأمانى الجسد ، ويثير

(١) هذا بعد الاقتناع والتصديق ، أما قبل ذلك فالإسلام لا يرضى من المسلم إلا أن يكون اعتقاده قائماً على أساس الدلائل والبرهان ، ولا يعبأ بإيمان المقلد ، وسنئين بعد في مزايَا العقيدة الإسلامية أنها « عقيدة مبرهنة » .

الشبهات ، ويبعث على التردد .. والعقيدة تفتح الأخطار ، وتزلزل الجبال ، وتلتفت وجه الدهر ، وتغير سير التاريخ ، وتنسف الشك والتردد ، وتبعث الحزم واليقين ، ولا تسمح إلا لمراد الروح .

محتوى الإيمان الذى نعنيه :

ولا يمكن أن نعرف حد الإيمان ومفهومه حتى نعرف محتواه ومتعلقه . فلا بد أن نعرف أى إيمان نعنى فى دراستنا هذه ؟

إن الناس قد ابتذلوا كلمة « الإيمان » فوضعوها فى غير موضعها ، فأصبحنا نقرأ عن إيمان بالشيوعية ، وإيمان « بالوجودية » ، و « إيمان » بالوطن ، و « إيمان » بغير ذلك مما ابتدع البشر لأنفسهم مما لم يأذن به الله .

وليقل الناس ما شاءوا ، فلن يضيرنا ذلك إذا عرفنا نحن الإيمان الذى نريد . إنه الإيمان الذى لا تدل هذه الكلمة على غيره عند إطلاقها ، الإيمان « الدينى » الذى صحب البشرية منذ طفولتها ، ولم يفارقها فى صباها وشبابها وكهولتها ، ولم يزل سلطانه مهيمناً على الكثير من تصرفاتها وأعمالها .

إنه الإيمان الذى يتجسد فى خاتمة العقائد السماوية ، عقيدة الإسلام ، كما بينها القرآن الكريم ، وهدى الرسول العظيم ، متمثلة فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين .

هذه العقيدة ، هى التى تحلّ لغز الوجود ، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت ، وتجيب عن أسئلته الخالدة : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم ؟ هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام ، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام إنما العقيدة المصفاة ، التى بعث بها أنبياء الله جميعاً ، ونزات بها كتب السماء

قاطبة ، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل ، إنها الحقائق الخالدة التي لا تتطور ولا تتغير ، عن الله وعن صلاته بهذا العالم .. ما يبصره منه وما لا يبصره ، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها . إنها الحقائق التي علمها آدم لبنيه ، وأعلمها نوح في قومه ، ودعا إليها هود وصالح ، عاداً وثموداً ، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله ، وأكدها موسى في توراته ، ودأود في زبورهِ ، وعيسى في إنجيله .

كل ما فعله الإسلام ، هو أنه نَقَّى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة ، وصفهاها من الأجسام الغريبة ، التي أدخلتها العصور عليها ، فسكدرت صفاءها وأفسدت توحيدها . ، بالشفاعات ، وانحازت الأرباب من دون الله ، وأفسدت تنزيهاها بالتشبيه والتجسيم ، ونسبة ما في البشر من قصور ونقص إلى الله ، تعالى علواً كبيراً ، وشوهت نظرها إلى الكون والحياة والإنسان ، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم ، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضاً جديداً ، يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية ، وأن تكون غاية لكل البشر ، إلى قيام الساعة .

جاءت عقيدة الإسلام فنقت فكرة التوحيد وكل الألوهية مما شابها على مر الأعصار ، ونقت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور .

ونقت فكرة الجزاء الأخروي مما دخل عليها من أوهام الجاهلين ، وتحريف المغالين واتحال المبطلين ، ودجل المشعوذين .

والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هي الإيمان بالله ، والإيمان بالنبوات والإيمان بالآخرة .

ويمكن أن تجمل في الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده ، والإيمان بوحديته ، والإيمان بكلامه .

وجود الله تعالى :

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون قوة عليا تحكمه وتديره وتشرف عليه ، سماها أحدم « العلة الأولى » وسماها غيره « العقل الأول » وسماها ثالث « المحرك الأول » وسماها القرآن العربي المبين ، وكتب السماء بهذا الإسم الجامع لصفات الجمال والجلال « الله » .

هذه القوة العليا ، وبعبارة أخرى : هذا الإله العظيم ، ليس في استطاعة العقل البشري إدراك كنهه ، ولا معرفة حقيقته ، كيف وقد عجز عن معرفة كنهه ذاته وعن كنهه النفس وحقيقة الحياة ، وكثير من حقائق الكون المادية من كهربية ومغناطيسية وغيرها ؟ وما عرف إلا آثارها ، فكيف يطمع في معرفة ذات الله العلى الكبير ؟ « ذلکم اللہ ربکم لا إله إلا هو خالق کل شیء فاعبدوه وهو علی کل شیء وکیل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطیف الخبیر »^(١)

هذا الإله ليس إله فصيلة محدودة ، ولا إله شعب خاص ، ولا إله إقليم معين . وإنما هو « رب العالمين » « رب السموات والأرض » « رب المشرق والمغرب » « قل أغیر الله أبغی رباً وهو رب کل شیء »^(٢) .

ولنستمع إلى ماقصه القرآن علينا من حوار موسى وفرعون يتبين لنا شمول ربوبيته سبحانه وتعالى :

قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين . قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ، قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون »^(٣) .

وقد دلل القرآن على وجود الله بطرق عديدة :

١ - فيلفت العقول والأذهان إلى ما في الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعاً حكيمًا . وهو قانون بدهي عند العقل الذي يؤمن بمبدأ « السببية » إيمانًا طبيعيًا لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (١)

هذا الخلق لا بد له من خالق ، وهذا النظام لا بد له من منظم : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ » (٢) « قل : فمن ربكم يا موسى ؟ قل : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٣)

٢ - وبسبب الفطرة الإنسانية السليمة التي بها يدرك المرء إدراكًا مباشرًا أن له ربًا وإلهًا قويًا عظيمًا يكلؤه ويرعاه : « فأقم وجهك للدين الحنيف ، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٤)

وإذا اختفت هذه الفطرة في ساعات الرخاء واللمه فإنها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء ، وسرعان ما يذوب الطلاء الكاذب ، وينكشف المعدن الأصيل في النفس البشرية ، فتعود إلى ربها داعية متضرعة : « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجريين بهم ريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » (٥)

(٣) طه ٤٩ ، ٥٠

(٢) الطور ٣٥ ، ٣٦

(٥) يونس ٢٢

(١) سورة البقرة ١١٤

(٤) الروم ٣٠

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر هذا الكون ومديره فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق معلناً « الله » : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » ^(١) « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : « الله » قل : أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون » ^(٢) .

ويستشهد القرآن بالتاريخ الإنساني على أن الإيمان به وبرسله كان سفينة النجاة لأصحابه وأن التكذيب به وبرسله كان نذير الهلاك والبوار ، ففي نوح يقول : « فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين » ^(٣) ، وفي هود يقول « فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » ^(٤) . وفي صالح وقومه ثمود يقول : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظفروا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجيناه الذين آمنوا وكانوا يتقون » ^(٥) .

وفي رسل الله جميعاً يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : « ولقد أرسلنا من قبلك رسلًا إلى قوهم فجاءهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ^(٦) .

انما الله اله واحد :

وهو تعالى إله واحد ليس له شريك ، ولا له مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » ^(٧) « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » ^(٨) .

(١) العنكبوت ٦١ (٢) يونس ٣١-٣٢ (٣) الأعراف ٦٤ (٤) الأعراف ٧١
(٥) النمل ٥٢-٥٣ (٦) الروم ٤٧ (٧) البقرة ١٦٣ (٨) الإخلاص ١-٤

وكل ما في الكون من إبداع ونظام يدل على أن مبدعه ومديره واحد ، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل يدبر ، وأكثر من يد تنظم ، لاختل نظامه ، واضطربت سننه ، وصدق الله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون »^(١) ، « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون »^(٢) .

هو تعالى واحد في ربوبيته ، فهو رب السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن ، خلق كل شيء فقدره تقديراً ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدعى أنه الخالق أو الرازق أو المدير لذرة في السماء أو في الأرض « وما ينبغي لهم وما يستطيعون » .

وهو تعالى واحد في ألوهيته ، فلا يستحق العبادة إلا هو ، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء إلا إليه . فلا خشية إلا منه ، ولا ذل إلا إليه ، ولا طمع إلا في رحمته ، ولا اعتماد إلا عليه ، ولا انقياد إلا لحكمه . والبشر جميعاً - سواء كانوا أنبياء وصديقين أم ملوكاً وسلاطين - عباد الله ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فمن أنه واحداً منهم ، أو خضع له وحنى رأسه ، فقد جاوز به قدره ، ونزل بقدر نفسه .

ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة وإلى أهل الكتاب خاصة : « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله »^(٣) .

ومحمد نبي الإسلام لم يقل القرآن عنه إلا أنه : « رسول قد خلت من قبله

الرسول»^(١) ولم يقل هو عن نفسه إلا أنه «عبد الله ورسوله»^(٢).

والأنبياء جميعاً ليسوا — في نظر القرآن — إلا بشرأ مثلنا ، اصطفاهم الله لحمل رسالته إلى خلقه ، ودعوتهم إلى عبادته وتوحيده ، ولهذا كان النداء الأول في رسالة كل واحد منهم : « يا قوم اعبدوا الله مآلكم من إله غيرهِ »^(٣). وفي هذا يقول القرآن : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »^(٤) ، « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »^(٥).

ومن الضلال المبين أن يزعم زاعم ، أو يفترى مفترى على هؤلاء الأنبياء : أن أحداً منهم دعا الناس إلى تأليهه أو تقديس شخصه .. « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ »^(٦).

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل في هذه الكلمة العظيمة التي عرفت لدى المسلمين بكلمة « التوحيد » وكلمة « الإخلاص » وكلمة « التقوى » وهي « لا إله إلا الله » .

كانت « لا إله إلا الله » إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية

(١) آل عمران ١٤٤

(٢) في الصحيح . « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم واسكن قلوباً : عبد الله ورسوله »

(٣) انظر الأعراف ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ وانظر هود ٢٦٠ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٨١ وغيرها .

(٤) النحل ٢٦ (٥) الأنبياء ٢٥ (٦) آل عمران ٧٩ ، ٨٠

ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله . سواء كانت شجراً أم حجراً أم بشراً .

وكانت « لا إله إلا الله » نداء عالمياً لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل من خلق الله وما خلق الله .

وكانت « لا إله إلا الله » عنوان منهج جديد ، ليس من صنع حاكم ولا فيلسوف ، إنه منهج الله الذي لاتعنو الوجوه إلا له ، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه .

وكانت « لا إله إلا الله » إيذاناً بمولد مجتمع جديد ، يغير مجتمعات الجاهلية مجتمع متميز بمقيدته ، متميز بنظامه ، لاعنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية ، لأنه ينتمى إلى الله وحده ، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه .

ولقد أدرك زعماء الجاهلية وجبايرتها ما تنطوى عليه دعوة « لا إله إلا الله » من تقويض عروشهم والقضاء على جبروتهم وطغيانهم وإعانة المستضعفين عليهم ، فلم يألوا جهداً في حربها ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً .

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناساً منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة في الأرض أو أنصاف آلهة ، لهم يخضع الناس ويخشعون ، ولهم يركعون ويسجدون ، ولهم ينقادون ويسلمون .

لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين فلم يعد عندهم بشر إله ، ولا نصف إله ، أو ثلث إله ، أو ابن إله ، أو محل حل فيه الإله !

ولم يعد بشر يسجد لبشر أو ينحني لبشر أو يقبل الأرض بين يدي بشر ، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحققة . وأصل الحرية الحققة ، وأصل الكرامة

الحقّة ، إذ لا أخوة بين عابد ومعبود ، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدعى ألوهية
ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لخلق مثله أو يتخذة حكماً من دون الله .

قال أبو موسى الأشعري : انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه ، وعمر
ابن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقيسيون جلوس سباطين وقد قال له عمرو
وعماره - وهما مندوبا مشركي قريش بمكة إلى النجاشي - إنهم لا يسجدون لك ،
فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك ، فقال جعفر
ابن أبي طالب : لا نسجد إلا لله !

فرغم أنهم مضطهدون ومهاجرون ، وغرباء لاجئون ، وهم في أرض هذا
الملك وفي حوزته ، أبوا أن يفرطوا في توحيدهم لحظة واحدة فيسجدوا لغير الله ،
وأعلنها جعفر كلمة أصبحت شعاراً لكل مسلم « لا نسجد إلا الله » .

كمال الله تعالى :

ولا بد مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه تعالى متصف بكل
كل يليق بذاته الكريمة ، متنزّه عن كل نقص : « لم يلد . ولم يولد . ولم يكن
له كفواً أحد » ^(١) « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » ^(٢) .

دل على ذلك : هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب ، وهدت إلى
ذلك انقطة البشرية النيرة ، وفصلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه .

فهو سبحانه العليم الذي لا يخفى عليه شيء : « وعندة مفاتيح الغيب لا يعلمها
إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات
الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » ^(٣) .

وهو العزيز الفعال لما يريد ، الذى لا يغلبه شيء ، ولا يقهر إرادته شيء .
« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزى
من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » (١) .

وهو القدير الذى لا يعجزه شيء . يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف
السوء ، ويحيى العظام وهى رميم ، ويعيد الخلق كما بدأهم أول مرة وهو أهون
عليه : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير » (٢) .

وهو الحكيم الذى لا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يترك شيئاً سدى ، ولا يفعل
فعلاً ، أو يشرع شرعاً إلا لحكم ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها . وهذا
ما شهد به الملائكة فى الملأ الأعلى : « قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا
إنك أنت العالم الحكيم » (٣) .

وما شهد به أنبياء الله وأوليأوه ، وأولو الألباب من عباده : « الذين
يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات
والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك » (٤) .

وهو الرحيم الذى سبقت رحمته غضبه ، ووسعت رحمته كل شيء ، كما وسع
علمه كل شيء ، وقد حكى القرآن دعاء الملائكة « ربنا وسعت كل شيء رحمةً
وعلماً » (٥) وقال : « عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء » (٦)
وقد بدأ سور القرآن « باسم الله الرحمن الرحيم » للدلالة على سعة رحمته وتقوية
الرجاء فى قلوب عباده ، وإن تورطوا فى الذنوب والآثام : « قل يا عبادى الذين

(١) آل عمران ٢٦

(٢) الملك ١

(٣) البقرة ٢٢

(٤) آل عمران ٩١

(٥) عافر ٧

(٦) الأعراف ١٥٦

أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١) .

الإله في الإسلام ليس بمعزل عن هذا الكون وما فيه ومن فيه كإله أرسطو الذى سماه « المحرك الأول » أو « العلة الأولى » ووصفه بصفات كلها « سلوب » لافاعلية لها ولا تأثير ، ولا تصريف ولا تدبير ، فإن هذا الإله — كما صورته الفلسفة الإرسطية — لا يعلم إلا ذاته ، ولا يدرى شيئاً عما يدور فى هذا الكون المريض .

إله أرسطو والفلسفة اليونانية لم يخلق هذا الكون من عدم ، بل العالم عندهم أزلى غير محدث ولا مخلوق .

وإله أرسطو لا صلة له بهذا العالم ، ولا عناية له به ، ولا يدبر أمراً فيه ، لأنه لا يعلم ما يجرى فيه مما يلج فى الأرض أو يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، أو يعرج فيها . كل ما يقوله أرسطو ومن تبعه عن الإله أنه ليس بجوهر ولا عرض وليس له بداية ولا نهاية ، وليس مركباً ولا جزءاً من مركب ، وليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ، وهذه السلبيات لا تجعل الإله كائناً يرجى ويخشى ، ولا تربط الناس بربهم رباطاً محكما يقوم على المراقبة والتقوى والثقة والتوكل والخشية والمحبة .

هذا الإله المعزول عن الكون ، الذى عرفه الفكر اليونانى ، وعنه انتقل إلى الفكر الغربى الحديث — لا يعرفه الإسلام ، وإنما يعرف إلهاً « خَلَقَ الأرضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا . الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِنْ تَجهر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى »^(٢) « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذَا
الذى يشفعُ عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من
علمه إلا بما شاء وسِعَ كرسيه السموات والأرض ولا يشوده حفظهما وهو العلى
«العظيم» (١).

الإله فى الإسلام هو خالق كل شيء ، ورازق كل حى ، ومدبر كل
أمر ، أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ووسع كل شيء رحمة ،
خلق فسوى ، وقدر فهدى ، يسمع ويرى ، ويعلم السر والنجوى « ما يكون
من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من
ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » (٢).

له الخلق والأمر ، ويده ملكوت كل شيء ، يولج الليل فى النهار ، ويولج
النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويرزق من
يشاء بغير حساب .

له ما فى السموات وما فى الأرض مِلْكاً ومُلْكاً . لا يملك أحد مثقال ذرة
فى السموات والأرض ، وما لأحد فىهما من شرك ، الشمس والقمر والنجوم
مسخرات بأمره ، والأرض وما عليها ممهدة بقدرة ، مسيرة بنشئته ،
وفق حكمته .

هو الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويحمله كسفاً
. فترى الودق يخرج من خلاله ، وهو الذى سخر الفلك لتجربى فى البحر بأمره ،
ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وهو الذى جعل الأرض ذلولاً
ليمشى الناس فى مذاكبها وبأكلوا من رزقه .

كل من في السموات والأرض خلقه وعباده ، الملائكة في السموات ، والجن والإنس في الأرض ، كلهم في قبضة قدرته ، وطوع مشيئته : الملائكة جند الله المطيعون بفطرتهم ، « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون »^(١) « لا يصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »^(٢) .

والجن والإنس - وإن أعطاهم الحرية والاختيار - لا يخرجون عن مشيئته ومطاعته ، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ومن تورد منهم على العبودية له اليوم فسوف يعترف بها غداً « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدّهم عدداً . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً »^(٣) .

هو - تعالى شأنه - مع عباده جميعاً بعلمه وإحاطته : « وهو معكم أينما كنتم »^(٤) وهو مع المؤمنين خاصة بتأييده ومعاونته : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »^(٥) « وإن الله مع المؤمنين »^(٦) .

الكون كله - عاليه ودانيه - صامته وناطقه ، أحيائه وجماداته - كله خاضع لأمر الله ، منقاد لقانون الله ، شاهد بوحدايته وعظمته ، ناطق بآيات علمه وحكمته ، دائم التسبيح بحمده ، « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً »^(٧) .

إن تسبيح الكون لله ومسجوده لله ، حقيقة كبيرة ، عمت عنها أعين ،

(٢) التحريم ٦

(٤) الحديد ٤

(٦) الأنفال ١٩

(١) الأنبياء ٢٧

(٣) سورة مريم ٩٣ - ٩٥

(٥) النحل - آخر آية .

(٧) الاسراء ٤٤

وصمت عنها آذان ، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم ، ويسمعون
بآذان قلوبهم ، فإذا هم يرون الوجود كله محراباً ، والعوالم كلها مساجدة
خاشعة ، ترتل آيات التسبيح والثناء على العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم
« ولله يَسْجُدُ ما في السموات وما في الأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو
والآصال »^(١) « ألم ترَ أن الله يسجدُ له مَنْ في السمواتِ وَمَنْ في الأرضِ
والشمس والقمرُ والنجوم والجبال والشجرُ والدواب وكثير من الناس »^(٢)
« سُبْحَ لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له مُلْكُ السموات
والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأولُ والآخر والظاهر
والباطن وهو بكل شيء عليم »^(٣) .

الايمان بالنبوات :

والإيمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته
ورعايته للكون وتديره للعالم ، وتكريمه للإنسان ، بل هذا الإيمان فرع
عن ذلك ولا بد ، فما كان الله ليخلق الإنسان ، ويسخر له ما في الكون جميعاً ،
ثم يتركه يتخبط على غير هدى ، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة
كما هداه سبيل الحياة الدنيا ، وأن يهيء له زاده الروحي ، كما هيأ له زاده المادي ،
وأن ينزل الوحي من السماء ليحيي به القلوب والعقول ، كما أنزل من السماء ماءً لتحيي
به الأرض بعد موتها .

ما كان من الحكمة أن يترك الإنسان لنفسه تتنازع الفرد قواه وملكانه
المتنفة ، وتتنازع الجماعة أهواؤها ومصالحها المتضاربة ، وإنما كانت الحكمة في
عكس هذا . كانت الحكمة في إرسال رسله بالبينات ، ليهدوا الناس إلى الله ، ويقوموا
للموازين بالقسط بين العباد .

ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولا عنه يبلغهم بأمره ونهيهِ ، فيقول نوح : « يا قوم ايس بي ضلالةً واسكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمُونَ ^(١) » . ويقول هود لقومه ما يقرب من هذه المقالة .

ويقول القرآن رداً على المشركين الجاحدين برسالة محمد : « أكان للناس عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عَنْ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ : إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ^(٢) » .

* * *

والهداية بالوحي هي أعلى مراتب الهداية التي منحها الله للإنسان . فهناك الهداية الفطرية الكونية ، وهي التي عبر عنها أحد العلماء - بين قليل له : متى عقلت ؟ قال : منذ نزات من بطن أمي ، جئت فالتقمت الثدي وتألّمت فبكيت !!

وهذه الهداية ليست خاصة بالإنسان ، بل تشمل الحيوان والطير والحشرات وهي التي عبر عنها بالوحي في شأن النحل « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ^(٣) » بل هي منبثة في أجزاء الكون كله : في النبات الذي يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقدر معلوم ، وفي السكواكب التي يسير كل منها في مداره الذي لا يتعداه ، وفق قانون لا يتخطاه « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ^(٤) » فهي هداية عامة المخلوقات علويها وسفليها ، ولهذا ذكر لنا

(٢) يونس ٢

(٤) يس ٤٠

(١) الأعراف ٦١ - ٦٣

(٣) النحل ٦٨

القرآن جواب موسى لفرعون قال : « فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »^(١) وقال تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوّى . والذى قدرَ فهدى »^(٢) .

والمرتبة الثانية للهداية مرتبة الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والذوق ، والباطنة كالجوع والعطش والفرح والحزن ، وهذه المرتبة أرقى من الأولى ، ففيها نوع من الانتباه ، وقدر من الإدراك ، وإن كانت لا تسلم من الخطأ ، كما نرى فى السراب الذى يحسبه الرأى ماء ، وفى الظل الذى يظنه ما كنا وهو متحرك .

والمرتبة الثالثة : هداية العقل بملكاته وقواه المختلفة ، وهو أرقى رتبة من الحواس وإن كان كثيراً ما يعتمد على الحس فى الحكم والاستنباط . وبذلك يتعرض للخطأ كما يتعرض له فى ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج . والعقل فى عملياته العليا من خصائص الإنسان ، التى تفرد بها عن الحيوان .

والمرتبة الرابعة هى هداية الوحي ، وهى التى تصحح خطأ العقل ، وتنقى وهم الحواس ، وترسم الطريق إلى مالا سبيل للعقل أن يصل إليه وحده ، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول .

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهُدِيَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »^(٣) .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بالقسط»^(١) «رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»^(٢).

والإيمان بالنبوة والرسالة يتضمن في حناياه معاني عديدة :

١ — فعناه الإيمان بحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة ، فحكمة الحكيم ورحمة الرحيم هما اللتان اقتضتا ألا يترك الناس سدى ، وألا يعذبوا قبل البلاغ والتبشير والإنذار ، وألا يتركوا للخلاف يأكلهم دون حكم يرجعون إليه : « أychسب الإنسان أن يترك سدى »^(٣) « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً »^(٤) « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه »^(٥).

٢ — ومعناه الإيمان بوحدة الدين عند الله ، وأن دين الله في جميع الأماكن والأزمان واحد لا يتغير ، وإن تغيرت المناهج والشرائع باختلاف الأعصار : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »^(٦) « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يحبب إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب »^(٧).

ويصور رسول الإسلام موقفه من الأنبياء قبله ، إنه ليس إلا اللبنة الأخيرة ، في هذا الصرح الكبير ، فيقول : مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بيتاً

(٣) القيامة ٣٦

(٦) البقرة ١٣٦

(٢) النساء ١٦٥

(٥) البقرة ٢١٣

(١) الحديد ٢٥

(٤) الإسراء ١٥

(٧) الشورى ١٣

فأحسنه وأجمله إلا موضع ابنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ،
ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين .

٣ — ومعناه الإيمان بمثل عليا إنسانية واقعية ، وقدوات بشرية ممتازة ،
استطاعت أن تجعل من مكارم الأخلاق ، وصوالح الأعمال ، وفضائل النفوس
حقائق واقعة ، وشخصاً مرئية للناس ، لا مجرد أفكار في بعض الرؤوس ، أو
أمانى في بعض النفوس . أو نظريات في الكتب والقراطيس . وجمهور الناس
ليسوا فلاسفة يؤمنون بالمجردات ، وإنما يؤمنون ويتأثرون وينفعلون بما يشاهدون
وما يحسون ، ولهذا جعل الله الرسل إلى الناس بشراً مثلهم ، لا ملائكة من غير
جنسهم ، لأن الإنسان لا يأنس إلا لمثله ، ولا يقتدى إلا بمثله ، ولا تقوم عليه الحجة
إلا به . وقد استبعد المشركون أن يكون الرسول بشراً ، وقالوا : منذ عهد نوح :
« لو شاء الله لآنزل ملائكة » ^(١) وقالوا في عهد محمد : « أبعث الله بشراً
رسولاً » ^(٢) ؟ فرد الله عليهم بقوله : « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون
مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً » ^(٣) .

فالأنبياء ليسوا في نظر القرآن آلهة ، ولا أنصاف آلهة ، ولا أبناء آلهة ، إنهم
بشر مثلنا ، من الله عليهم بنعمة الوحي ، ليبلغوا رسالة الله للناس : « قالت لهم رسالتهم
إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان
لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ^(٤) .

الايمان بالآخرة :

أهذا ملخص قصة الحياة والإنسان ؟ أرحام ندفع وأرض تبلى ولا شيء بعد
هذا — أو كما عبر القرآن عن قوم : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما
نحنُ بمبعوثين » ؟ ^(٥) .

(٢) الاسراء ٩٥

(٢) الاسراء ٩٤

(٥) المؤمنون ٣٧

(١) المؤمنون ٢٤

(٤) ابراهيم ١٠

إذن فما سر هذا الشعور الخفى ، والوجدان الكامن الذى يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن بأنه لم يخلق لمجرد هذه الحياة ، ولتلك المدة القصيرة ؟ ماسر هذا الشعور بأن الإنسان فى هذه الدنيا غريب أو عابر سبيل وأنه ضئيف يوشك أن يرتحل إلى دار إقامة ؟

هذا الشعور الذى رأيناه عند قدماء المصريين فخطوا — استجابة له — جثث الموتى ، وبنوا الأهرام ، والذى ظهرت آثاره فى أمم شتى بأساليب مختلفة . يقول الشيخ محمد عبده : (اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ، نبيين وفلاسفة — إلا قليلا لا يقيم لهم وزن — على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وأنها لا تموت موت فناء — أى زوال مطلق — وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء ، وفيما تكون فيه ، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ فى أحياء البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال : إنها إذا فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقتها . ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثرية ألطف من هذه الأجسام المريئة ...

(هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، والنبعث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو من الإلهامات التى اختص بها هذا النوع . فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا — وإن شذ أناس منه أنكروا ذلك أو شكوا فيه — ، كذلك قد ألهمت العقول ، وشعرت النفوس ، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود بل الإنسان ينزع هذا الجسد ، كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر ، وإن لم يدرك كنهه .

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء ، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طريق غير محصورة ، شيقة إلى لذات غير محدودة ، ولا واقفة عند غاية ، مهياة لدرجات من الكمال لا تحدها أطراف المراتب والغايات) .

ثم كيف يسيع العقل أن ينفذ سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب وسرق فيها من سرق ، وقتل فيها من قتل . وبغى فيها من بغى ، وتجبر من تجبر ، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه بل تستر واختفى فأفقت ونجا . . أو تمكّن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت ؟

وفي الجانب الآخر : كم أحسن قوم ، وضحوا وجاهدوا ولم ينالوا جزاء ما قدموا ، إما لأنهم كانوا جنوداً مجهولين ، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتسكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم ، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير . وكم من قوم دعوا إلى الحق ، واستمسكوا به ، ودافعوا عنه ، فوقف الظالمون في طريقهم ، وأوذوا وعذبوا واضطهدوا وشردوا ، وضغطوا صرعى في سبيله . وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية بل في ترف ونعيم .

ألا يسيع العقل — الذى يؤمن بعدالة الإله الواحد — بل يطلب أن توجد دار أخرى يجزى فيها الحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؟ هذا ما تنطق به الحكمة السارية في كل ذرة في السموات والأرض : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » ^(١) « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ؟ » ^(٢) .

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » ^(١) .

« والله ما في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » ^(٢) .

* * *

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزير على من خلقهم أول مرة : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ^(٣) .

بهذا الخلق الأول يستدل القرآن على إمكان البعث ، كما يستدل عليه بمظاهر قدرة الله فى عالم النبات : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، ونرى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » ^(٤) ويستدل القرآن على إمكان البعث بنجاح الأجرام العظيمة فى هذا الكون من السموات والأرض ، وهى — لمن تأمل — أكبر من خلق الناس وأعظم : « أولئسى الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق

(٢) الفجم ٣١

(٤) الحج ٥ - ٧

(١) الجاثية ٢١ ، ٢٢

(٣) الروم ٢٧

العليم» (١) «أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعن بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير» (٢).

وبعد بعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق، والميزان العادل :
«اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب» (٣)
«ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» (٤) وهناك ينقسم العباد إلى شقي وسعيد ؛
«فأما الذين شقوا في النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ» (٥).

* * *

والجنة دار هياها الله لمثوبة الصالحين من عباده ، وأعد فيها من النعيم الروحي والمادى ما عبر الله عنه في الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وقرأوا إن شئتم قوله تعالى :

« أفلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » (٦).
إن الحياة في هذه الدار هي الحياة الخقة ، وإن نعيمها هو النعيم الذي يقصر الخيال البشرى عن وصفه . إنه ليس نعيماً روحياً خالصاً ، ولا نعيماً مادياً صرفاً ، وإنما هو مزيج من الأمرين ، ذلك أن الإنسان نفسه ليس روحاً مجردة ، ولا مادة بحتاً ، إنما هو مركب منهما ، والإنسان في الآخرة امتداد لإنسان الدنيا ، وإن

(٢) الاحقاف ٣٣

(٤) الأنبياء ٤٧

(٦) السجدة ١٧

(١) يس ٨١

(٣) غافر ١٧

(٥) هود ١٠٦ - ١٠٨

اختلف الكيف والتفصيل ، فلا عجب أن يكون في الجنة فاكهة ولحم طير وحرور عين (وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)^(١) .

والنار دار أعدها الله لعقوبة الفجار من الخلق . وهي تجمع العقوبتين المادية والروحية معاً .. فهناك العذاب الحسى « كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »^(٢) وهناك العذاب النفسى الذى يتمثل فى الهوان والحزى كقوله تعالى لهم : « اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا »^(٣) .

مزايا العقيدة الإسلامية

١ - عقيدة واضحة :

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد :

فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض ، تتلخص في أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم رباً واحداً خلقه ونظمه . وقد ركل شيء فيه تقديراً ، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد « بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَه قَانُتُونَ » (١) .

وهذه عقيدة واضحة مقبولة ، فالعقل دائماً يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ، ويريد أن يرجع الأشياء دوماً إلى سبب واحد .

فليس في عقيدة التوحيد ما في العقائد الأخرى مثل المثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذي يعتمد دائماً على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين « اعتقد وأنت أعمى » .

٢ - عقيدة الفطرة :

وهي عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها ، بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (٢) . وصريح الحديث النبوي : « كل مولود يولد على الفطرة (أي على الإسلام) وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (٣) . فدل على أن الإسلام هو فطرة الله ، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين .

(٣) متفق عليه

(٢) الروم ٣٠

(١) البقرة ١١٦

٣ - عقيدة ثابتة :

وهي عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة ولا النقصان ، ولا التحريف والتبديل ، فليس لحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجمع العلمية ، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية ، أن يضيف إليها أو يحور فيها ، وكل إضافة أو تحوير مردودة على صاحبها ، والنبي ﷺ يقول : « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » ^(١) أى مردود عليه .

والقرآن يقول مستنكراً : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » ^(٢) . وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التي دست في بعض كتب المسلمين أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه .

٤ - عقيدة مبرهنة :

وهي عقيدة « مبرهنة » لا تكتفى من تقرير قضايها بالإلزام المجرد . والتكليف الصارم ، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى « اعتقد وأنت أعمى » أو « آمن ثم اعلم » أو « أغض عينيك ثم اتبعني » أو « الجهالة أم التقوى » بل يقول كتابها بصراحة : « قل ها تواتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ^(٣) ، ولا يقول أحد علمائها ما قاله القديس الفيلسوف المسيحي (أوغسطين) : « أو من بهذا لأنه محال » ! بل يقول علماءها : إن إيمان المقلد لا يقبل .

وكذلك لا تكتفى بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليها أساساً للاعتقاد . بل تتبع قضايها بأخجة الدامغة ، والرهان الناصع ، والتعليل الواضح ، الذي يملك أزمة العقول ، ويأخذ الطريق إلى القلوب ، ويقول علماءها : إن العقل أساس النقل . . والنقل الصحيح لا يخاف العقل الصريح .

(١) متفق عليه

(٢) الشورى ٢١

(٣) البقرة ١١١ والنمل ٦٤

فترى القرآن في قضية الألوهية يقيم الأدلة من الكون ومن النفس ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكأله .

وفي قضية البعث يدل على إمكانه بخلق الإنسان أول مرة ، وخلق السموات والأرض ، وإحياء الأرض بعد موتها ، ويدل على حكمته بالعدالة الإلهية في إثابة الحسن ، وعقوبة المسيء : « ليجزى الذين أَسَاءُوا بِمَا عَمَلُوا وَيَجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ »^(١) .

٥ — عقيدة وسط :

وهي عقيدة وسط لاتجد فيها افراطا ولا تفريطا :

هي وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم ، وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله ، بل يحلون روح الإله في الملوك والحكام ، بل في بعض الحيوانات والنبات مثل الأبقار والأشجار ، فقد رفضت الإنكار الملهد ، كما رفضت التعديد الجاهل ، والإشراك الغافل ، وأثبتت للعالم إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون . لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله ، قل أولا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأني تسحرون »^(٢) .

وهي عقيدة وسط في صفات الاله .

فليس فيها الغلو في التجريد الذي يجعل صفات الإله مجرد سلوب لا تعطي معنى ، ولا توحى بخوف أو رجاء ، — كما فعلت الفلسفة اليونانية — فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا . . من غير أن تقول ما صفات هذا الإله الإيجابية ؟ وما أثرها في هذا العالم ؟

(١) النجم ٣١

(٢) المؤمنون ٨٤ — ٨٩

ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذى وقعت فيه عقائد أخرى
كاليهودية - جعلت الخالق كأنه أحد المخلوقين من الناس ، ووصفته بالنوم
والتعب والراحة ، والتجيز والمحابة والقسوة .. و .. وجعلته يلتقى ببعض الأنبياء
فيصارعهم فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بلقب جديد !!

ولكن عقيدة الإسلام تقرر تنزيه الله - إجمالا - عن مشابهة مخلوقاته
« ليس كمنه شيء وهو السميع البصير »^(١) « ولم يكن له كفواً أحد »^(٢) .
ومع هذا تصفه - تفصيلا - بصفات إيجابية فعالة : « الله لا إله إلا هو الحى
القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى
يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من
علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يئوده حفظهما
وهو العلى العظيم »^(٣) .

« إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدى ويعيد . وهو الغفور الودود .
ذو العرش المجيد ، فعّال لما يريد »^(٤) .

وهى وسط بين التسليم الأبله الذى يأخذ عقائد الآباء بالوراثة ، كما يرث
عنهم العقارات والأملك ، « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم
مقتدون »^(٥) ، وبين الذين يريدون أن يعرفوا كنه كل شيء حتى الألوهية .
وهم بعد لم يعرفوا كنه أنفسهم التى بين جنوبيهم ، ولا ماهية حياتهم وموتهم ،
ولا كنه شيء من القوى الكونية المحيطة بهم فكيف يطمع العقل بعد ذلك فى
معرفة كنه الألوهية ؟ وهل يعرف النسبى كنه المطلق ؟ ويعرف المحدود حقيقة
غير المحدود ؟ !

(٣) البقرة ٢٥٥

(٢) الاخلاص ٤

(١) الشورى ١١

(٥) الزخرف ٢٣

(٤) البروج ١٦-١٢

وهي مع هذا تفتح الباب للنظر في الكون والتفكير فيه ، يقول الرسول :
« تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتملـكوا »^(١) ويقول القرآن :
« قل انظروا ماذا في السموات والأرض »^(٢) « أو لم يتفكروا في أنفسهم »^(٣)
« أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء »^(٤) ؟
« وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون »^(٥) .

وهي وسط في علاقتها بالعقائد الأخرى . فلا تقبل الذونان في غيرها ، بل
تدعو في قوة إلى الثبات عليها والاستمسك بها : « فتوكل على الله إنك على
الحق المبين »^(٦) : « فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم »^(٧)
ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية : « الله ربنا وربكم لنا أعمالنا
ولكم أعمالكم »^(٨) بل يتسع صدرها لما يخالفها : « لكم دينكم ولي دين »^(٩)
« لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون »^(١٠) .
تهيب بأصحابها أن يدعوا إليها : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله »^(١١)
ولكنها لا ترضى بإكراه أحد على اعتناقها : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد
من الغي »^(١٢) .

لا تقبل التهاون في موادة من يحاربونها ، ويضعون العراقيل في سبيلها وإن
كانوا من ذوى القرابة القريبة : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون
من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم »^(١٣)

(١) الحديث روى بالفاظ متعددة ، من طرق مختلفة ، بأسانيد كلها ضعيفة ، ولكن تعددها
واجتماعها يكسبها قوة ، والمعنى صحيح كما قال السخاوى في المقاصد الحسنة .

(٣) الروم ٨

(٥) الذاريات ٢٠ ، ٢١

(٧) الزخرف ٤٣

(٩) الكافرون ٦

(١١) فصلت ٢٣

(١٣) المجادلة ٢٢

(٢) يونس ١٠١

(٤) الأعراف ١٨٥

(٦) النحل ٧٩

(٨) الشورى ٥

(١٠) يونس ٤١

(١٢) البقرة ٢٥٦ .

ولكنها لاتقبض يد البر والمعونة ان يخالفها ولا يعتدى على أهلها : « لانيهاكم الله عن الذين لم يقاتلواكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبوههم وتسخطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (١).

وهي وسط بين الذين يتساهلون في إثبات العقائد فيقبلون الظنون والشكوك والأوهام ، وهذا مَعين لا ينضب لقبول الخرافات والأساطير ، وبين الذين لا يقبلون في العقيدة أى خطرة تمر بالذهن ثم تختفى ، أو هاجس يهيجس في النفس ثم يزول ، لقد رفضت عقيدة الإسلام الظن في أصول العقيدة - فضلاً عن الشك أو الوهم - قال تعالى : « وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » (٢) : « إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ » (٣) « وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » (٤).

ومع هذا تساحت في الخواطر التي لا يسلم منها العقل البشري ، بل اعتبرتها أحياناً دليل يقظة العقل ، ومظنة للعلمانية وعلم اليقين . قال بعض الصحابة : يا رسول الله ، إنا نجد في أنفسنا ما لو أن نصير حُمماً - فحماً محترقاً - أهون من أن نتكلم به - يعنون خطرات ترد عليهم في قضايا الألوهية - فقال النبي في صراحة وقوة : أو قد وجدتموه ؟ ذاك صريح الإيمان (٥).

ويروى الحاكم أن ابن عباس وابن عمر التقيا ، فقال ابن عباس : أى آية في كتاب الله أرجى ؟

فقال ابن عمر : قول الله : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى »

(٣) النجم ١٢٣

(٢) يونس ٣٦

(١) المتجنه ٨

(٥) رواه البخارى وغيره.

(٤) النجم ٢٨

نقال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي « فرضى منه بقوله : بلى ، فهذا لما يعترض في الصدر مما يؤموس به الشيطان » .

إنها وسوسة شيطان سرعان ما يطرد بها إلهام الملك في قلب المؤمن ، إنها طيف يبلوح ثم يختفى ، وهاجس يهيجس ثم يزول بإسلام الوجه لله ، والاعتصام بهداه ، وتلاوة آياته : « وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ^(١) « وَمَنْ يُسلم وجهه إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُور » ^(٢) .

وهي وسط في أمر النبوة ، فلم ترفع الأنبياء إلى مقام الألوهية ، فيتجه الناس إليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله ، كما اعتقد أهل الملل في أنبيائهم ، ولم تنزل بهم إلى مستوى السفلة من الناس ، فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات ، وفعل المنكرات من شرب المسكرات ، واتباع للشهوات ، بل قتل للنفوس في سبيلها — كما رأينا في وصف أسفار العهد القديم للأنبياء .

وإنما الأنبياء في عقيدة الإسلام بشر أصفياء ، علم الله طيب معادهم ، وحسن استعدادهم ، فأنزل وحيه عليهم : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » ^(٣) وجعلهم أسوة للأنبياء وعصمهم من قبائح الذنوب ودنيء الأعمال ، حتى لا يتوجه إليهم وعبد الله : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ^(٤) وحتى يكونوا أهلاً لعهد الله « قَالَ لَا يَنْبَأُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » ^(٥) .

وهي عقيدة وسط في قضية الإرادة الإنسانية ، قضية الجبر والاختيار ، تلك القضية التي حار العقل البشري في الوصول إلى رأى فيها ، وتنازع فيها الفلاسفة وعلماء الأخلاق والنفس والتربية وغيرهم منذ تفلسف الإنسان إلى اليوم .

(٢) الأنعام ١٢٤

(٢) لقمان ٢٢

(١) آل عمران ١٠١

(٥) البقرة ١٢٤

(٤) البقرة ٤٤

عقيدة الإسلام في هذا هي العقيدة الوسط المطابقة للفطرة السليمة والواقع المشاهد ، فالإنسان في دائرة أعماله الاختيارية — حر مسؤول عن نفسه وعمله ، له أن يفعل وأن يترك ، أن يقدم وأن يحجم — كما تشهد بذلك بديهته وإحساسه ، وكما تشهد نصوص القرآن « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ » ^(١) : « إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » ^(٢) « إِنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ » ^(٣) : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا » ^(٤) : « لَا تَكُلْفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا » ^(٥) إلى غير ذلك من آيات تباعغ اللغات ، كلها تقرر حرية الإنسان ومسؤوليته عن عمله .

ولم يكتف القرآن بهذا التقرير الإيجابي ، ولكنه حمل بقوة على الجبريين الذين يلتون بشركهم وأوزارهم على كاهل القدر ، محتجين بشيئة الله قائل : « سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا متحصبون » ^(٦) .

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » ^(٧) ؟

« وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، إن أنتم إلا في ضلال مبين » ^(٨) .

ولكن الإنسان — كما هو الواقع — ليس مطلق الإرادة ، كامل الاختيار ، بحيث يفعل كل ما يشاء ، وينفذ كل ما يريد ، ولو فعل لكان إلهًا .

(١) الكهف ٢٩	(٢) المزمل ١٩	(٣) المدثر ٣٧	(٤) الجاثية ١٥
(٥) البقرة ٢٣٤	(٦) الأنعام ١١٨	(٧) التحل ٣٥	(٨) يس ٤٧

ولن يستطيع أحد - مهما بلغ من الانتصار للحرية الإنسانية - أن ينكر هذه المحدودية لإرادة البشر ، فقد حكموا فيه الوراثة ، أو البيئة أو كليهما . وقال بعضهم : « الإنسان حر في ميدان من القيود » ، حتى أولئك الماديون الجدليون قيدوه بوسائل الإنتاج ، وظواهر الاقتصاد ، فنزلوا بالإنسان إلى أحط مستوى من « الجبرية » حين جعلوه عبداً خاضعاً لمظاهر المادة ، لاسيماً مهيمناً عليها كما يقرر الإسلام .

هذه الحقيقة المنفق عليها قررنا الإسلام في صورة أشرف وأكرم للإنسان ، فهو حر مختار في دائرة ما رسم الله للوجود من منن ، يجريها بعلمه وحكمته ومشيئته على أجزاء الكون كله ، ومنها هذا الإنسان ، فهو حر لأن الله أراد له الحرية ، أو هو يشاء ، لأن الله هو الذي قدر له أن يشاء « وَمَا تَشَاوُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » (١) .

فالقرآن بجانب ما يقرره من حرية الإرادة الإنسانية - يذكر الجانب الآخر ، جانب الإرادة الإلهية النافذة ، والقدرة الإلهية القاهرة : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » (٢) : « ولا تقولنَّ شيئاً إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » (٣) . « إن ربك ييسطُ الرزق لمن يشاء ويقدر » (٤) « يضل من يشاء ويهتدي من يشاء » (٥) « قل كل من عند الله » (٦) .

والقرآن قد أدى للحقيقة حقها من كل جوانبها ، فلم يغبط الألوهية حقها ، كما لم يعدد بالإنسان قدره . وكان بشموله واتساع نظراته كتاب العالم كله وكتاب الزمن كله .

يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريبة :

(٣) السكف ٢٤

(٢) يونس ٩٩

(١) الانسان ٣٠

(٦) النساء ٧٨

(٥) فاطر ٨

(٤) الاسراء ٣٠

« إن القرآن كتاب موجه للإنسانية كلها ، وهو ينطبق على جميع طوائف هذه الإنسانية ويعبر عن ذلك تماماً ، فالمتدين الورع ، الذى قد نفذ فى كيانه الشعور العميق بأنه مخلوق فيريد أن يخرج عن حوله وقوته وينسب الخير لله والشر لنفسه ، أو يرى أن ينسب كل شئ لله نسبة ميتافيزيقية لا مادية يجد فى القرآن ما يناسبه ذلك . من مثل : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » « قل كل من عند الله » .

والمتدين المعتز بفعل الخير ، المعترف بمسؤوليته فى فعله للشر ، يجد ما يرضى شعوره بذاته ، ويتفق مع العدالة التى يتصورها : من مثل : « مَنْ عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

والمذنب المسرف على نفسه يجد إذا تاب وأناب ما يبدد يأسه ويطمئنه على مصيره . من مثل : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » .

والناظر نظرة فلسفية ميتافيزيقية عميقة يجد ما يلائم نظرتة ..
والخاسر الذى يزعم أنه هالك قد قضى عليه بالشر والشقاء يجد ما يقرر وصف حاله ...

فالقرآن ليس موجهاً للسذج ولا للمصريين على النظر إلى شئ واحد وعلى النظر من جانب واحد ، بل هو موجه إلى الإنسانية المتطورة ، السائرة فى تطورها نحو الكمال والفكر ونحو النظرة الموحدة ^(١) .

(١) من تعقيبات الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده على كتاب « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » لديبور ص ٦٩ .



النَّارِي السَّيَابِي

الباب الثاني

أثر الإيمان في حياة الفرد

- الإيمان وكرامة الانسان
- الإيمان والسعادة
- سكينة النفس
- الرضى
- الامن النفسى
- الامل
- الإيمان والحب
- الثبات فى الشدائد

أشرا لإيمان في حياة الفرد

هل نستطيع أن نحدد أهم ما يريده الفرد لنفسه ، وما ينشده في حياته ؟
وما الذي تتطلع إليه نفسه ، ويسعى جاهداً لتحقيقه من الأهداف الكبيرة
والغايات البعيدة ؟

نعم نستطيع أن نحدد ذلك إذا نظرنا إلى أنفسنا ، ونظرنا إلى البشر من
حولنا ، واستقرأنا أحوال البشر في تاريخهم القريب والبعيد .

نستطيع أن نحدد ذلك إذا عرفنا أن مقصودنا من الفرد هو الإنسان السوى
لا الشاذ ، الإنسان السليم لا المختل المشوه المشوش .

إن الفرد يريد أن يشعر بإنسانيته ، ويحيا بخصائصها . يريد أن يحس
بكرامته وذاتيته ، وأن له وزناً وقيمة في هذا الوجود ، يريد أن يشعر أن
لوجوده غاية ، ولحياته رسالة ، وأنه شيء مذكور بين أشياء هذا الكون العديدة .
وأنه مخلوق متميز عن القروود والدواب والحشرات ، وأنه لم يخلق في هذه الأرض
عبثاً ، ولا أعطى العقل وعلم البيان اعتباراً .

الفرد ينشد الكرامة ، وينشد معها القوة . القوة تجاه الطبيعة ، وتجاه
الأحداث ، القوة أمام طغيان الغير ، وأمام شهوات النفس ، على حد سواء ،
القوة على تحقيق الغايات ، وأداء الواجبات ، القوة التي تعوض الفرد عن ضعفه
الجسدى ، وعجزه الخلقى وقصوره الذاتى ، إزاء الأقدار ، وإزاء الموت ، وإزاء
المجتمع بقواه الكبيرة المتنوعة .

وهو — مع هذا — ينشد شيئاً آخر . يلهث الناس جميعاً في البحث عنه :
إنه ينشد السعادة ، ينشدها في هذه الحياة لا في الحياة الأخرى فحسب .. لا يريد

أن يقضى أيامه المقدرة له في هذه الدنيا شقياً تقيماً . يريد أن يعيش حياته ناعماً بسكينة النفس ، وطمأنينة القلب . يريد أن يتمتع بالأمن الداخلى يعمر جوانحه ، وبالرضى الذاتى يملأ عليه أقطار روحه ، وبالأمل المشرق يضيء له آفاق حياته ، وبالحب الكبير يعمر بالنور والضياء كل حناياه ، وكل جوانب دنياه .

هذه هي أهم وأعظم ما ينشده « الإنسان » السوى لنفسه ولكل من يحب من أهله ومن الناس .

أما الشواذ الذين يريدون أن يعيشوا ليأكلوا ويتمتعوا كما تتمتع الأنعام ، ثم ينفقوا^(١) أخيراً كما تنفق الأنعام أيضاً .

وأما الذين يريدون أن يعيشوا كالثئاب والسباع ، تعدو وتسطو وتتسلط على غيرها بمنطق الناب والخلب وتجد لذة في هذا السطو والعدوان .

أما هؤلاء وأولئك وأمثالهم ، فليسوا مقياساً لكل انبشر . . ومع هذا لا يبعد أن يفيق أحدهم أو يصحو . ليفتش عن نفسه : أين هي ؟ وعن ذاته : ما هو ؟ ويبحث — مع البشر الأسوياء — عن الكرامة والقوة ، عن السعادة والسكينة ، عن المعانى الإنسانية الرفيعة ، التى بدونها لا يجد الإنسان ذاته ، ولا يتذوق حياته طعماً ، ولا يشعر لوجوده بمعنى أو قيمة .

فهل الإيمان أثر في تحقيق هذه المعانى الكبيرة ، والأهداف العميقة ، في حياة الفرد ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفصول التالية من هذا الكتاب إن شاء الله .

الإيمان وكرامة الإنسان

« ولقد كرّمنا بنى آدم وحمّلناهم في البر
والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على
كثير ممن خلقنا تفضيلاً ، »
قرآن كريم

الانسان في نظر الماديين :

ما الإنسان ؟

إنه في نظر الماديين قبضة من تراب هذه الأرض . من الأرض نشأ ، وعلى
الأرض يمشي ، ومن الأرض يأكل ، وإلى الأرض يعود !!
هو كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة والغدد والخلايا ،
وما العقل والتفكير إلا مادة يفرزها المخ ، كما تفرز الكبد الصفراء ، أو كما تفرز
الكلى البول !

هو كائن ليس له أهمية ولا امتياز على غيره . إنه أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة
على هذه الأرض ، بل هو من جنس هذه الحوام والحشرات والزواحف والقروء ،
غاية أمره أنه « تطور » بمرور الزمن فأصبح هذا الإنسان !!

والأرض التي يحيا عليها الإنسان ، إن هي إلا كوكب صغير ضمن المجموعة
الشمسية ، التي هي مجموعة من مجاميع ضخمة كبيرة كثيرة يضمها عالم الأفلاك ،
تعد بمئات الملايين .

هكذا أنبأنا الفلك الحديث ، وعرفنا من « كوبر نيكس » أن الإنسان شيء
ضئيل ، ضئيل في الكون الكبير .. هذا من حيث المكان .

أما من حيث الزمان ، فقد جاء « دارون » وجاء الجيولوجيون فأثبتوا
لنا أن الإنسان شيء تافه أيضاً من حيث الزمان ، فإن عمر الأرض يمتد
إلى مئات الملايين من السنين ، فما قيمة أى مائة أو حتى مئات من الأعوام
يعيشها الإنسان ؟

تلك هى قيمة الإنسان بالنسبة إلى المكان وإلى الزمان فى نظر الماديين ..
إنهم لا يميزونه بما يسميه غيرهم « الروح الإلهى » أو « النفس الناطقة » إنه
ليس إلا هذا الهيكل المادى وهذا الجسم الحيوانى .

وما قيمة هذا الجسم ، وهذا الهيكل الذى هو الإنسان ؟
« إن أحد العلماء رد جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية فيه ، فخرج
بالتأج الآتية :

إذا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلا (١٤٠) وغلغلنا النظر فى تكوينه
وجدنا بدنه يحتوى على المواد الآتية :

- قدر من الدهن يكفى لصنع ٧ سبعة قطع من الصابون .
- قدر من السكر بون يكفى لصنع ٧ سبعة أقلام رصاص .
- قدر من الفسفور يكفى لصنع رؤوس ١٢٠ مائة وعشرين عود ثقاب .
- قدر من ملح المغنيسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات .
- قدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه .
- قدر من الجير يكفى لتبييض بيت للدجاج .
- قدر من السكر يت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره .
- قدر من الماء يملأ برميلا سمته عشر جالونات !

وهذه المواد تشتري من الأسواق بمبلغ من المال يساوي خمسين أو ستين
قرشاً مصرياً !!

وتلك هي قيمة الإنسان المادية^(١) .

لأرواح هنالك ولا نفحة من السماء يخصص بها هذا الكائن القذ !!
يقول أحد ملاحدة العرب المصيرين :

« هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة ؟! نحن لانسأوى أكثر
من أنفسنا ، وكذلك الحشرات . ونحن لانريد إلا أن نحقق أنفسنا ، وكذلك
أيضاً الحشرات !

والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط . و فرق التفوق بيننا وبين
أرقى حيوان . لا يفوق كثيراً فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان !

ماذا نفقد أو يفقد الكون أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا ؟ !

وليس مذهب إلميه دارون وفرويد وأمثالهما من الماديين بأفضل من هذه النظرة
إلى الإنسان . إنه عندهم أخو الحشرات ، وصنو القروء ! إنهم لا يبصرون فيه
إلا القشرة والغلاف ، ولا يعرفون فيه إلا الطين والحما المسنون ! فهو مخلوق من
طبيعته الانجذاب إلى أسفل ، وليس الرقي إلى أعلى . من طبيعته الهبوط إلى الأرض ،
وليس الارتفاع إلى السماء . هو — بعبارة موجزة — « حيوان متطور » ترقى
من طور إلى طور حتى بلغ ما هو عليه . فالحيوانية في الإنسان قشرته ولبه ،
ولحمته وسداه !

فأى إيماء للنفس الإنسانية أسوأ من هذا الإيماء أثراً ؟ أن يرى الإنسان نفسه
مخلوقاً هابطاً .. حيواناً .. طيناً وحماً ! إنه لا يستغرب من نفسه الانحدار والتلوث

(١) من كتاب « نظرات في القرآن » للأستاذ محمد الغزالي

والإسفاف . ولا يستمكنف من القذارة والأوحال أن يتمرغ فيها ، ويتلطح بها ، بل المستغرب منه أن يتعفف وبتطهر ، وأن يحيا نظيفاً مستعملياً على الشهوات ، والمطامع المادية ، باذلاً النفس والمال في سبيل الحق ، ابتغاء رضوان الله .

الإنسان في نظر المؤمنين :

أما الإنسان في نظر المؤمنين فهو مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه في أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وميزه بالعلم والإرادة ، وجعله خليفة في الأرض ، ومحور النشاط في الكون ، وسحر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، فكل ما في الكون له وخدمته . أما هو فجعله تعالى لنفسه .

يقول الله تعالى في بعض الآثار الإلهية : « ابن آدم خلقتك لنفسى ، وخلفت كل شيء لك ، فبحق عليك لا تشغل بما خلقته لك عما خلقتك له » « ابن آدم خلقتك لنفسى فلا تلعب ، وتسكفات برزقك فلا تنعب . ابن آدم ، اطلبنى تجدنى ، فإن وجدتني وجدت كل شيء . وإن فتنى ، فأتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء » .
حقاً إن الإنسان شيء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياته جسمه ، ولسكنه من حيث روحه وكيانه المعنوي شيء كبير ، وهل الإنسان في الحقيقة إلا ذلك الروح وذلك الكيان المعنوي ؟

ولله در القائل :

دواؤك فيك وما تبصر دواؤك منك وما تشعر !!
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر !.

وحقاً إن الإنسان من حيث عمره القصير على الأرض ذرة في صحراء الأزمنة الجيولوجية البعيدة الضاربة في أغوار القدم — إن صح ما قالوا — ولكن المؤمنين ، يوقنون أن الموت ليس نهاية الإنسان ، إنه محطة انتقال إلى الأبد الذي لا نهاية له ، إلى دار الخلود .. إلى حيث يقال للمؤمنين : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » (١) .

وإذا كانت هذه كرامة الإنسان في نظر الدين عامة ، فله في الإسلام خاصة مكان أى مكان . تحدث القرآن عن الإنسان في عشرات بل مئات من آياته ، وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ وكانت خمس آيات لم تغفل شأن الإنسان وعلاقته بربه — علاقة الخلق والتسكريم . وعلاقة الهداية والتعليم ، واختارت الآيات لفظ « الرب » لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال ، هذه الآيات الأولى في القرآن هي قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (١) .

مكانة الانسان من الله :

وفي آيات كثيرة من صور شتى ، بين القرآن قرب الإنسان من الله ، وقرب الله من الإنسان ، ذلك القرب القريب الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان ، الذين جعلوا من أنفسهم « حجاباً » على « أبواب » رحمة الله الواسعة ، والله يعلم إنهم كاذبون . قال الله في القرآن : « وإذا سألت عبادي عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » (٢) : « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » (٣) : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (٤) : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » (٥) .

ويؤكد الرسول هذا المعنى في أحاديثه عن ربه : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرنى : : إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى : وان ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منه ، وان تقرب الى شبراً تقربت اليه ذراعاً ؛ وان تقرب الى ذراعاً تقربت اليه باعاً ؛ وان أتانى بمشي أتيتة هرولة ، (٦) .

هذه مكانة الإنسان عند الله .

(٢) سورة البقرة ١٨٦ (٣) البقرة ١١٥
(٥) المجادلة ٧ (٦) رواه البخارى
(م ٥ — الايمان)

(١) سورة العلق
(٤) سورة ق ١٦

مكانة الإنسان في الملائكة :

أما مكانه هناك في الملائكة الأعلى — عند العوالم الروحية العلوية — فهي مكانة اشترأت إليها أعناق الملائكة المقربين ، وتطاوات إليها نفوسهم فأوتوها . فإن الذي اختار الله له هذه المكانة — خلافة الله في الأرض — هو الإنسان : « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (١) .

وقد أراد الله أن يكرم هذا النوع ويحتفي به ، ويظهر مكانه في تلك العوالم الروحية ، فأمر الملائكة أن تؤدي التحية لهذا الكائن الجديد ، وتستقبله بالحناءة وإجلال وإكبار : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس .. » (٢) .

لقد تمرد إبليس على أمر ربه بالتحية لهذا الإنسان ، ودفعه الحسد والغرور أن أبي واستكبر وكان من الكافرين ، واتخذ من الإنسان موقف التحدي والعداء ، فماذا كانت عاقبة هذا العدو المبين ؟ كانت كما ذكر القرآن قال : « فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين » (٣) .

وتلك هي مكانة الإنسان في العوالم الروحية .

مكانة الانسان في هذا العالم المادى :

أما مركز الانسان في هذا الكون المادى العريض فهو مركز السيد المتصرف الذى سخر كل ما فى هذا العالم لنفعه ولإصلاح أمره ، وكأن كل شئ فى هذا الكون قد « نسج » من أجله و « فصل » على « قده » تفصيلاً ، « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجربى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر ذابيين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »^(١) « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفصيلاً »^(٢) : « الله الذى سخر لكم البحر لتجربى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »^(٣) .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة »^(٤) .

وتلك هى مكانة الإنسان فى هذا الكون وصلته بما فيه .

وما الذى بوأ الإنسان هذه المكانة السامية وفى الكون أجرام أضخم منه وأكبر ؟

إنه سر القبس الذى هو فيه من نور الله ، والنفخة التى فيه من روح الله .

تلك النفخة التى جعلته مستعداً للخلافة فى الأرض ، مستعداً لحمل الأمانة

(٢) الإسرائ ٧٠

(٤) لقمان ٢٠

(١) ابراهيم ٣٢ - ٣٤

(٣) الجاثية ١٢ ، ١٣

الكبرى . أمانة التكليف والمسؤولية ، تلك التي صورها القرآن تصويراً أدبيّاً رائعاً حين قل : « إِنَّا عَرَضْنَا ، الأمانة عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجبال فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ »^(١) .

هذا الاستعداد في الإنسان هو الذي جعل مصيره بيده - بعد أن يسر الله له سُبُل الهداية وأزاح عنه كل الأعذار : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ »^(٢) « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِر »^(٣) « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »^(٤) : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ لَأَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »^(٥) .

لقد سما الإسلام بالإنسان فاعترف به كله ، روحه وجسده ، عقله وقلبه ، إرادته ووجدانه ، غرائزه الهابطة وأشواقه الصاعدة . . لم يضع في عنقه غلا ، ولا في رجله قيداً ، ولم يحرم عليه طيباً ، ولم يخلق في وجهه باب خير ، ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به ، بل خاطبه خطاباً مباشراً « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَدَوَّاكَ فَدَلَّكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »^(٦) : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ »^(٧)

علماء الإسلام يشيدون بمكانة الإنسان :

هذه صورة سريعة ، ولكنها واضحة التقاسيم لمكانة الإنسان كما رسمها القرآن ، وقد أشاد بهذه المكانة الإنسانية كل أئمة الإسلام وعلمائه في مختلف البيئات والاختصاصات .

يقول الفقيه أبو بكر بن العربي : « ليس لله تعالى خالق أحسن من الإنسان ».

(٣) الكهف ٢٩

(٦) الانشقاق ٦ - ٨

(٢) القيامة ١٤

(٥) الإسراء ٧

(١) الأحزاب ٧٢

(٤) الشمس ٩ ، ١٠

(٧) الانشقاق ٦ .

فإن الله تعالى خلقه حياً عالماً ، قادراً ، متكلماً ، سميعاً ، بصيراً ، مدبراً ، حكيماً ..
وهذه هي صفات الرب جل وعلا ..

ويشرح الإمام الغزالي في « إحيائه » أسباب محبة العبد لله تعالى ، فيذكر منها المناسبة والمثابة بين ذات الإنسان وذات الله عز وجل ، وهي مناسبة باطنة . « لا ترجع إلى المثابة في الصور والأشكال ، بل إلى معان باطنة ، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب ، وبعضها لا يجوز أن يسطر . . قال : « فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاعتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل « تخلقوا بأخلاق الله » وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة . فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى » .

« وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي ، فهي التي يوصي إليها قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي »^(١) إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي »^(٢) ولذلك أسجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا خَافِئَةً فِي الْأَرْضِ »^(٣) إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة . . وإليه يرمز قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم على صورته »^(٤) حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، فشبها ، وجسموا ، وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما

(٢) سورة ص ٧٢ .

(١) الاسراء ٨٥ .

(٢) ص ٢٦ . والظاهر أنه يقصد آية البقرة « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » لما يهدون تعقيه

على الآية .

(٤) رواه مسلم .

بقول الجاهلون علواً كبيراً - وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى : « مرضت فلم تعدنى ؟ » فقال : يارب وكيف ذلك ؟ قال : مرض عبدى فلان ، فلم تعده ، ولوعده لوجدته عنده . »

وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى فى الحديث القدسى : « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به .. » (١) رواه البخارى .

ويقول الإمام ابن القيم : اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلق له نفسه وخلق له كل شئ ، وخصه من معرفته ومحبه وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما فى سمواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته ، وضمنه وإقامته .. وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه وإليه .. فلإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات » (٢) .

عزة الايمان بعد عزة الانسانية :

هذه هى معانى الكرامة والعزة التى تفرسها العقيدة فى قلب المؤمن باعتبارها « إنساناً » ولكنه بوصفه « مؤمناً » يشعر بمعان أعظم ، وعزة أشمخ ، ويسمو به إيمانه إلى سماء عالية لا يسعى إليها على قدم ولا يطار على جناح ؟

وهو بوصفه عضواً فى أمة الإيمان - يشعر بكرامة أكبر وعزة أخرى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون »

(١) من كتاب « إحياء علوم الدين » ربيع المنجيات ص ٢٦٣

(٢) مدارج السالكين ج ١ ص ٢١٠ مطبعة السنة المحمدية

بِالله»^(١) «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»^(٢)
«هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»^(٣).

يشعر المؤمن بالعزة التي سجلها الله في كتابه للمؤمنين مقرونة بالعزة لنفسه
ورسوله ، «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»^(٤).

ويشعر بأنه كتب له الكرامة والحريّة التي بها يعلو ولا يعلو ، ويسود
ولا يساد : «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً»^(٥).

ويشعر أنه في ولاية الله البر الكريم ، ولاية المعونة والنصرة ، والرعاية
والهداية . «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم»^(٦)
«الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم
الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات»^(٧).

ويشعر المؤمن أنه في معية الله الذي يكلؤه دوماً بعينه التي لا تنام ، وبحرسه
في كنفه الذي لا يرام ، وبمده بنصره الذي لا يقهر : «وإن الله مع المؤمنين»
«وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»^(٨) «ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك
حقاً علينا فننجي المؤمنين»^(٩).

ويشعر المؤمن أنه في حماية الله القوى القدير ، يذود عنه ، ويرد عن صدره
سهام الكائدين والمعتدين : «إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب
كل خائن كفور»^(١٠).

والقرآن يجعل المؤمنين مقياساً لصلاح الأعمال أو فسادها ، فحكمهم عند الله
معتبر ، ورؤيتهم للأعمال مقرونة برؤية الله ورسوله : «وقل اعملوا فسيري الله
عملكم ورسوله والمؤمنون»^(١١).

(١) آل عمران ١١٠	(٢) البقرة ١٤٣	(٣) الحج ٧٨	(٤) المنافقون ٨
(٥) النساء ١١	(٦) القتال ١١	(٧) البقرة ٢٥٧	(٨) الروم ٤٧
(٩) يونس ١٠١	(١٠) الحج ٣٨	(١١) التوبة ١٠٥	

وإذا كانت هذه الآية توحى بأن رضا المؤمنين من رضا الله ، فإن مقتهم أيضاً من مقت الله سبحانه : « كبر مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا » ^(١) .

* * *

إن هذه المعاني الكبيرة ، والمشاعر الرفيعة ، إذا سرت في كيان فرد ، جعلت منه إنساناً عزيزاً كريماً ، كبير النفس ، كبير الأمان ، إنساناً لا يحنى رأسه لمخلوق ، ولا يطأطئ رقبته لجبروت ، أو طغيان أو مال أو جاه . إن شعاره هذه الكلمة : « سيد في السكون ، عبد لله وحده » .

لا عجب بعد هذا ، إذا رأينا عبداً أسود كبلال بن رباح ، حين يشرب قلبه الإيمان ، يتيه على « السادة » المستكبرين فخراً . ويرفع رأسه عالياً ، فقد صار بالإيمان أرفع عند الله ذكراً ، وأسمى مقاماً ، ينظر إلى أمية بن خلف ، وأبي جهل بن هشام وغيرها من زعماء قريش وصناديد مكة ، نظرة البصير للأعمى ، نظرة السائر في النور إلى المتخبط في الدجى : « أَفَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كُنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » ؟ ^(٢) : « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبِّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ^(٣) .

ولا غرو بعد ذلك إذا رأينا أعرابياً أمياً من البداة الجفافة ، مثل ربيع ابن عامر حين باشرت قلبه عقيدة الإسلام ، وأضاءت فكره آيات القرآن ، يقف أمام رسم قائد قواد الفرس ، وهو في هيله وهيلمانه ، وأبهته وسلطانه ، غير مكترث له ، ولا عابئ به ، وبما حوله من خدم وحشم ، وما يتوهج بجواره من فضة وذهب ، حتى إذا سأله رسم : من أنتم ؟ أجابه هذا الأعرابي في عزة

(٣) الملك ، آية ٧٢

(٢) الأنعام : آية ١٢٤

(١) غافر ٣٥

مؤمنة ، وإيمان عزيز ، إجابة خلدتها التاريخ ، قال : نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج
الناس من عبادة العباد ، إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن
جور الأديان إلى عدل الإسلام .

ولاعجب أن نقراً لشاعر مؤمن يناجى ربه في عبودية عزيزة بالله ، متذلة
إليه ، غنية بالله ، فقيرة إليه ، قائلاً :

ومما زادنى شرفاً وعزاً وكدت بأخصى أطا الثريا
دخولى تحت قولك « يا عبّادى » وأن أرسلت أحمد لى نبيا !

بين النظرة الإسلامية والنظرة المادية للإنسان :

إن اعتقاد الإنسان بكرامته على الله ، ومكانه فى الملأ الأعلى ، ومركزه
القيادى فى هذا الكون ، يجعله يشعر بذاته ، ويغالى بقيمة نفسه لأنه يعتز بانتسابه
إلى الله ، وارتباطه بكل ما فى الوجود ، فيجسّد عزيز النفس ، على الرأس ، ألباً
للضميم عصياً على القل والهوان ، بعيداً عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ ..
وهذا الإحساس الذى يعيش به للؤمن ليس شيئاً هيناً ولا بضاعة مزجاة ، إنه
كسب كبير ومغرم ضخم للإنسان . كسب له فى عالم الشعور والتصور وفى عالم
الواقع والسلوك ..

وأما أعظم الفرق بين رجلين : يعيش أحدهما وهو يعتقد فى نفسه أنه مجرد
(حيوان) من فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور ، وليس له بعد موته امتداد ،
وليس له فى حياته صلة بالوجود الكبير أكثر من صلة القروء به .. ويعيش
الآخر وهو يعتقد أنه خليفة الله فى الأرض ونائبه فى إقامة الحق وإفاضة الخير
وإشاعة الجمال فى هذا الكون ! ويشعر بأن الكون كله فى خدمته ، والملائكة
الكرام فى حراسته ، وأن رب الوجود فى معيته وأنه من فصيلة الذين أنعم الله

عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وأن وجوده لا ينتهى بالموت وداره لا تنتهى بالقبر ، فإنما خلق للخلود وللأبد الذى لا ينقطع ولا يزول .

إن هذا الشعور الأصيل الذى بلغ حد الاعتقاد واليقين بمنزلة الإنسان فى الكون هو أحد النقاط الرئيسية التى تخالف فيها عقيدة الإسلام التفكير المادى الذى يسود حضارة الغرب اليوم فى النظرة إلى الإنسان .

إن المغايرة بين النظرتين تتمثل فى أمور جوهرية ثلاثة :

١ - فى منزلة الإنسان فى هذا الكون .

٢ - وفى طبيعته التى فطر عليها .

٣ - وفى غايته ووظيفته فى هذه الحياة .

منزلة الانسان :

فالعقيدة الإسلامية قد حددت منزلة الإنسان فى هذا الكون منذ قال الله تعالى للملائكة : « إني جاعل فى الأرض خليفة » كما ذكرنا من قبل ، فهو نوع منفرد من مخلوقات الله ليس بحماد ولا نبات ولا بحيوان ولا بهلاك ولا بشيطان ، إنه مخلوق مكرم فريد مسؤول ، لا يقوم وحده فى هذا العالم كما زعم بعض الملحدين ، بل يقوم بإرادة رب أوجده وقدره . إله خلقه فى أحسن تقويم ، وعلمه البيان ووهب له السمع والبصر والفؤاد ، ليس الإنسان عبداً ولا مقهوراً لشيء فى هذا الكون ، إلا أنه عبد لله وحده .

هذا فى عقيدة الإسلام ، أما النظرة المادية فلم تنظر للإنسان على أنه مخلوق كريم أوجده خالق عظيم . كلا ، بل هو نبات (شيطانى) برز من الدم إلى الوجود وحده ويعيش وحده ويموت وحده وبموته تحتم روايته كلها .

إنه باختصار حيوان قد يقال عنه « حيوان راق » أو « حيوان اجتماعى »

أو « حيوان متطور » ولكنه على كل حال « حيوان » .. بيد أنه بواسطة العلم التجريبي استطاع أن « يقهر » الطبيعة ويسيطر على المادة ، وبذلك العلم أصبح هذا الحيوان المتطور ، ينظر إلى نفسه وكأنه إله يتصرف في الأرض كما يشاء . ويظن أنه قادر عليها .

إن هذه النظرة المادية للإنسان ، أنتجت شعورين مختلفين :
أولهما : شعور الإنسان بالتفاهة والضياع ونظرتة إلى نفسه نظرة حيوانية بحتة .

والثاني : شعور الفرور والكبر ، ذلك الشعور الذي ينتهى بالإنسان إلى حد تأليه نفسه حين يسقط وجود الإله الحق من اعتباره . ويتصرف وكأنه إله لا يسأل عما يفعل ، كما زعم جوليان هكسلي^(١) حين قال :

« إن الإنسان في العالم الحديث أصبح هو الله المنشئ المريد » !!

ولما بدأ الإنسان في هذا القرن يفيق من سكرة غروره بالتقدم العلمى والانقلاب الصناعى والازدهار المادى . بدأ يحس بأزمة نفسه باعتباره إنساناً متميزاً ، كما رأينا ذلك فى كتابات النقاد منهم . مثل « ألكسيس كاريل » فى كتابه « الإنسان .. ذلك المجهول » ، وشبنجلر فى كتابه : « تدهور الحضارة الغربية » و « توينبى » و « رينيه جينو » و « كوان ولسون » وغيرهم .

طبيعة الانسان :

أما طبيعة الإنسان فهى من أخطر المزالق التى تزل فيها الأقدام ، وتضل فيها الأفهام ، عند النظرة إلى الإنسان ، نظراً للازدواج والتعقيد فى طبيعته التى

(١) فى كتابه : « الانسان فى العالم الحديث » ترجمة حسن خطاب ص ٢٢٤

ركب عليها ، فليس هو شهوة خالصة ، ولا عقلا خالصا ، وليس هو جسما محضاً ، ولا روحاً محضاً ، إن تكوينه يشمل الجانبين معاً .

يقول البروفسور « ميشوت » العالم الأمريكي والأستاذ بجامعة « ييل » في كتابه « حياة الروح » .

« مسألة حيرت ألباب العلماء منذ عصور موزلة في القدم ، وهي طبيعة الإنسان المزدوجة الغريبة ، فالجانب المادى منه — وهو جسده — يحيا وينمو ثم يموت ، ولكن شيئاً لا تدركه الحواس يبدو أنه يحكم هذا الجسد ، وفي مقدور هذا الشيء أن يشعر وأن يفكر . إنه ذلك الجانب الذى تتركز فيه خلاصة كيانه . فالإنسان يبدو وكأنه كائنان : كائن مادى وكائن آخر يقابله غير مادى ، ترى هل كل منهما حقيقى ؟ أو أن أحدهما لا يبدو أن يكون وهما من الأوهام !

والضلال والانحراف فى فهم الإنسان ، وتصور حقيقته ، إنما جاء نتيجة لإهمال أحد هذين العنصرين فى كيانه ، أو نتيجة للفصل بينهما ، واعتبار كل منهما منفصلاً عن الآخر . »

والإسلام قد عرف طبيعة الإنسان حق معرفتها ، وقدرها حق قدرها ، لأن الإسلام كلمة الله ، والإنسان خلق الله ، وخالق الشيء وصانعه لا يجهل طبيعته وكنهه : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير » (١) ؟

وقد خلق الله هذا الإنسان جسماً كثيفاً ، وروحاً شفافاً ، جسماً يشده إلى الأرض . وروحاً يتطلع إلى السماء ، جسماً له دوافعه وشهواته ، وروحاً له آفاقه وتطلعاته ، جسماً له مطالب أشبه بمطالب الحيوان ، وروحاً له أشواق كأشواق الملائكة .

هذه الطبيعة المزدوجة ليست أمراً طارئاً على الإنسان ، ولا ثانوياً فيه ، بل هي فطرته التي فطره الله عليها ، وأهله بها للخلافة في الأرض ، منذ خلق آدم خلقاً جمع بين قبضة الطين ونفخة الروح : « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون »^(١).

وجاءت عقيدة الإسلام ، فلم تغفل الروح من أجل الطين ، ولم تغفل الطين من أجل الروح . بل زاوجت بينهما في وحدة متسقة ملتزمة ، وأعطت الروح حقه ، والجسد حقه ، في غير إفراط ولا تفريط .

وعرف التاريخ أدياناً ونحلاً تقوم فلسفتها على إغفال الجانب المادي الجسدي في الإنسان ، والعمل على تعذيبه وإضعافه ، لينمو الجانب الروحي فيه ، ويصفو ويقوى كالبرهمية الهندية ، والرهبانية المسيحية .

وفي مقابل هذا الاتجاه جاء الاتجاه المادي بمجحد أن في الإنسان روحاً أو أن في الكون إلهاً ، إذ لا يؤمن إلا بما هو مادي تدركه الحواس ، وتحكمه التجربة . وبهذا عاش الإنسان عند هؤلاء نصف إنسان ، بل أدنى ، عاش للجزم الحيواني فيه فحسب .

غاية لانسان :

وأما غاية الإنسان ومهمته في الحياة فقد بينتها عقيدة الإسلام أوضح البيان ، فالإنسان لم يخلق عبثاً ، ولم يترك سدى ، وإنما خلق لغاية وحكمة . لم يخلق لنفسه ، ولم يخلق ليكون عبداً لعنصر من عناصر الكون ، ولم يخلق ليتمتع كما تتمتع

الأنعام ، ولم يخلق ليعيش هذه السنين التي تقصر أو تطول ، ثم يبلىه التراب
ويأكله الدود ويطويه العدم .

إنه خلق ليعرف الله ويعبده ، ويكون خليفة في أرضه ، خلق ليحمل الأمانة
للكبرى في هذه الحياة القصيرة : أمانة التكليف والمسؤولية ، فيصهره الابتلاء
وتصقله التكليف ، وبذلك ينضج ويعد لحياة أخرى هي حياة الخلود والبقاء والأبد
الذي لا ينقطع .

إنه لنبأ عظيم حقاً أن يكون هذا الإنسان لم يخلق لنفسه ، وإنما خلق لعبادة
الله . ولم يخلق لهذه الدنيا الصغيرة الفانية ، وإنما خلق للحياة الخالدة الباقية ،
خلق للأبد !

يقولون : إن الأحق يعيش لياً كل ، والعاقل يأكل ليعيش .

وهذا القول لا يحل العقدة ، فإن العيش نفسه ليس غاية ، فالسؤال لا زال
قائماً : ولماذا يعيش الإنسان ؟

أما الماديون فقالوا : إنه يعيش لنفسه ومتاع دنياه .

أما المؤمنون فقالوا : إنما يعيش لربه الأعلى ، ولحياته الباقية الأخرى .
« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ (١) » .

وما أعظم الفرق بين الذي يعيش لنفسه والذي يعيش لربه ، بين من يعيش
لدنياه المحدودة ، ومن يعيش لوجود غير محدود بزمان ولا مكان !

إن النظرة المادية الملحدة لم تعرف للإنسان غاية ، لأن الغاية تقتضي قصداً
والقصد يقتضي قاصداً ، وهي تنكر أن يكون الإنسان قد خلق قصداً ، ولهذا
فليس للإنسان في نظرها رسالة غير رسالة الكدح وراء العيش وابتغاء تحسينه .

وبعبارة أخرى : وراء زينة الحياة الدنيا ومتاعها . لا أكثر من ذلك ، فإذا
قضى العمر القصير للإنسان ، فقد انتهى كل شيء في وجوده ، وما أصدق قول
القرآن « قل متاع الدنيا قليل »^(١) .

وهو ليس متاعاً قليلاً فحسب ، بل هو أيضاً متاع رخيص ، متاع حقير ،
لأنه متاع حيوانى محض ، سخر بعض الأدباء من طلابه وعشاقه فقال : « من
كانت غايته بطنه وفرجه فقيمه ما يخرج منهما » ،

وحسبنا قول القرآن الكريم : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما
تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »^(٢) .

إن النظرة المادية للإنسان تجعله يدور حول نفسه فقط ، أى حول هواه
وشهواته ، حول جسده ومتطلباته . حول الجزء الحيوانى فيه . وبذلك ينمو
ويتضخم الجانب الحيوانى المادى فى الإنسان على حساب الجوانب الأخرى
التي تضمر وتنكش ، أو تذبل وتموت .

ونمو الجانب المادى والحيوانى فى الإنسان بهذه السرعة والضخامة هو نمو
خبيث ، « نمو سرطانى » يفضى فى النهاية إلى هلاك الإنسان كله .

إنه لا بد للإنسان من هدف يتطلع إليه غير نفسه وهواها ، وإلا فإنه
سيظل يدور حولها كالجمار فى الرحا ، أو الثور فى الساقية ، يدور ويدور والمكان
الذى انتهى إليه هو الذى بدأ منه .

أو كما قال أحد الكتاب الغربيين فى وصف « الوجوديين » الذين تدور
فلسفتهم حول تحقيق الإنسان وجوده وذاته فحسب « إن الوجودى مثله كمثل
الكلب الذى يجرى دائماً حول نفسه ليسك بذنبه ، فلا هو يدرك ذنبه ، ولا هو

يقف عن الجرى ، وهى لعبة يلعبها الكلاب ، حينما يجدون الفراغ ، فيلهون بما لا نتيجة له .

وهذا التشبيه يذكرنا بالمثل الذى ضربه القرآن لكل من انساخ من آيات الله ، وأخذ إلى الأرض واتبع هواه ، قال تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » (١) .

الإيمان والسعادة

السعادة هي جنة الأحلام التي ينشدها كل بشر، من الفيلسوف في قمة تفكيره وتجريده ، إلى العامى في قاع سذاجته ويساطته ، ومن الملك في قصره المشيد ، إلى الصعلوك في كوخه الصغير . ولا نحسب أحداً يبحث عن الشقاء لنفسه ، أو يرضى بتعاستها .

أين السعادة ؟

ولكن السؤال الذى حير الناس من قديم هو : أين السعادة ؟
لقد طلبها الآكثرون في غير موضعها ، فعادوا كما يعود طالب اللؤلؤ في الصحراء ، صفر اليدين ، مجهود البدن ، كسير النفس ، خائب الرجاء !
أجل جرب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية . وصنوف الشهوات الحسية ، فما وجدوها - وحدها - تحقق السعادة أبداً ، وربما زادتهم - مع كل جديد منها - همماً جديداً .

هل السعادة فى النعيم المادى ؟

لقد ظن ذلك قوم ، فحسبوا السعادة فى الغنى ، وفى رخاء العيش ، ووفرة النعيم ، ورفاهية الحياة ، لكن البلاد التى ارتفع فيها مستوى المعيشة ، وتيسرت فيها لأبنائها مطالب الحياة المادية ، من مأكل ومشرب ، وملبس ومسكن ومركب ، مع كماليات كثيرة لا تزان تشكو من تعاسة الحياة ، ونحس بالضيق والاقباض ، ونبحث عن طريق آخر للسعادة .

نشر رئيس تحرير مجلة (روز اليوسف) وهى مجلة لاتهم بالتحيز للمعنويات
(٦٢ - الإيمان)

والقيم الروحية . تحقيقاً صحفياً في مقالين منذ سنوات جعل عنوانه : « أهل الجنة ليسوا سعداء » وأهل الجنة الذين يعينهم هم سكان السويد الذين يعيشون في مستوى اقتصادى يشبه الأحلام ، ولا يكاد يوجد في حياتهم خوف من فقر أو شيخوخة أو بطالة أو أى كارثة من كوارث الحياة ، فإن الدولة تضمن لكل فرد يصيبه شئ من ذلك إعانات دورية ضخمة ، بحيث لا يجد مواطن مجالا للشكوى من العوز أو الحاجة الاقتصادية بحال من الأحوال .

إن ما ينص الفرد الواحد في السويد من الدخل القومى يساوى ٥٢١ جنيهاً مصرياً في العام أى حوالى ٤٣ جنيهاً في الشهر الواحد .

ووصل نظام الحكم الاشتراكى في السويد إلى ما يقارب محو الفروق تماماً بين الطبقات ، بفرض الضرائب التصاعدية ، وإيجاد مختلف أنواع التأمينات الصحية والاجتماعية ، التى لا تجدها دول أخرى .

« كل مواطن سويدي يستحق معاشاً ، وإعانة مرض ، ومعاش عدم صلاحية وإعانة غلاء معيشة ، وإعانة للسكن ، وإعانة للعمى . تصرف نقداً ، والعلاج المجانى في المستشفيات .

« تدفع إعانة أمومة لكل النساء ، تشمل هذه الإعانة مصاريف الولادة والرعاية الطبية في المستشفى . وإعانة إضافية لكل مولود .

« التأمين ضد إصابات العمل إجبارى .

« شروط الإعانات في حالة البطالة هى أسنى شروط معروفة دولياً .

« تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة هى أقرب إلى الخيال . منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيهاً في العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة . رعاية صحية مجانية . مصاريف انتقال مجانية للإجازات يتمتع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة ، مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم .

« التعليم في جميع مراحلها بالـجـان مع تقديم إعانات ملابس ، وإعانات
معيشة لغير القادرين ، وتقدم للطلبة قروض دراسية تصل إلى ٢٥٠ جنيهًا للطلبة
المجتهدين .

« تقدم الدولة قروضاً لتأثيث منازل العرسان تصل إلى ٣٠٠ جنيهه بفائدة بسيطة
تسدد على خمس سنوات .

« إن ثلث الضرائب التي يدفعها الشعب السويدي تنفقها الدولة في التأمينات
الاجتماعية وتدفع الدولة ٨٠ ٪ منها في مساعدات نقدية ، إن أضخم ميزانية هي
ميزانية وزارة الشؤون الاجتماعية . ثم تليها ميزانية وزارة التربية .

ومع هذه الضمانات التي لم تدع ثغرة إلا سدتها - فقد ذكر الصحفي أن الناس
يحيون حياة قلق مضطربة ، كلها ضيق وتوتر ، وشكوى وسخط ، وتبرم وبأس .
ونتيجة هذا أن يهرب الناس من هذه الحياة الشقية الفكدة . عن طريق
« الانتحار » الذي يلجأ إليه الألوف من الناس ، تخلصاً مما يعانونه من عذاب
نفسى أليم .

وانتهى كاتب التحقيق إلى أن السر وراء هذا الشقاء يرجع إلى أمر واحد
هو فقدان « الإيمان » أي إيمان .

وأمر يكا أغنى بلد في العالم ، لم يحقق الغنى لأبنائه السعادة ، على الرغم من
ناطحات السحاب ، ومراكب الفضاء ، وتدفق الذهب من فوقهم ومن تحت
أرجلهم .. ورأينا من مفكريهم من يقول: « إن الحياة في نيويورك غطاء جميل
لحالة من التعاسة والشقاء ! » .

وقد لاحظ هذه التعاسة وهذا الشقاء كل من له عين تبصر من أهل
الشرق والغرب .

فمن أهل الشرق كتاب كثيرون لا يتسع المجال لحصرهم .

ومن أهل الغرب الأدبية الفرنسية فرانسواز ساجان التي زارت نيويورك مرتين ثم كتبت بعد ذلك كتاباً جاء فيه « إن نيويورك ثقيلة الوطأة على الإنسان » مدينة ينبض قلبها بسرعة أكبر من سرعة سكانها ، والواقع أن الأزمة التي يعانيها سكان نيويورك أزمة عاطفية . إن الدم القوار يجرى في عضلات أولئك الأمريكيين المتعبين المنهوكي القوى العجولين . إنهم يريدون أن يقتصدوا في الوقت دون أن يعرفوا كيف ينفقون ذلك الوقت ... »

وكذلك الأستاذ كولن ولسون الذي وصف عمران نيويورك وازدهارها المادي ، بأنه « غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء » .

فكثرة المال ليست هي السعادة ، ولا العمر الأول في تحقيقها ، بل ربما كانت كثرة المال أحياناً وبالأحرى على صاحبها في الدنيا قبل الآخرة ، لذا قال الله في شأن قوم من المنافقين « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ . إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »^(١) والعذاب هنا هو المشقة والصب والألم والحزن والسقم ، فهو عذاب دنيوي حاصر ، على نحو ما ورد في الحديث « السفر قطعة من العذاب » وهذا ما نشاهده بأعيننا في كل من جعل المال والدنيا أكبر همه ، ومبالغ علمه ، ومتمنى أمله ، فهو دائماً معذب النفس ، متعب القلب ، مثقل الروح ، لا يغنيه قليل ، ولا يشبعه كثير .

وفي الحديث الذي رواه أنس عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، تصوير لهذه النفسية المعذبة قال : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له »^(٢) .

(١) - سورة التوبة س ٥٥

(٢) رواه الترمذي من حديث أنس ، وروى ابن ماجه وغيره قريباً منه من حديث زيد بن ثابت .

ومن أبلغ العذاب في الدنيا — كما قال ابن القيم —^(١) تشتيت الشمل وتفريق القلب ، وكون النقر نصب عينيه لا يفارقه ، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب . . على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه . ومن أنواع العذاب : عذاب القلب والبدن يتحمل أنكد الدنيا ومحاربة أهلها إياه ، ومقاساة معاداتهم كما قال بعض السلف : « من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب » . ومحب الدنيا لا ينفك عن ثلاث : هم لازم ، ونعب دائم ، وحسرة لا تنقضي ، وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه كما في الحديث : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بغي لهما ثالثا » . وقد مثل عيسى بن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً .

هل السعادة في الأولاد ؟

حقيقة إن الأولاد زهرة الحياة ، وزينة الدنيا ، ولكن كم من أولاد جروا على آباءهم الويل وجزواهم بالمقوق والكفران بدل البر والإحسان ، بل كم من آباء ذاقوا حنقهم على يد أولادهم طمعاً في ثرواتهم ، أو لوقوفهم في حبيل شهواتهم .

لقد وجدنا من الآباء من يقول لولده أسفاً آسفاً :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا	تعلم بما أسدى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشجر لم أبت	لبواك إلا ساهراً أنعم
فلما بلغت السن والغاية التي	إليها مدى ما كنت فيك أو مل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة	كأنك أنت المنعم المتفضل

(١) في كتابه « إغاثة اللهمان » ،

وكم رأينا في الحياة صوراً غريبة ، وسمعنا أحاديث أغرب ، عن عقوق الأبناء .
وتعاسة الآباء ، وهذا ما جعل الآباء ما برحوا على مر العصور ، يشدون شعرهم ،
حقاً من جحود أبنائهم ، حتى إن الملك « لير » صرخ - على لسان شكسبير -
قائلاً : ليس أشد إيلاماً من ناب حية رقطاع ، غير ابن جحود .

وما جعل شاعراً في الشرق يصرخ ويقول :

أرى ولد الفتى ضرراً عليه لقد سعد الذي أمسى عقيماً
فإما أن يرَبِّيه عَدُوّاً وإما أن يُخَلِّقه يَتِيماً
وإما أن يُوَافِيهِ حِمَامٌ فيترك حزنه أبداً مُقيماً

ثم ما حيلة الذين حرّموا من الأولاد ؟ أحكم عليهم بالشقاء المؤبد ؟
والتعاسة الدائمة ؟

هل السعادة في العلم التجريبي ؟ :

ترى هل يستطيع العلم المادى التجريبي ، الذي قرب للإنسان البعيد ، وذلّل
له الصعب ، أن يحقق له السعادة ؟

والحقيقة كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل^(١) إن العلم قد كشف لنا
عن كثير مما في الحياة ، وأتاح لنا الاستمتاع بنعيمها إلى حد لم يكن يخطر بخيال
أحد من قبل .

والحقيقة كذلك أن الظمأ للمعرفة بعض طبائع الإنسان ، فهو ما كاد يقف
على شيء وبسكنته بواطنه حتى تدفعه الطلعة لكي يقلب في هذه البواطن أو
يبحث عن جديد لما يخضع لعله . لكن الحقيقة كذلك أن المعرفة لاتأتي سبباً

(١) في كتابه « الايمان والمعرفة والفلسفة » .

للسعادة . بل إنها كثيراً ما تكون داعية قلق النفس ، واضطراب الخاطر .
والسعادة هذا الحلم الجميل الطائر أمام أعيننا بأجنحة من نور ، هذا الأثير المحس
تنسم في الجو ذراته ، ونريد أن نستنشقها ملء صدورنا فلا نجد منها أبداً ما يكفيننا .
السعادة هي ما يجري بنو الإنسان وراءه من عهد آدم إلى اليوم ، يجرون وما يكاد أحدهم
نفسه يحسب أدركها حتى يجذبه من خلفه شيطان الشقاء فيصده عنها ، هذه السعادة
ليست في العلم ، لأن العلم شهوة ، وليس من وراء شهوة سعادة ، وكثيراً ما أكب
علماء على العلم فأفنوا فيه حياتهم حتى إذا كانوا عند خاتمة اللطاف منها لدعتهم الحسرة ،
أن زادوا أنفسهم بعلمهم ها ، فأوصوا أن ينشأ أبناؤهم في الإيمان وأن يرسلوا في
الحياة على سجيّتهم ، وألا يطأوا إلى العلم حل طلامم الغيب .

فعلما وإن اتسع المدى ضيق إذا قيس إلى مدى الوجود الذي لا نهاية له ،
بذلك أوصى نيتشه وغير نيتشه من أكابر العلماء الذين أفنوا صدر شبابهم بأن العلم
هاتك حجب الغيب لا محالة ، حتى إذا رأوا حجب الغيب لا تنتهي ضمهقوا ، وخيل
إليهم أنهم كانوا يسعون وراء سراب لا حقيقة له ، وإن كانت غاية هذا السراب
كل الحقيقة » .

والفيلسوف البريطاني المعاصر « برتراند راسل » - رغم نظريته المادية -
يقرر أن الإنسان في صراعه مع الطبيعة قد انتصر ، بواسطة العلم . أما في صراعه
مع نفسه ، فلم يحرز نصراً ، ولم يجده سلاح العلم ، ويعترف بأن الدين لم يزل هو
صاحب هذا الميدان .

ويقول الدكتور « هنري لنك » طبيب النفس الأمريكي الشهير ، معارضاً
للذين ينكرون الإيمان بالغيب ، باسم العلم واحترام الفكر ، مبيناً أن العلم وحده
لا يستطيع أن يحقق للإنسان أسباب السعادة الحقة .

« والواقع أنه يوجد الآن في كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يوجب شدة ذلك الضلال ، وأعني به تعظيم شأن الفكر ، ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصلوا إلى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب ، كفيل بهدم سعادة الإنسان ، وإن لم يقوّض دعائم نجاحه . ثم إن إمالة اللثام عن هذا الاكتشاف لم تتم إلا عن طريق تجارب هؤلاء العلماء مع الناس ، واختباراتهم العلمية التي أجروها على الآلاف . وبقي أن أقول : إن الوصول إلى هذه المكتشفات قد تم بالنسبة لعلاقتها بطرق التعليم والدين ، والشخصية ، وفلسفة الحياة عموماً .

فلن نهتدي إلى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة ، ولن نهمل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها . فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراد التخبط ، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها ، فلن تؤدي هذه العلوم إلى تحرير العقول التي ابتدعتها وابتكرتها ، بل ستقود حتماً إلى انهيار هذه العقول وتعنفها . كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتي عن طريق آخر غير طريق العلم ، وأعني به طريق الإيمان^(١) .

السعادة في داخل الانسان :

السعادة إذاً ليست في وفرة المال ، ولا سطوة الجاه . ولا كثرة الولد ، ولا نبيل المنفعة ، ولا في العلم المادى .

السعادة شيء معنوى لا يرى بالعين ، ولا يقاس بالكم ، ولا تحتويه الخزائن ؛ ولا يشتري بالدينار ، أو بالجنيه أو الروبل أو الدولار .

(١) العودة إلى الإيمان ص ٨١ ، ٨٢ .

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه .. صفاء نفس وطمأنينة قلب .
وانشراح صدر ، وراحة ضمير .

السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه .
حدثوا أن زوجاً غاضب زوجته فقال لها متوعداً : لأشقيتك . فقالت الزوجة
في هدوء : لا أستطيع أن تشقيني ، كما لا تملك أن تسعدني .
فقال الزوج في حنق : وكيف لا أستطيع ؟

فقالت الزوجة في ثقة : لو كانت السعادة في راتب تقطعته غنى ، أو زينة من
الحلى والحلل لحرمتني منها ، ولكنها في شيء لا تملكه أنت ولا الناس
أجمعون ! .

فقال الزوج في دهشة : وما هو ؟
فقالت الزوجة في يقين : إني أجد سعادتي في إيماني ، وإيماني في قلبي ، وقلبي
لأسلطان لأحد عليه غير ربي !

هذه هي السعادة الحققة ، السعادة التي لا يملك بشر أن يعطيها ، ولا يملك
أن ينتزعها ممن أوتيتها ، السعادة التي شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين فقال :
إننا نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف .

وقال آخر وهو ثمل بتلك اللذة الروحية التي تغمر جوانبه : إنه لتمر على ساعات
أقول فيها : لو كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه الآن لكانوا إذاً في عيش طيب !
والذين رزقوا هذه النعمة يسخرون من الأحداث وإن برقت ورعدت ، ويبتسمون
للحياة وإن هي كشرت عن نابها ، ويفلسفون الألم ، فإذا هو يستحيل عندهم إلى
نعمة تستحق الشكر ، على حين هو عند غيرهم مصيبة تستوجب الصراخ والشكوى .
كأنما عندهم غدد روحية خاصة ، مهمتها أن تفرز مادة معينة تتحول بها كوارث
الحياة إلى نعم .

القدر المادى اللازم لتحقيق السعادة :

ولا نجد أن للجانب المادى مكانا فى تحقيق السعادة ، كيف ؟ وقد قال رسول الإسلام : « من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والركب الصالح »^(١) .

بيد أنه ليس المسكن الأول ولا الأفسح ، والمدار فيه على الكيف لا على الكم ، فحسب الإنسان أن يسلم من المنغصات المادية التى يضيق بها الصدر ، من مثل : المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والركب السوء ، وأن يمنح الأمن والعافية ، ويتيسر له القوت فى غير حرج ولا إعنات . وما أصدق وأروع الحديث النبوى « من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »^(٢) .

وإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية ، والقلب الإنسانى ، فإن الإيمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها ، وهواؤها وضياؤها . لقد فجر الإيمان فى قلب الإنسان ينابيع للسعادة ، لا يمكن أن تفيض ، ولا أن تتحقق السعادة بغيرها . تلك هى ينابيع السكينة ، والأمن ، والأمل ، والرضى ، والحب ، ومنه نخلص كلا منها بالحديث فيما يلى من الصفحات .

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح من حديث سمد بن أبى وقاص .

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وقال : حسن غريب ، وابن ماجه .

سكينة النفس

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين
ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »
قرآن كريم

لا سعادة بلا سكينة :

منذ أعوام قرأت فى مجلة « المختار » كلمة ناضرة لأحد الأطباء اللامعين فى
أمريكا ، قال فيها :

« وضعت مرة وأنا شاب جدولاً لطيبات الحياة المعترف بها ، فكتبت هذا
البيان بالרגائب الدنيوية : الصحة ، الحب ، الموهبة ، والقوة ، والثراء ، والشهرة .
ثم تقدمت بها فى زهو إلى شيخ حكيم .

فقال صديق الشيخ : جدول بديع ، وهو موضوع على ترتيب لا بأس به ،
ولكن يبدو لى أنك أغفلت العنصر المهم الذى يعود جدولك بدونه عبثاً لا يطاق ،
وضرب بالقلم على الجدول كله ، وكتب كلمتين : « سكينة النفس » وقال : هذه
هى الهبة التى يدخرها الله لأصفيائه ، وإنه ليعطى الكثيرين الذكاء والصحة ،
والمال مبتذل ، وليست الشهرة بنادرة ، أما سكينة القلب ، فإنه يمنحها بقدر .

وقال على سبيل الإيضاح : ليس هذا برأى خاص لى ، فما أنا إلا ناقل من
من المزامير ، ومن أوريليوس ، ومن لادنس ، هؤلاء الحكماء يقولون : خل يارب .
نعم الحياة الدنيا تحمت أقدام الحقى ، راعطى قلباً غير مضطرب .

وقد وجدت يومئذ أن من الصعب أن أتقبل هذا ، ولكن الآن بعد نصف
قرن من التجربة الخاصة ، والملاحظة الدقيقة ، أصبحت أدرك أن سكينة النفس

هى الغاية المثلى للحياة الرشيدة ، وأنا أعرف الآن أن جملة المزاياء الأخرى ليس من الضروري أن تفيد المرء السكينة ، وقد رأيت هذه السكينة تزهر بغير عون من المال ، بل بغير مدد من الصحة ، وفي طاقة السكينة أن تحول الكوخ إلى قصر رحب ، أما الحرمان منها فإنه يحيل قصر الملك قفصاً وسجنًا » ا . ه .

هذا كلام رجل يعيش في أمريكا بلد الرفاهية والغنى ، بلد الذهب والعلم ، بلد الحرية والانطلاق . قاله الرجل بعد ممارسة وتجربة وخبرة بالحياة ، فلم يجد في الحياة نعمة أغلى ولا أفضل ولا أيمن من سكينة النفس ، وطمأنينة القلب . وهو كلام حكيم نسجله وننتفع به . والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها .

للسكينة بلا إيمان :

سكينة النفس — بلا ريب — هى ينبوع الأول للسعادة ، ولكن كيف السبيل إليها إذا كانت شيئاً لا يثمره الذكاء ولا العلم ولا الصحة والقوة ، ولا المال والغنى ، ولا الشهرة والجاه ، ولا غير ذلك من نعم الحياة المادية ؟

إننا نجيب مطمئنين : أن للسكينة مصدراً واحداً لا شريك له ، هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، الإيمان الصادق العميق ، الذى لا يكدره شك ، ولا يفسده نفاق .

هذا ما يشهد به الواقع المائل ، وما أيده التاريخ الحافل ، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف ، فى نفسه وفيمن حوله .

لقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقاً وضيقاً واضطراباً ، وشعوراً بالتفاهة والضياع هم المحرومون من نعمة الإيمان ، وبرد اليقين .

إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق ، وإن حفات بالذائذ والمرفهات ، لأنهم لا يدركون لها معنى ، ولا يعرفون لها هدفاً ، ولا يفقهون لها سرّاً ، فكيف يظفرون مع هذا بسكينة نفس ، أو انشراح صدر ؟

إن هذه السكينة ثمرة من ثمار دوحة الإيمان ، وشجرة التوحيد الطيبة ، التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

فهى نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين من أهل الأرض ، ليثبتوا إذا اضطرب الناس ، ويرضوا إذا سخط الناس ، ويوقنوا إذا شك الناس ، ويصبروا إذا جزع الناس ، ويحملوا إذا طاش الناس .

هذه السكينة هى التى عمرت قلوب رسول الله يوم الهجرة ، فلم يعرفه هم ولا حزن ، ولم يستبد به خوف ولا وجل ، ولم يخالج صدره شك ولا قلق « فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانياً اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا » (١) .

لقد غلبت على صاحبه الصديق مشاعر الحزن والإشفاق ، لاعلى نفسه وحياته بل على الرسول ، وعلى مصير الرسالة ، حتى قال والأعداء محدقون بالغار : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . فيقول الرسول مثبتاً فؤاده : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

هذه السكينة روح من الله ، ونور ، يسكن إليه الخائف ، ويطمئن عنده القلق ، ويتسلى به الحزين ، ويستروح به المتعب ، ويقوى به الضعيف ، ويهتدى به الحيران .

هذه السكينة نافذة على الجنة يفتحها الله للمؤمنين من عباده : منها تهب

عليهم نسماتها ، وتشرق عليهم أنوارها . ويفوح شذاها وعطرها ، ليزيقهم بعض
ما قدموا من خير ، ويريههم نموذجاً صغيراً لما ينتظرهم من نعيم ، فينعموا من هذه
النسمات بالروح والريحان ، والسلام والأمان .

اسباب السكينة لدى المؤمن :

قد يسأل سائل : لماذا كان المؤمن أولى الناس بسكينة النفس ، وطمأنينة
القلب ؟ ولماذا لا يجد الإنسان السكينة في العلم والثقافة والفلسفة ، وفيما أنتجه التقدم
العلمي من وسائل وأدوات يسرت العيش وجملت الحياة ؟

والجواب عن ذلك : يحوجنا إلى شيء من البسط والتفصيل ، لبيان الأسباب
والسنن النفسية التي جعلت المؤمن - دون غيره - أحق الناس بالسكينة
والاطمئنان . وإليك البيان :

استجابة المؤمن لنداء الفطرة :

إن أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه قد هدى إلى فطرته التي فطره الله
عليها ، وهي فطرة متسقة كل الاتساق مع فطرة الوجود الكبير كله . فعاش المؤمن
مع فطرته في سلام ووثام ، لافى حرب وخصام .

إن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم ، ولا ثقافة ولا فلسفة ، إنما يملؤه
الإيمان بالله جل وعلا .

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظماً ، حتى تجد الله ، وتؤمن
به ، وتتوجه إليه .

هناك تستريح من تعب وترتوي من ظمأ ، وتأمين من خوف ، هناك تحس
بالمهداية بعد الحيرة ، والاستقرار بعد التخبط ، والاطمئنان بعد القلق ، ووجدان
المنزل والأهل بعد طول الغربة ، والضرب في أرض التيه .

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب للمسافر
فإذا لم يجد الإنسان ربه — وهو أقرب إليه من حبل الوريد — فما أشقى حياته ،
وما أتعس حظه ، وما أخيب سعيه !

إنه لن يجد السعادة ، ولن يجد السكينة ، ولن يجد الحقيقة . . . لن يجد نفسه
ذاتها . « كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » ^(١) .

فتصور إنساناً يعيش دون أن يجد نفسه ، وهو في رأى نفسه ، وفي نظر
الناس بشر عاقل ، سميع بصير ، بل لعله جامعى مثقف ، ولعله — فوق ذلك —
« دكتور » كبير في العلوم والآداب !

وكيف يجد نفسه من لم يعرفها ؟ وكيف يعرفها من حجب عنها بالغرور
والكبر ؟ أو شغل عنها باتباع الشهوات ، والإخلاق إلى الأرض ، والغرق في
الذائد الحس ، ومطالب الجسد والطين ؟

إن الإنسان خلق عجيب ، جمع بين قبضة من طين الأرض ، ونفخة
من روح الله . فمن عرف جانب الطين ، ونسى نفخة الروح ، لم يعرف حقيقة
الإنسان .

ومن أعطى الجزء الطينى فيه غذاءه وريه مما أنبتت الأرض ، ولم يعط
الجانب الروحى غذاءه من الإيمان ومعرفة الله ، فقد بنحس الفطرة الإنسانية حقها ،
وجهل قدرها ، وحرمها ما به حياتها وقوامها .

قال ابن القيم ^(٢) — رحمه الله :

في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله .

وفيه وحشة لا يزيها إلا الأنس بالله .

وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته .

وفيه تلقى لا يسكنه إلا الاجتماع عليه ، والقرار إليه .

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ، ومعاينة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه .

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ، ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له ، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً .

وهذا ليس كلام عالم فحسب ، بل كلام ذائق مجرب ، يقول ما خبره وأحس به في نفسه ، وما رآه ولاحظه في الناس من حوله .

إنها الفطرة البشرية الأصلية التي لا تجد مسكنيتها إلا في الاهتداء إلى الله والإيمان به ، والالتجاء إليه .

إنها الفطرة التي لم يملك مشركو العرب في جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعناداً « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ، ليقولنّ : الله ^(١) .

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدا الشبهات أو غبار الشهوات . وقد تنحرف وتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى ، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء ، أو الطاعة العمياء للسلالة والكبراء . وقد يصاب الإنسان بداء الغرور والعجب فيظن نفسه شيئاً يقوم وحده ، ويستغنى عن الله !!

بيد أن هذه الفطرة الأصلية تذبل ولا تموت ، وتكمن ولا تزول . فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قبل له به ، ولا يده له ولا للناس في دفعه ، ولا رفعه ، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة ، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة ، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس ، داعياً ربه ، منيباً

(١) سورة العنكبوت ٦١ وقد تكرر هذا المعنى في عدة سور

إليه . كما قال تعالى : « وإذا مسكُم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » (١) .

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بإله ، حتى قال أحد كبار المؤرخين : « لقد وجدت في التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون ، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد » .

والانحراف الكبير الذي أصاب البشرية في تاريخها الطويل ، لم يكن بإنكار وجود الله والعبودية له ، إنما كان بتوجيه العبادة لغيره ، أو إشراك آلهة أخرى معه من مخلوقات الأرض أو السماء .

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعصار ، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق ، وكان نداؤهم الأول إلى قومهم « أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (٢) « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » (٣) .

ومن هنا عني كتاب الله الخالد - القرآن الكريم - في الدرجة الأولى - بالدعوة إلى توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، والاستعانة والتوكل والإنابة . لا يثبت وجوده سبحانه ، فإن هذا الوجود - على وجه عام - مسلم به ومفروغ منه ، ولا يجادل فيه إلا قلّة مغرورة في كل عصر ، لا يقيم لها وزن ، ولا تسع لها دعوى .

ولقد قرأت لبعض الملاحدة الذين اشتهروا بالشك في الدين والتشكيك فيه ، كلمات عجيبة ، يطالب فيها قراءه ألا يصدقوه إذا كتب هو نفسه وبقلمه ما ينفي عنه الإيمان ، أو يخلع عايه الإلحاد .

(٢) سورة النحل ٣٦

(١) سورة الإسراء ٦٧

(٣) ذكر القرآن هذا القول على لسان نوح وهود وسالحي وشعيب في سورة الأعراف والآيات :

٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ ، وقد تكرر معناه في عدة سور

(م ٧ - الإيمان)

يقول : « لو أردت من نفسى وعقلى أن يشكلا لما استطاعا ، ولو أرادا منى أن أشك لما استطعت . ولو أنى نفيت إيمانى بالقول لما صدقت أقوالى ، فشعورى أقوى من كل أقوالى ! ماذا لو أن إنسانا قل : إنه لا يحب نفسه أو لا يحب الحياة ، فهل تصدقه ؟ أو هل يصدق هو كلامه ؟ هل يمكن أن تنفى أنفسنا أو إحساننا بها بالكلام ؟ إن الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ . كذلك الإيمان بالله والأنبياء والأديان من الحقائق القوية التى لا يمكن أن نضعفها أو تشكك فيها الكلمات ، التى قد تجيء غامضة أو عاجزة لأن فورة من الحماس قد أطلقتها .

إن إيمانى يساوى : أنا موجود إذن أنا مؤمن — أنا أفكر إذن أنا مؤمن — أنا إنسان إذن أنا مؤمن ! » .

والذى قال هذه الكلمات سود بعدها صفحات كثيرة كلها كفر وشك وضلال بعيد . ولكن هذا الاعتراف الذى سجله بهذه الصراحة وبهذه القوة ، يدل على أن الإيمان — كما قلنا — فطرة أصيلة لا تقاوم ولا تهزم .

والذى يعيننا هنا أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش من غير إيمان — وأن يحيا من غير إله يعظمه ويقدسه ، ويخافه ويرجوه ، ويعبده ويتوكل عليه . وإن لم يسم معبوده إلها ، ولم يسم الخضوع له عبادة .

وإنى آسى أشد الأسى لأولئك المساكين الذين صادروا فطرتهم وغلظ حجابهم ، وأظلمت قلوبهم فلم تنفذ إليها أشعة الإيمان .

أولئك الأشقياء الطموسين الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إنى آسى لهؤلاء مرتين :

آسى لهم لأنهم دخلوا الحياة ثم خرجوا منها ، ولم ينعموا بأطيب ما فيها وأعظم ما فيها وهو الإيمان .

يقول : « لو أردت من نفسى وعقلى أن يشك لما استطاعا ، ولو أرادا منى أن أشك لما استطعت . ولو أنى نفيت إيمانى بالقول لما صدقت أقوالى ، فشعورى أقوى من كل أقوالى ! ماذا لو أن إنساناً قل : إنه لا يجب نفسه أو لا يجب الحياة ، فهل تصدقه ؟ أو هل يصدق هو كلامه ؟ هل يمكن أن تنفى أنفسنا أو إحساسنا بها بالكلام ؟ إن الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ . كذلك الإيمان بالله والأنبياء والأديان من الحقائق القوية التى لا يمكن أن نضعفها أو تشكك فيها الكلمات ، التى قد تجيء غامضة أو عاجزة لأن فورة من الحماس قد أطلقتها .

إن إيمانى يساوى : أنا موجود إذن أنا مؤمن — أنا أفكر إذن أنا مؤمن — أنا إنسان إذن أنا مؤمن ! » .

والذى قال هذه الكلمات سود بعدها صفحات كثيرة كلها كفر وشك وضلال بعيد . ولكن هذا الاعتراف الذى سجله بهذه الصراحة وبهذه القوة ، يدل على أن الإيمان — كما قلنا — فطرة أصيلة لا تقاوم ولا تهزم .

والذى يعيننا هنا أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش من غير إيمان — وأن يحيا من غير إله يعظمه ويقده ، ويخافه ويرجوه ، ويعبده ويتوكل عليه . وإن لم يسم معبوده إلهاً ، ولم يسم الخضوع له عبادة .

وإنى آسى أشد الآسى لأولئك المساكين الذين صادروا فطرتهم وغلظ حجابهم ، وأظلمت قلوبهم فلم تنفذ إليها أشعة الإيمان .

أولئك الأشقياء المطموسين الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إنى آسى لهؤلاء مرتين :

آسى لهم لأنهم دخلوا الحياة ثم خرجوا منها ، ولم ينعموا بأطيب ما فيها وأعظم ما فيها وهو الإيمان .

لأنهم يؤسأ محرومون حقاً . إن الناس يقولون عن الإنسان إذا فاته شيء
مهم من مسرات الدنيا : ضاع نصف عمره ، فكيف بمن فاته روح الحياة ، وحياة
الروح ؟ كيف بمن حرم قلبه بشاشة الإيمان ؟

لقد خسر المساكين أنفسهم ، خسروا وجودهم ، خسروا الحياة وما بعد
الحياة ، خسروا الخلود . خسروا كل شيء ، لأنهم خسروا الإيمان ، وما أصدق
ما ورد في بعض الآثار الإلهية عن الله تعالى أنه يقول لعبده : « عبدى أطلبنى
تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء » .

ورحم الله العبد الصالح الذى قال : « إلهى ماذا وجد من فـدك ؟ !
وماذا فقد من وجدك ؟ ! لقد خاب من رضى دونك بدلاً ، وخسر من بنى
عنك حولاً » .

ثم آمى هؤلاء الملاحدة المحرومين مرة أخرى ، حين أراهم خلعوا رداء
العبودية لله ، فوقعوا فى العبودية لغير الله .

لقد ظن هؤلاء فى أنفسهم ، وزعموا النيرهم ، أنهم « تحرروا » من كل
عبودية ، وأنهم نبذوا الخضوع للإله نبذ النواة ، واطرحوا الإيمان بالرب
وراء الظهور .

وكذبوا . فالواقع أنهم استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، واستبدلوا
بالعبودية للخالف ، العبودية للمخلوق ، واستبدلوا بالإله الواحد آلهة شتى ، واتخذ
بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

فلا واحد منهم إلا وهو عبد لأكثر من سيد ، وخاضع لأكثر من إله ،
خيمته شعاع ، وقلبه أوزاع .

أين هذا من المؤمن الذى رفض كل الآلهة الزائغة من حياته ، وحطم كل

الأصنام من قلبه ، ورضى بالله وحده رباً ، عليه يتوكل ، وإليه يذنب ، وبه يعتصم ، وإليه يحتكم ، فلا يبغي غير الله رباً ، ولا يخذل غير الله وائلاً ، ولا يبغي غير الله حكماً ؟

فليت شعري أى القريةين خير مقاماً ، وأهدى سبيلاً ، من عرف الله فلم ينجح لأحد سواه ، أم من جحد الله فصار عبداً لأكثر من إله ؟ « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » ^(١) « ضَرَبَ اللهُ مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ، ورجلاً سالماً لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » ^(٢).

تمثل الآية المشرك بعدد ملكه أكثر من سيد ، وهم شركاء متشاكسون ، كل يريد منه غير ما يريد الآخر ، وبوجهه إلى غير وجهته ، فهو حائر معذب بين لإرضاء هذا وذاك .

أما المؤمن فمثله مثل عبد خالص لرجل واحد ، لا شركة فيه ولا مشاكسة ، فهو يعرف سيده ، ويعرف ما يرضيه ، وكيف يرضيه .

وإذا كانت الآية فى شأن المشرك والموحد . فقد أثبت الواقع أن كل ملحد مشرك ، وإن كان الفرق أن المشركين يعبدون مع الله آلهة أخرى والملاحدون يعبدون من دون الله آلهة شتى .

اهتداء المؤمن الى سر وجوده :

إن فى أعماق كل إنسان أصواتاً خفية تناديه ، وأسئلة تلح عليه منتظرة الجواب الذى يذهب به القلق ، وتطمئن به النفس . ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاء ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ : كيف بدءا ؟ كيف

ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شئ بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود ؟

هذه الأسئلة التى ألحت على الإنسان من يزم خلق ، وستظل تلح عليه إلى أن تطوى صفحة الحياة ، لم تجد - وإن تجد - لها أجوبة شافية إلا فى الدين . الدين وحده هو الذى يحل عقدة الوجود الكبرى ، وهو المرجع الوحيد الذى يستطيع أن يجيبنا عن تلك الأسئلة بما يرضى الفطرة ، ويشفى الصدور .

والإسلام - خاصة - خير دين أجاب عن هذه الأسئلة إجابة شافية ، ترضى الفطرة النيرة ، والعقل السليم ، بل إجابة تنبع من أعماقهما ، بل أعلن القرآن أن هذا الدين هو الفطرة الأصلية نفسها « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » (١) « فلو تركت الفطرة الإنسانية ونفسها بلا مؤثر خارجي ، لانتهت إلى الإسلام نفسه . وفي هذا جاء الحديث الصحيح عن رسول الإسلام « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

تقول الفطرة والعقل : إن الناس لم يخلقوا من غير شئ ، ولم يخلقوا هم أنفسهم ، ولم يخلقوا مما حولهم : ذرة فى الأرض أو فى السماء . ويقول القرآن : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ » (٢) وتقول الفطرة والعقل : لا بد - إذن - من خالق لهذا الإنسان العجيب . ولهذا الكون العريض ، ولا بد أن يكون هذا الخالق واسع العلم ، بالغ الحكمة ، نافذ المشيئة ، عظيم القدرة . ويقول القرآن « ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ فَاىُّ تَوْفَكُونُ ؟ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ . وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (٣) .

وتقول الفطرة والعقل : إن هذا الخالق الحكيم لابد أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون ، ووضع الإنسان فيه غاية وحكمة ، وتعالى حكمته أن يكون خلق هذا كله عبثاً. ويقول القرآن: « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »^(١).

وهذا الحق الذى به خلقت السموات والأرض هو ما يستشفه العقل ، ونحس به الفطرة — وإن يكن إحساساً غامضاً — أن لهذا الإنسان فى الوجود رسالة ، وأن وراء هذه الحياة — حياة الابتلاء والقناء — حياة أخرى ، هى الغاية وإليها المنتهى ، يجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، حتى لا يستوى الخبيث والطيب ، والبر والفاجر ، وهذا ما تقتضيه الحكمة . ويقول القرآن : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ . أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتِينَ كَالْعَجَارِ ؟ »^(٢) . « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ »^(٣) .

وتشعر الفطرة والعقل أن لهذا الخالق العظيم — بحكم خلقه لعباده ، وإمدادهم بنعم لا تحصى — حقاً عليهم : أن يُعرف فلا يجحد ، ويشكر فلا يكفر ، ويطاع فلا يعصى ، ويفرد بالعبادة فلا يشرك به . وينادى القرآن الناس جميعاً : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْمَعُوا لِلَّهِ أَدْدًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »^(٤) .

وبين القرآن الغاية من خلق السموات والأرض عامة ، ومن خلق الجن والإنس خاصة ، فيقول : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

(١) الدخان ٣٨ ، ٣٩ (٢) ص ٢٧ ، ٢٨ (٣) المؤمنون ١١٥ (٤) البقرة ٢١ ، ٢٢

يتنزل الأمر بينهم لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً » (١) . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون » (٢)

بهذه الأجوبة القرآنية اهتدى المؤمن إلى سر وجوده ، ووجود العالم كله . لقد عرف الله فعرف به كل شيء ، وحلّ به كل لغز ، واهتدى به إلى كل خير . فالعالم مملكة الله ، وكل ما فيه من آثار رحمة الله ، والإنسان خليفة الله ، خلق لعبادة الله ، وتحمل أمانة الله ، والحياة هبة من الله ، والموت قدر من الله ، والدنيا مزرعة لطاعة الله ، والآخرة موعد الحصاد والجزاء من الله . والسعيد من اهتدى بهدى الله ، والشقي من أعرض عن ذكر الله .

والإنسان مبتلى ومُسئول في هذه الدار الفانية ، ليصقل ويعدّ للخلود في تلك الدار الباقية ، والموت هو التنظرة التي تصل ما بين الدارين .

إن الذى أفنى الفلاسفة فيه أعمارهم ، وأذابوا فيه شموع حياتهم ، دون أن يجنوا ثمرة تشبع جوعهم الفكرى ، قد حصله المؤمن فى دعة وهدوء . فعرف : من أين جاء ؟ ولم جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ ولم يمحي ؟ ولم يموت ؟ وماذا ينتظره هناك ؟ عرف ذلك من مصدره الذى لا يضل ولا ينسى ، من وحى الله عز وجل . ومن عرف حقيقة الوجود من رب الوجود ، فقد هدى إلى صراط مستقيم .

حضرت الوفاة بعض الملاحدة من الفلاسفة المتشككين ، فهاله الموت وما بعده ، فأنشد يقول :

لعمرك ما أدري - وقد أذن البلى بعاجل ترحالى - إلى أين ترحالى ؟
وأين محلّ الروح بعد خروجه عن الهيكل المنحل ، والحسد البالى ؟
وبلغ ذلك بعض الصالحين ، فقال :

وما علينا من جهله . إذا كان لا يدري إلى أين ترحاله ؟ فنحن ندرى إلى

أين ترحالنا وترحاله ، قال تعالى : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » (١) .

لقد جاء الدين بما يكمل الفطرة ، ويأخذ بيد العقل ، ولم يجيء بما يصادم الفطرة أو يناقض العقل ،

ما أحست به الفطرة في غموض ، جاء الدين فبينه أحسن بيان وأتمه ، وما اهتدى إليه العقل في إجمال واشتباه . جاء الدين ففصله أحسن التفصيل ، ومحاً عنه الاشتباه ، ونفى أوهام العقل ، وأغاليط الحس ، ووضح الغاية ورسم الطريق .

والفطرة ليست تفكيراً خالصاً ، ولا شعوراً محضاً ، إنها مزيج من التفكير والشعور ، والدين قد جاء يخاطب الفطرة كلها . يخاطب التفكير والشعور معاً . يخاطب العقل والقلب جميعاً . والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده في الوصول إلى عقيدة سليمة راسخة ، وفكرة كلية واضحة . تفسر هذا الوجود ، وتحل أغازه ، قد تجاوزوا بالعقل حدوده واختصاصه ، وأهملوا جانباً هاماً في الفطرة الإنسانية هو جانب الشعور والوجدان ، جانب القلب . كما أغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً ما كان أحوجهم إليه ، وما أضل سعيهم بغيره . هو باب الوحي .

إن العقل — مهما أوتى من الذكاء والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج — محدود بمحدود الطاقة البشرية ، مقيد بقيود المكان والزمان والوراثة والبيئة ، فلا غنى له أبداً عن سند ومعين ، يسدده إذا أخطأ ، ويهديه إذا ضلّ ، ويرده إلى الصواب إذا شرد ، وهذا السند هو الوحي ، الذي هو أساس الدين .

إن الوحي قد أراح الإنسان من عناء البحث فيما يبدد طاقته دون الظفر بما يشبع ويفنى ، وأعفاه من تجشم رحلات طويلة وشاقة ، والسير في دروب معتمة

وملتوية ، لا يدري إلام تنتهى به ؟ وقدم له ما ينبغى أن يعلمه - وما يستطيعه -
عن مبدأ الوجود ومنتهاه ، وعلته وأسرارها ، قدمها إليه خالصة سائغة ، سالمة من
جدل المجادلين ، وتعمقات المتفلسفين ، ومخزصات المتكلفين .

وليت شعري ما الذى يستطيع أن يعلمه الإنسان عن وجوده هو ، وعن
وجود العالم الكبير من حوله ، وعن صاحب هذا الملك الكبير - سبحانه -
لو مشى فى الطريق وحده ، دون دليل من وحي الله ؟

إنه سيضرب فى بيداء لا يعرف فيها طريقاً ، ولا يجد فيها غير السراب
يحسبه ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ويسبح فى بحار من الظلمات لا يهتدى
فيها إلى بر ولا قرار ، كالتى حدثنا الله عنها فى كتابه : « كظلمات فى بحر لجى
يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض .
إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (١) .
اجل . حاول كثير من المفكرين فى القديم والحديث أن يحلوا ألغاز
الوجود ، ويظفروا بطمأنينة النفس عن طريق الفلسفة البشرية بعيداً عن هدى
الله ، ووحى السماء ، فأفلسوا وعجزوا .

قال الفخر الرازى (٢) بعد أن حصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، وطاف
بدائرة المعارف الفلسفية والكلامية لعصره : « لقد تأملت الكتب الكلامية ،
والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تروى غليلاً . ولا تشفى غليلاً . ورأيت أقرب الطرق
طريقة القرآن ... ومن جرب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي » .

وعبر بعضهم عن صرعى الفلسفة والتفلسف فقال :

لقد طفت فى تلك المعاهد كلها ومسرحت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم !

(٢) فى كتابه « أقسام اللغات »

(١) الزور ٤٠

ونمى أحدهم فى آخر عمره : لو رزق إيماناً كما إيمان العجائز ! حتى إيمان
العجائز لم يظفر به المتفلسفون .

وهكذا أفلتت الفلسفات البشرية أن تمنح القلب الإنسانى طمأنينته التى
هى أول عنصر لسعادته ، ومحال أن يسعد إنسان يؤرق الشك ليله ، ويسكدر
القلق نهاره .

وعرف المنصفون أن أهدى السبل وأقربها وآمنها للظفر بالطمأنينة إنما هو
سبيل الوحي الإلهى المعصوم . إنه « المصل الواقى » من الشك المحطم ، والقلق
المفزع « فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم »^(١) « فتوكل
على الله إنك على الحق المبين »^(٢) .

والحق المبين هو الذى اتضحت أعلامه واستبان طريقه، وزال عنه الغموض
واللبس ، والاختلاف والريب .

وشعور الإنسان واعتقاده أنه على « الحق المبين » وأنه « على صراط
مستقيم » شعور لا يظفر به غير المؤمن بوحى الله وهداه .

أما الذى شرد عن هدى الله ورسالاته ، فهو « كالذى استهوته الشياطين
فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى : اثنتا ، قل : إن هدى الله
هو الهدى »^(٣) .

إن الوحي وحده هو السبيل الفذة للوصول إلى اليقين فى قضايا الوجود
الكبرى . وبغير الوحي لن يكون يقين ، وبغير اليقين ان تكون سكينة، وبغير
السكينة ان تكون سعادة .

بالوحي يبلغ المؤمن درجة علم اليقين ، وقد يرتقى روحه وبشفـ
ويرف حتى يشارف عين اليقين أو حق اليقين .

وفي هذا قال بعض السلف : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ! ذلك
لأنه آمن بما أخبر به الوحي إيماناً تجلت به حقائق الوجود لعين قلبه ، كأنه
يراها بعيني رأسه ، ويشهدها حاضرة ظاهرة ، كالشمس في الضحى ، ليس دونها
سحاب ولا ضباب .

قال بعض السلف : « رأيت الجنة والنار حقيقة » .

قيل له : وكيف رأيتهما وأنت في الدنيا ؟

قال : رأيتهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرأيتهما بعينيه ،
ورؤيتي لهما بعيني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آثر عندي من رؤيتهما
بعيني ، فإن بصرى قد يزيع عند رؤيتهما أو يطغى ، أما بصر الرسول فما زاع
وما طغى .

نجاة المؤمن من عذاب الخيرة والشك :

هذا الإيمان البسيط العميق الذي جاء به الوحي ، وأيده العقل ، واقتضته
الطرة ، وشهد له كل سطر ، بل كل كلمة في كتاب الوجود المفتوح -
سلم المؤمن من الشك والاضطراب ، واستراح من البلبلة والخيرة ، الذهنية
والنفسية ، التي يتجرع فخصصها الجاحدون والمترابون .

بهذا الإيمان الواضح الريح ، حل المؤمن ألباز الوجود الكبرى ، حين
عرف مبدأه ومصيره ، وغايته ومهمته ، بل عرف مبدأ الوجود كله ومنتهاه
وغايته وهدفه . فاحلت عقد الشك من نفسه ، وزالت علامات الاستفهام
الكبيرة من حياته .

لقد عرف أن له رباً - هو رب كل شيء - هو الذي خلقه فسواه .

وكرمه وفضله ، وجعله فى الأرض خليفة ، وكفل له رزقه ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . فاطمأن إلى ربه ، ولاذ بجواره ، واعتصم بحبله ، فأوى بهذا الإيمان إلى ركن شديد ، ولاذ بقرار مكين ، واستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وعرف أن هذه الحياة القصيرة التى يعيشها الناس ممزوجة الخير بالشر ، والعدل بالظلم . والحق بالباطل ، واللذة بالألم ، ليست هى الغاية ، ولا إليها المنتهى . إنما هى مزرعة لحياة أخرى هى خير وأبقى . تجزى فيها كل نفس بما كسبت ، وتخلد فيما عملت ، فاستراح المؤمن بذلك من التساؤل العريض عن الحياة والموت : ما سرهما ؟ وماذا بعدها ؟ استراح المؤمن من ذلك حين علم وأيقن أنه خلق للخلود الأبدى ، وإنما ينقله الموت من طور إلى طور ، أو من دار إلى دار .

وعرف المؤمن أنه لم يخلق فى هذه الحياة عبثاً ، ولم يترك سدى ، فبعث الله إليه رسلاً بالبينات ، هداة ومعلمين ، مبشرين ومنذرين ، ليهتدى الناس إلى الحق ، ويستبينوا معالم الطريق ، ويعرفوا ما يرضى الله فيتبعوه ، وما يسخطه فيبتغوه ، وليقيموا بين الناس موازين القسط ، ويحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وليكونوا أمثلة رفيعة — نحس وترى — يتخذها الناس أسوة حسنة اصولح الأعمال ، ومكارم الأخلاق .

وعرف المؤمن أنه ليس غريباً على الكون الكبير من حوله ، ولا معزولاً عنه ، إنه بإيمانه لم يعد وحده . إن الكون كله معه . فنطرة هذا الكون هى الإيمان . هى التسبيح والسجود للرب الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً » .

إن هذه المكاسب المائلة التي غنمها المؤمن ، واجتني ثمارها ، وقطوفها الدانية ، لا يقدرها حق قدرها إلا من حرمها ، أو تأمل بعين بصيرته حال من حرمها .

فالجاحدون بالله ، أو المرتابون فيه ، وفي لفائه يوم الحساب ، يحبون حياة لا طعم لها ولا معنى . حياة كلها قاق وحيرة — كلها علامات استفهام . كلها أسئلة لا تجد لها عندهم جواباً .

إنهم لا يوقنون بشيء يطمثون إليه ، ويستريحون له في قضية وجودهم أنفسهم ، ووجود الكون كله من حولهم . من أين جاءوا ؟ ومن جاء بهم ؟ ولماذا جاء بهم ؟ وإلى أين يذهبون بعد هذه المرحلة القصيرة ، التي لم يفهموا لها سرّاً ، ولم يعرفوا لها غاية ؟ وما هذا الكون ؟ وما مبدؤه ؟ وما غايته ؟ وما علاقته بهم ؟

إن عقولهم المحدودة لا تستطيع أن تجيبهم إجابة تشفى الصدور ، وتنفع الغلة ، وتمحو بنورها ظلمات الشك والحيرة والاضطراب .

ربما يهتدون في يوم إلى جواب عن هذه الأسئلة الحائرة الحيرة ، ثم يعودون في اليوم الثاني فينقضون ما أبرموا ، ويحلون ما عقدوا ، ويتبرأون مما قالوا .

لا يثبتون على قرار ، ولا يستقرون على فكرة ، ولا يدومون على وجهة أو طريق :

كريشة في مهب الريح طائفة لا تستقر على حال من القلق

نرى ذلك قديماً في مثل قول ابن الشيل البغدادي في قصيدته الرائية :

ربك أيها الفلك المـدار أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟

إلى أن يقول متسائلاً عن علة هذا الوجود :

فماذا الامتنان على وجود لغير الموجدين به الخيار ؟
وكانت أنعم لو أن كوناً نخير قبله أو نستشار !

وما دام وجوده قد تم بغير استشارة له ، ولا اختيار منه ، فليعلن سخطه على
هذا الوجود الذى ليس - فى نظره - إلا بلاء جرت عليه شهوة عارضة لأمه
وأبيه ، وفى هذا يقول :

قبح الله لذة ، لأذانا نلها الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألف الفقد ، فإيجادنا علينا بلاء
وفى مثل ذلك يقول عمر الخيام :

لبست ثوب العمر لم أستشر وحرث فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم أدر لماذا جئت ؟ أين المفر ؟
فقد لبس ثوب الحياة دون أن يستشار ، وبؤخذ رأيه ، كأنه لو استشير
شكأن رأيه وتديره لنفسه أفضل من تديره ربه له . ثم هو يخلع هذا الثوب
بالموت ، ولا يدرى شيئاً عن سر وجوده ، ولا ما بعد وجوده .

ويقول أبو العلاء المعرى فى فترات شكه وحيرته :

فارق العيش لم نظفر بمعرفة أى المعانى بأهل الأرض مقصود ؟
لم يعطنا العلم أخباراً يحى بها نل ولا كوكب فى الأرض مرصود
ويقول :

أصبحت فى يومى أسائل عن غدى متحيراً عن حاله مقتدراً
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتماعى أن أظن وأحدس
ويقول :

سألتهمونى فأعيتنى إجابكم من ادعى أنه دار فقد كذب

وهذا الشك الذى حرم معه اليقين والاستقرار على رأى ، قد كدر عليه الحياة ، وجعله ينظر إليها نظرة متشائمة سوداء . فتسمعه يقول :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهاً وحق لسكان البسيطة أن يمسكوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد له سبك
بل يمتنع عن الزواج حتى لا ينجى على ذريته ، كما جنى عليه أبوه وأمه :

وأرحت أولادى فهم فى نعمة الـ مدم التى فضلت نعيم العاجل
وتغلب عليه النظرة الجبرية للإنسان فيقول :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى ، فهل لى بعد تخير ؟
ويقول :

جئنا على كره ونزحل رغماً ولعلنا ما بين ذلك نجبر
وحديثاً قال إيليا أبو ماضى فى قصيدته التى سماها « الطلامس » :

جئت لا أعلم من أين ، ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبى
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟
لست أدرى !

أجديد أم قديم أنا فى هذا الوجود ؟
هل أنا حر طليق ، أم أسير فى قيود ؟
هل أنا قائد نفسى فى حياتى أم مقود ؟
أتمنى أنى أدرى ، ولكن . . .
لست أدرى !

وطريقي ، ما طريقي ؟ أطويل أم قصير ؟
هل أنا أصعد ، أم أهبط فيه وأغور ؟
أنا السائر في الدرب ، أم الدرب يسير ؟
أم كلانا واقف ، والدهر يجري ؟
لست أدري !

أتراني قبلما أصبحتُ إنساناً سوياً
كنت محوياً ومحالاً ، أم تراني كنتُ شيئاً ؟
أهذا اللغز حلّ ، أم سيبقى أبدياً ؟
لست أدري ... ولماذا لست أدري ؟
لست أدري !

إن هذا الشك والاضطراب والقلق الذي يتقلب على جره الحائرون
والمرتابون في وجود الله وحكمته ، وعدله ورحمته ، وجزائه في الآخرة ، ووحيه
إلى رسله - هذا الشك ليس شيئاً هيناً . إنه عذاب أليم ، وكوة من الجحيم
فتحت على أهله ، تلفحهم بنارها ، وتسوى قلوبهم بحميمها ، وكلما خفّ لهيبها
هبت عليهم عواصف الشك من جديد ، فاشتعلت النار ، ليزدقوا العذاب .

إن هذا القلق أمر لا مناص منه ، إنه سيحرمهم سكون النفس ، وهدوء
الضمير . سيقض عاينهم مضاجعهم . وينغص عليهم حياتهم ، ويؤرق عليهم ليلهم ،
ويسكدر عليهم نهارهم ، إنهم يعيشون كما قال الله « معيشة ضنكاً » .

وضوح الغاية والطريق عند المؤمن :

غير المؤمن يعيش في الدنيا تتوزعه هموم كثيرة ، وتتنازعه غايات شتى .
هذه تميل به إلى اليمين ، وتلك تجذبه إلى الشمال ، فهو في صراع دائم داخل نفسه

وهو في حيرة بين غرائزه الكثيرة ، أيها يرضى . غريزة البقاء أم غريزة النوع ، أم المقاتلة ، أم . . . أم . . . الخ .

وهو حائر مرة أخرى بين إرضاء غرائزه وبين إرضاء المجتمع الذي يحيا فيه ، وهو حائر مرة ثالثة في إرضاء المجتمع ، أى الأصناف يرضيهم ، ويسارع في هوائهم ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك .

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على لثامها
والعكس بالعكس طبعاً . إذا رضى اللثام غضب الكرام .

وهنا يذكرون الحكاية المشهورة ، حكاية الشيخ وولده وحماره : ركب الشيخ ومشى الولد وراءه ، فتعرض الشيخ للوم النساء ، وركب الولد ومشى الشيخ ، فتعرض الولد للوم الرجال ، وركبا معاً فتعرضا للوم دعاة الرفق بالحيوان ، ومشيا معاً والحمار أمامهما ، فتعرضا لنكت أولاد البلد ، واقترح الولد أن يحمل الحمار ليستريحاً من لوم اللائمين ، فقال له الأب الشيخ : لو فعلنا لأتعبنا أنفسنا ، ولزمانا الناس بالجنون حيث جعلنا المراكب راكباً . يا بني لا سبيل إلى إرضاء الناس .

ومن فى الناس يرضى كل نفس وبين هوى النفوس مدى بعيد ؟
وقد استراح المؤمن من هذا كله ، وحصر الغايات كلها فى غاية واحدة عليها
محرص ، وإليها يسعى ، وهى رضوان الله تعالى ، لا يبالى معه برضى الناس أو
مخطئهم ، شعاره ما قال الشاعر :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وايت الذى بينى وبينك عامر وبينى والعالمين خراب
إذا صح منك لود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

كما جعل المؤمن همومه همًّا واحداً ، هو سلوك الطريق الموصل إلى مرضاه
تعالى والذي يسأل الله في كل صلاة عدة مرات أن يهديه إليه ، ويوفقه لسلوكه ،
« اهدنا الصراط المستقيم » ، وهو طريق واحد لا عوج فيه ولا اتواء « وأن
هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١).

وما أعظم الفرق بين رجلين . أحدهما عرف الغاية ، وعرف الطريق إليها ،
فاطمأن واستراح ، وآخر ضال ، يخبط في عماية ، ويمشى إلى غير غاية ، لا يدري
إلام المسير ؟ ولا إلى أين المصير ؟ « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من
يمشى سوياً على صراط مستقيم » (٢) .

واستهان المؤمن في سبيل هذه الغاية بكل صعب ، واستعذب كل عذاب ،
واسترخص كل تضحية ، بل قدمها راضياً مستبشراً ، ألا ترى إلى خبيب بن زيد
وقد صلبه المشركون ، وأحاطوا به يظهرون الثماتة فيه ، يحسبون أنه ستنهار
أعصابه ، أو تضطرب نفسه ، ولكنه نظر إليهم في يقين ساخر ، وأنشد يقول :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان في الله مصرعى
وذلك في ذات الإله ، وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ألا ترى إلى الرجل من الصحابة ومن تبعهم بإحسان كيف كان يخوض
عباب المعركة ، والموت يبرق ويرعد ، وهو يقول : « وعجلت إليك رب
لترضى » (٣) .

ألا تسمع لأحدهم وقد نفذ الرمح في صدره حتى وصل إلى ظهره ، فما كان
منه إلا أن قال : فزت ورب الكعبة .

وفي غزوة الأحزاب ، وقد ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالاً شديداً إذ جاءهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلفت القلوب الحناجر ، وظن الناس بالله الظنون ، وكشف المناقون النقاب ، فقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً .

في هذا الجو الرهيب كان موقف المؤمنين هو موقف السكينة والطمأنينة الذي عهد منهم ، والذي سجله الله لهم في كتابه : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » (١) .

ما الذي وهب هؤلاء المجاهدين السكينة ، والقتال مستعر الأوار ؟ ومنحهم الطمأنينة والموت فاغر فاه ؟ إنه الإيمان وحده ، وصدق الله « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، والله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكماً » (٢) . « قل إن الله يضل من يشاء ، ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٣) .

لقد عرف المؤمن الغاية فاستراح إليها ، وعرف الطريق فاطمأن به . إنه طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . إنه « الصراط المستقيم » الذي يهدي إليه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، « وانك تهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض » (٤) .

وبهذا الصراط المستقيم ، كان المؤمن في أخلاقه وسلوكه مطمئناً غير قلق ، ثابتاً غير متقلب ، واضحاً غير متردد ، مستقيماً غير متعرج ، بسيطاً غير معتمد ،

(٢) الفتح ٤

(٤) الشورى ٥٢ ، ٥٣

(١) الأحزاب ٢٢

(٣) الرعد ٢٧ ، ٢٨

لا يحيره تناقض الاتجاهات ، ولا يعذبه تنازع الرغبات ، ولا يحظم شخصيته الصراع الداخلى فى نفسه . أيفعل أم يترك ؟ أيفعل هذا أم ذاك ؟

إن له مبادئ واضحة ، ومعايير ثابتة ، يرجع إليها فى كل عمل وكل تصرف ، فتمطيه الإشارة ، وتفتح له الطريق فيقدم ، أو تضيء له النور الأحمر ، فيعرف الخطر ويحجم ، وحسبه كتاب ربه هادياً ، ورسوله معلماً « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » (١) .

وإن له - مع ذلك - اضميراً يقظاً ، وقلباً نيراً ، يستفتيه فى المنشآت فيفتيه ، ويرجع إليه فى الملمات فيهديه ، فهو كالإبرة « الممغنطة » تعرف اتجاهها دائماً وتشير إليه ، « واستفت قلبك ، وإن أفنك الناس وأفنوك وأفنوك » .

المقياس الخالق عند المؤمن واضح ثابت ينحصر فى رضى ربه ، وطاعة أمره ، واجتناب نهيه ، معتقداً أن فى ذلك سعادة أولاه وأخراه ، وخيره وخير البشرية جميعاً . فهو عند حدود الله وقف . وهو لأمر ربه مسارع مطواع ، مهما يكن فى ذلك من خسران منفعة عاجلة ، أو قهر لشهوة طاغية ، أو مقاومة لعاطفة قوية أو غريزة قاهرة ، أو عادة غالبة .

هذا هو شأن الإيمان القوى الصادق ، وهذه بعض ثمراته .

وفى القصة التالية العجيبة - لأب وابن مؤمنين - مثل رائع لليقين الذى لا يعرف الشك ، والمسارعة التى لا تعرف التردد أو الحيرة أو التخاذل فى أمر الله شيخ كبير ، اشتاق إلى الولد ، ودعا ربه ، فأوتيه على الكبر ، وبشرته به السماء ، « بغلام حليم » فتعاق به قلبه ، وأفرغ فيه كل ما لديه من حنان وحب ،

وظلّ ينمو فينمو معه حب أبيه ، ويشب فيشب معه الأمل والرجاء فيه ، وإذا الحكمة الإلهية تأبى إلا أن تصهرها في امتحان قاس عسير : أن يقرب الأب إلى الله قرباً ، فيذبح ولده ، ويذبح معه حبه ورجاءه وأمله . فهل توقف الوالد عن الأمر ؟ أو حتى تردد بين نداء العاطفة ونداء الإيمان ؟ بين صوت الوحي من فوقه ، وصوت الأبوة ينبثق من حناياه ؟ وهل تمرّ دلائل على أمر يتعلق برقبته ؟ أو حتى اضطرت في نفسه العوامل المتضادة من حب الحياة ، والامتثال لأمر الله ؟

كلا . لقد كان يقينهما أكبر من نوازع النفس ، وعوامل التردد ، فأسلم الموالد ولده . وأسلم الولد عنقه .

تلك هي قصة إبراهيم الخليل ، وابنه إسماعيل عليهما السلام .

وليس هناك أصدق ولا أروع من تصوير القرآن لهاتين النفسيتين المؤمتين ، ومدى طمأنينتهما في أحلك ساعات الشدة ، ومبلغ الثبات الخلقى الراسخ الذي بدا في تضحية الأب العظيم ، وصبر الابن الكريم .

قل تعالى في شأن إبراهيم وولده إسماعيل : « فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلاه لجبين . ونادينا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلاماً على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين » (١) .

وفي هذا اختتام سرّ القصة كلها ، ومفتاح ما سجلته من بطولة وفداثة ، « إنه من عبادنا المؤمنين » .

العبودية لله وحده ، والإيمان به وحده « إنه من عبادنا المؤمنين » .
العبودية لله تعنى : التحرر من التبعية لكل من سواه وما سواه ، فلا خضوع
لخلق فى الأرض أو فى السماء . حتى الشيطان الوسواس الخناس ليس له سبيل على
عباد الله « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » (١) .

والعبودية لله تعنى : الانقياد لحكمه سبحانه ، مع رضا النفس ، وتسليم
القلب ، دون أدنى حرج أو ارتياب ، لثقتة بأن تدير الله له خير من تديره لنفسه
وأنه تعالى أرحم به من أمه وأبيه ، وأنه سبحانه أعلم بما يصلحه وبزكيه .

والمؤمن الصادق هو الذى عرف لهذه العبودية حقها ، فوجه وجهه للذى
فطر السموات والأرض حنيفاً ، وحطم الأصنام كلها من قلبه ، ورفض الطواغيت
كلها من حياته ، ولم يرض غير الله رباً ، ولم يتخذ غير الله ولياً ، ولم يبتغ غير الله
حكماً ، اتضحت لعين بصيرته الوجهة ، واستقام أمامها الطريق ، لا لبس
ولا غموض ، ولا عوج ولا أمت « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً
قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى
ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير
الله أبغى رباً وهو رب كل شئ » (٢)

وهذا الاتجاه الواضح انحلت العقدة فى نفس المؤمن وفى حياته . فقد عرف
الطريقة فسلكتها على بصيرة ، غير هباب ولا متردد ، ولا قلق ولا مرتاب . طريق
الرجوع إلى أمر الله ، والاستسلام الكامل لحكم الله ، واليقين بأن خيرى الدنيا
والآخرة فى اتباعه والرضى به « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله
أمر أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » (٣) « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا

إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون» (١).
أجل هم المفلحون : مفلحون في الآخرة بدخول الجنة ورضوان من الله
أكبر . ومفلحون في الدنيا بما أنعم الله عليهم من سكينة الأنفس . وطمأنينة
القلوب ، وانسراح الصدور .

أنس المؤمن بالوجود كله :

والمؤمن يعيش موصولاً بالوجود كله ، ويحيا في أنس به ، وشعور عميق
بالتناسق معه ، والارتباط به ، فليس هذا الكون عدواً له ، ولا غريباً عنه .
إنه مجال تفكره واعتباره ، ومسرح نظره وتأملاته ، ومظهر نعم الله وآثار
رحمته . . .

هذا الكون الكبير كله يخضع لغواميس الله كما يخضع المؤمن ، ويسبح
بحمد الله كما يسبح المؤمن .

والمؤمن ينظر إليه نظرتَه إلى دليل يهديه إلى ربه ، وإلى صديق يؤنسه في
وحشته . . .

وبهذه النظرة الودود الرحبة للوجود ، تتسع نفس المؤمن ، وتتسع حياته ،
وتتسع دائرة الوجود الذي يعيش فيه .

فليس هناك أوسع من صدر المؤمن وقلبه الذي وسع العالمين ، للمنظور وغير
المنظور ، عالم الشهادة وعالم الغيب ، ووسع الحياتين : الدنيا والآخرة ، حياة
الفناء ، وحياة الخلود ، ووسع الوجودين : الوجود المحدث الفاني ، والوجود
الواجب الباقي . الوجود الأزلي الأبدي ، وجود الله جل جلاله .

وايس هناك أضيق من صدر الملحد والاشاك في الله والآخرة ، إن حياته

أضيق من سجن ، بل من « زنزانة » في سجن ، إنه يعيش معزولا عن الأزل والأبد ، عن الأمس والغد . لا يعرف إلا يومه ، ولا يعرف من يومه إلا لذاته المحسة ، وهو يعيش معزولا عن الوجود العريض ، لا يرى منه إلا شخصه وشخصاً محدودة أخرى ، ولا يرى من شخصه إلا جسمه المادى ، ودوافعه الحيوانية .

هذه حقيقة ثابتة ، وسنة ماضية ، منذ أهبط الله آدم وزوجه إلى الأرض ثم قل لهما : « فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً » (١) .

فإذا رأيت بعض هؤلاء المعرضين عن هدى الله فى محبوبه من الدى المادى والنعم الحسى ، فلا يحد عنك ذلك عن حقيقة حالهم ، فإن الضنك الحقيقى فى أنفسهم . وإذا ضاقت النفس ، وضاق الصدر ، ضاقت المعيشة وضافت الحياة كلاما . وإذا اتسعت النفس ، اتسعت الحياة . وتديماً قال الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق !

إن دائرة الوجود بالنسبة للحيوان دائرة ضيقة محدودة بحـدود معدته وكرشه ، وما يماؤها من كلاً ومرعى . ولا التفات له إلى ما وراء ذلك .

وقريب من ذلك الطفل ، فوجوده ينحصر فى أمه وتهيئها ، فإذا كبر قليلا اتسع فشم أباة وإخوته ومسرح لعبه ، فإذا نما شيئاً فشيئاً ، بدأت تتسع دائرة حسه ، ثم انتقل — كلما قارب الرشد — من الحسوس إلى غير الحسوس . فبدأ يدرك المعانى السكايمة والمعقولات المجردة .

فالإيمان بالله وبالعيب هو الذى يرتفع بالإنسان من الحيوانية إلى الإنسانية

ومن الطفولة إلى الرشد ، لأنه يرتفع بالإنسان من المحسوس إلى المعقول ، ومن المنظور إلى غير المنظور ، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب .

إن المؤمن يعيش في سعة من نفسه وقلبه ، ولو لم يكن في سعة من عيشه ، فطبيعة الإيمان توسع النفس والقلب والحياة ، لأنه يصل صاحبه بالوجود كله ، ظاهره وباطنه ، علويه وسفليه . ما يبصر منه وما لا يبصر . ماضيه وحاضره ومستقبله . يصله بالسموات والأرض ومن فيهن . يصله بالملائكة وحمة العرش والقوى الروحية من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو . يصله بحملة النور الإلهي ، وأصحاب الرسالات السماوية من لدن آدم أبي البشر إلى محمد صلى الله عليه وسلم . يصله بالصدّيقين والشهداء والصالحين من كل أمة ومن كل عصر ، يصله بالآخرة والبعث والحساب والجنة والنار . وباختصار : يصله بالوجود ورب الوجود ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

النفس المؤمنة نفس رحبة واسعة ، وكيف لا وهي تعيش في وجود ضعته السموات والأرض ، والعرش والكرسي ، والدنيا والآخرة ، والأزل والأبد ؟

والنفس المؤمنة رحبة واسعة ، لأنها تعيش في نور يهديها سبيلها ، ويكشف لها ماحولها ، ومن شأن النور أن يوسع الدائرة التي يحيا فيها الإنسان . على عكس الظلام ، فإن الذي تسكنه الظلمة لا يرى ماحوله ولا من حوله . بل لا يرى شيء . وهو بجواره تكاد تلمسه يده ، بل لا يرى نفسه ، ولا شيء أقرب إليه من نفسه ، فإذا لاح له شعاع خافت بدأ يرى نفسه ، أو شيئاً مما حوله . فإذا قوى هذا النور . وانتشرت أشعته العريضة ، أضاء له دائرة أوسع ، وعلى قدر قوة هذا النور . وقوة البصر عند الإنسان ، تكون سعة الدائرة التي يدركها البصير .

مثل الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » (١) .

فقال : « إن النور إذ دخل في القلب انسع وانفسح » .

فالقلب يتسع وينفسح وينشرح بنور الإيمان واليقين ، كما يضيق وينكمش بظلمة الإلحاد والشك والنفاق « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً » ^(١) .

المؤمن يعيش في معية الله :

والمؤمن لا يعتريه ذلك المرض النفسى الويل ، الذى يفتك بالمحرومين من الإيمان ، ذلك هو مرض الشعور بالوحدة المقلقة ، فيحس صاحبه أن الدنيا مقلقة عليه ، وأنه يعيش فريداً منعزلاً ، كأنه بقية غرقى سفينة ابتلعها اليم ، ورمت به الأمواج في جزيرة صغيرة موحشة يسكنها وحده ، لا يرى إلا زرقة البحر وزرقة السماء ، ولا يسمع ، إلا صفير الرياح ، وهدير الأمواج .
وأى عالم أشد على النفس من هذا العالم ، وأى إحساس أعم من هذا الإحساس ؟ إن أقصى ما يصنعه السجان بالسجين أن يحبسه في سجن انفرادى (زنزانه) ليحرمه من لذة الاجتماع ، وأنس المشاركة والاختلاط ، فما بالناس بمن وضع نفسه دائماً في تلك الزنزانه ، وعاش فيها بمشاعره وتصوره وحده ، وإن كانت الدنيا تضج من حوله بخلق الله من بنى الإنسان ؟؟

والمختصون متفقون على أن هذا المرض من أخطر أمراض النفس . لما يجابه على صاحبه من عزلة وفقدان الثقة بمن يتعاملون معه ، إذ يعتقد أن كل من حوله دونه ، وأنهم يخالفونه في كل مقومات الحياة ، وأبنا التفات لا يجد غير نفسه ، وقد مثل بعضهم حالة هذا المريض بإنسان قد سجن في غرفة جميع جدرانها مرآة (مرايا) فأيما ينظر لا يجد إلا نفسه ، وأن هذه الغرفة التى سجن فيها لا أبواب لها ، ولا منافذ بها ، فأين السبيل إلى الهرب منها ؟

فهل يستطيع مثل هذا الإنسان أن يعمل أو ينتج ، أو أن يظل محتفظاً بوعيه وقدرته على الفهم والتركيز ؟ وهل يمكن لمثله أن يظفر بالسكينة والاطمئنان ؟
الجواب طبعاً : لا .

بل قال المختصون في علاج هذه الأمراض : إن لهذا المرض النفسى آثاراً عضوية تظهر على جسم صاحبه ، كما تظهر في حركاته وتصرفاته . فقد يصيبه الدوار ، ويتصبب عرقه ، وتسرع نبضات قلبه . كأنه خائف من عدو قاهر ، أو مقدم على موقف عصيب . وقد يتخبط في حركاته ومشيه كأنه يريد الهرب . ويقول الدكتور « مورييس جو بهيل » مدير إدارة الصحة العقلية بنيويورك :
« إن مرض إحساس الإنسان بوحده له أهم العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية » .

ولم يدخر الأطباء وعلماء النفس وسعاً في البحث عن علاج ناجع لهذا المرض وبذلوا في ذلك جهوداً جمة ، وأجروا تجارب كثيرة ، وحاولوا محاولات خاصة ، حتى انتهى رأى المنصفين منهم أخيراً إلى أن العلاج الأمثل لهذا المرض هو اللجوء إلى الدين ، والاعتماد بعروة الإيمان الوثقى ، وإشعار المريض بمعية الله والأنس به .

فهذا الإيمان القوي هو خير دواء لعلاج هذا المرض الخطير ، كما أنه خير وقاية من شره .

قال الدكتور فرانك لوباخ العالم النفسى الألمانى : مهما بلغ شعورك بوحدة نفسك فاعلم أنك لست بمفردك أبداً . فإذا كنت على جانب من الطوبى فسر وأنت على يقين من أن الله يسير على الجانب الآخر ^(١) .

واعتقاد المسلم أكبر من هذا وأعظم . إنه يؤمن أن الله معه حيثما كان ، وليس

(١) من مقال للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

على الجانب الآخر من الطريق ، إن الله سبحانه يقول في الحديث القدسي . « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني » ويقول في كتابه العزيز : « فلا تهنؤوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » (١) .

ويقول أديب غربي من كلمة يستقبل بها عاماً جديداً : قلت للرجل الواقف على باب العام : أعطني نوراً أستضيء به في ظلمات الطريق ، قال : ضع يدك في يد الله فإنه يهديك سواء السبيل .

إن شعور المؤمن بأن يد الله في يده ، وأن عنايته تسير بجانبه ، وأنه ملحوظ بجميعه التي لا تقام وأنه معه حيث كان ، يطرد عنه شبح الوحدة الخفيف ، ويزيح عن نفسه كابوسها المزيج .

كيف يشعر بالوحدة من يقرأ في كتاب ربّه « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » (٢) « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » (٣) ؟ إنه لا يشعر إلا بما شعر به موسى حين قال لبني إسرائيل : « إن معي ربي سيهدين » (٤) . وما شعر به محمد في الغار حين قال لصاحبه : « لا تحزن إن الله معنا » (٥) .

إن شعور المؤمن بجمية الله وصحبته دائماً يجعله في أنس دائم بربه ، ونعيم موصول بقربه ، يحس أبداً بالنور يغمر قلبه ، ولو أنه في ظلمة الليل البهيم . ويشعر بالأنس يملأ عليه حياته وإن كان في وحشة من الخلطاء والمعاشرين ، ينشد ما قاله العبد الصالح يفتاحي ربه :

(١) سورة محمد ٣٥ .

(٢) البقرة ١١٥

(٣) الحديد ٤

(٤) الشعراء ٦٢

(٥) التوبة ٤٠

إن قلباً أنت ساكنه غير محتاج إلى التبرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

المؤمن يعيش في صحبة النبيين والصدّيقين:

والمؤمن لا يشعر أنه في عزلة عن إخوانه المؤمنين . إنهم ، إن لم يكونوا معه في عمله أو مسجده أو داره - يعيشون دائماً في ضميره ، ويحيون في فكره ووجدانه ، فهو إذا صلى - ولو منفرداً - تحدث باسمهم « إياك نعبد وإياك نستعين » ^(١) وإذا دعا دعا باسمهم « إهدنا الصراط المستقيم » وإذا ذكر نفسه ذكرهم « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ^(٢) وإنه لأوسع مدى من أن يعيش مع مؤمن عصره وحدهم ، بل إنه ليتخطى الأجيال ، ويخترق العصور والسافات ، ويحيا مع المؤمنين وإن باعدت بينه وبينهم السنين والأعوام ، يقول ما قال الصالحون : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » ^(٣) .

المؤمن يشعر أنه يعيش بإيمانه وعمله الصالح مع أنبياء الله ورسله المقربين . ومع كل صديق وشهيد وصالح من كل أمة وفي كل عصر : « وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » ^(٤) .

وأى إنسان أسعد بمن يرافق هؤلاء ويرافقونه ؟ إنها ليست مرافقة جسد وصورة ، ولكنها مرافقة روح ووجدان ، وفكر وقلب ، وكفى أنه « معهم » وليس خافهم ، ولا قريباً منهم . ولا يحسبن امرؤ من الناس أن مرافقة هؤلاء للمؤمن شيء هين ضئيل ، أو أمر خيالي موهوم ، فإنه لفرق كبير

(١) الفاتحة هـ

(٢) هذا في التشهد الذي يتكرر في الصلوات المفروضة وحدها تسع مرات يومياً عدا السنن

والنوافل .

(٣) أحشور ١٠

(٤) النساء ٦٩

مبين إنسان تاريخه هو تاريخ شخصه أو أمرته ، أو حزبه مثلاً ، فهو قريب القاع ، سطحى الجذور . وإنسان تاريخه هو تاريخ الإيمان والهدى من عهد آدم ، تاريخه هو تاريخ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد من أولى العزم من الرسل ، ومن غيرهم من أصحاب النبوات والرسالات منذ بعث الله للناس رسولاً ، وأنزل كتاباً ، فهو يستلهم هذا التاريخ المؤمن الحافل في كل ما ينزل به من أحداث ، وما يعرض له من مشكلات ، وما يقف في سبيله من عوائق ، ويجد فيه الأسوة والهداية كما يجد فيه السلى والعزاء . كما يجد فيه الأنس والود ، ومن كل ذلك يأخذ الزاد لفكره ، والنور لقلبه ، والممد للإرادته .

الصلاة والدعاء من بواعث السكينة :

ومن أسباب السكينة النفسية التى حرمها الماديون ، ونعم بها المؤمنون ، ما ينجى به المؤمن ربه كل يوم من صلاة ودعاء .

فالصلاة لحظات ارتقاء روحى يفرغ المرء فيها من شواغله فى دنياه ، ليقف بين يدى ربه ومولاه ويثنى عليه بما هو أهله ، ويفضى إليه بذات نفسه ، داعياً راعباً ضارعاً .

وفى الاتصال بالله العلى الكبير قوة للنفس ، ومدد للعزيمة ، وطمأنينة للروح . لهذا جعل الله الصلاة سلاحاً للمؤمن يستعين بها فى معركة الحياة ، ويواجه بها كوارثها وآلامها ، قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ^(١) وكان محمد رسول الله إذ حز به أمر فزع إلى الصلاة ، ولم تكن صلاته مجرد شكل أو رسم يؤدى ، وإنما كانت استغراقاً فى مناجاة الله ، حتى إنه كان إذا حان وقتها قال لمؤذنه بلال فى لهنة المتشوق واشتياق

المهلوف : « أرحنا بها يا بلال » ... وكان يقول « جعلت قرّة عيني في الصلاة ».

وقد أعجبني ما كتبه « دين كارنيجي » ^(١) عن الأثر المبارك للصلاة في النفس البشرية ، وهو يريد الصلاة بمعناها العام المشترك بين الأديان جميعاً ، وهو الدعاء والتضرع والابتهاال إلى الله ، قال :

« ولا يقعد بك عن الصلاة والضراعة والابتهاال أنك لست متديناً بطبعك ، أو بحكم نشأتك ، وثق أن الصلاة سوف تسدي إليك عوناً أكبر مما تقدر ، لأنها شيء على فعال ، تسألني : ماذا أعني بشيء على فعال ، أعني بذلك أن الصلاة يسعها أن تحقق لك أموراً ثلاثة لا يستغنى عنها إنسان سواء كان مؤمناً أم ملحداً .

١ - فالصلاة تعينك على التعبير بأمانة ودقة عما يشغل نفسك ، ويثقل عليها ، وقد بينا فيما سلف أن من المحال مواجهة مشكلة ما دامت غامضة غير واضحة المعالم ، والصلاة أشبه بالكتابة التي يعبر بها الأديب عن همومه ، فإذا كنا نريد حلاً لمشكلاتنا وجب أن نجريها على ألسنتنا واضحة المعالم ، وهذا ما فعله حيث نبث شكوانا إلى الله .

٢ - والصلاة تشعرك بأنك لست منفرداً بحل مسكلاتك وهمومك ، فما أقل من يسعهم احتمال أثقل الأحمال وأعسر المشكلات منفردين ، وكثيراً ما نكون مشكلاتنا ماسة أشد المساس بذواتنا فنأبى أن نذكرها لأقرب الناس إلينا ، ولكننا يسعنا أن نذكرها للخالق عز وجل في الصلاة .

والأطباء النفسيون يجمعون على أن علاج التوتر العصبي ، والتأزم الروحي

(١) في كتاب : « دغ القلق وأبدأ الحياة » ص ٣٠١ ، ٣٠٢

يتوقف - إلى حد كبير - على الإقضاء بمبعث التوتر ومنشأ الأزمة - إلى صديق قريب ، أو ولي حميم . فإذا لم نجد من نفى إليه كفانا بالله ولياً .

٣ - والصلاة بعد هذا تخففنا إلى العمل والإقدام ، بل الصلاة هي الخطوة الأولى نحو العمل ، وأشك في أن يوالى امرؤ الصلاة يوماً بعد يوم ، دون أن يلمس فائدة أو جدوى ، أو بمعنى آخر ، دون أن يتخذ خطوات مثمرة نحو تحسين حالته ، وتفريج أزمته ، وقد قال : « الكسيس كاريل »^(١) « الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت حتى الآن ، فلماذا لا ننتفع بها ؟ »^١ .

وإذا كان هذا شأن الصلاة بعامه ، فإن الصلاة الإسلامية أزكى وأعق أثراً ، بما فيها من طهارة بدنية منشطة ، وما فيها من قرآن يتلى ، وهو كتاب الخلود ، وما فيها من إichاء الجماعة التي رغب الإسلام فيها ، وحث عليها .

أى سكينه يشعر بها المؤمن حين يلجأ إلى ربه في ساعة العسرة ويوم الشدة ، فيدعوه بما دعا به محمد من قبل : « اللهم رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، فليس دونك شيء ، اقض عني الدين ، واغنني من الفقر »^(٢) .

وأى طمأنينة أقيت في قلب محمد رسول الإسلام يوم عاد من الطائف دامي القدمين ، مجروح الفؤاد من سوء ما لقي من القوم - فما كان منه إلا أن

(١) مؤلف كتاب « الإنسان .. ذلك المجهول » والمائزة على جائزة نوبل .

(٢) رواه مسلم .

رفع يديه إلى السماء يقرع أبوابها بهذه الكلمات الحية النابضة التي دعا بها محمد ربه ، فكانت على قلبه برداً وسلاماً : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ... » .

المؤمن لا يعيش بين (لو) و (ليت) :

وإن من أهم عوامل القلق الذي يفقد الإنسان سكينته النفس وأمنها ورضاها هو تحسره على الماضي وسخطه على الحاضر ، وخوفه من المستقبل .

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر ، فيظل فيها شهوراً وأعواماً ، يجتر آلامها ويستعيد ذكرياتها القاتمة ، متحسراً تارة ، متمنياً أخرى شعاره : ليتني فعلت ، وليتني تركت ، لو أني فعلت كذا لكان كذا ، وقديماً قال الشاعر :

ليت شعري . وأين مني « ليت » ؟ إن « ليتاً » وإن « لوأ » .. عناء
ولذا ينصح الأطباء النفسيون ، والمرشدون الاجتماعيون ، ورجال التربية ، ورجال العمل ، أن ينسى الإنسان آلام أمسه ، ويعيش في واقع يومه ، فإن الماضي بعد أن ولى لا يعود .

ما مضى فات ، والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها
وقد صور هذا أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمرىكا تصويراً بديعاً لطلبته حين سألهم : كم منكم مارس نشر الخشب ؟ فرفع كثير من الطلبة أصابعهم ، فعاد يسألهم : وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب ؟ فلم يرفع أحد منهم إصبعه ، وعندئذ قال المحاضر : بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب ، فهي منشورة فعلاً . . وكذلك الحال مع الماضي : فعندما ينتابكم القلق لأمر حدث في الماضي ، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة ! !

وقد نقل هذا التصوير ديل كارنيجي ، كما نقل قول بعضهم : لقد وجدت أن القلق على الماضي لا يجدي شيئاً تماماً كما لا يجديك أن تطحن الطحين ، ولا أن تنشر النشارة ، وكل ما يجديك إياه القلق هو أن يرسم التجاعيد على وجهك ، أو يصيبك بقرحة في المعدة^(١) .

ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين ، فيجعلهم يطحنون الطحن ويبكون على أمس الزاهب ، ويعضون على أيديهم أسفاً على ما فات ، ويقلبون أكفهم حسرة على ما مضى .

وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة ، والأفكار الداجية هو المؤمن الذي قوى يقينه بربه ، وآمن بقضائه وقدره ، فلا يسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه ، بل يعتقد أنه أمر قضاء الله كان لابد أن ينفذ ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضى والتسليم ، ثم يقول ما قال الشاعر :

سبقت مقادير الإله وحكمه فأرح فؤادك من «لعل» ومن «لو»

وقول الآخر :

ولست براجع مافات منى بلهف ولا بليت ولا لوانى
إنه لا يقول : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن يقول : قدر الله وما شاء فعل ، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان^(٢) كما علمه الرسول ﷺ .

إنه يوقن أن قدر الله نافذ لا محالة ، فلم السخط ؟ ولم الضيق والتبرم ؟ والله تعالى يقول : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور^(٣) » .

وفي غزوة أحد التي قتل فيها سبعون من المسلمين، نعى القرآن على طائفة من المنافقين ومرضى القلوب . وضعاف الإيمان ، عاشوا بين « لو » المتندمة و « ليت » المتحسرة ، فيقول : « وطائفة قد أهتهم أنفسهم بظنن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا ههنا ، قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » (١) .

ويرد على أولئك الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا .. « لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » (٢) .

للمؤمن لا يقف موقف هؤلاء المنافقين ، ولا موقف إخوانهم من الكفار الذين نهى القرآن عن التشبه بهم في تحسراتهم الأسيئة ، وتمنياتهم الحزينة . . « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ، والله يُحْيِي ويميت ، والله بما تعملون بصير ، ولئن قتلتم في سبيل الله أو مُتِمَّ مغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن مُتِمَّ أو قتلتم لآلئ الله تحشرون » (٣) .

ان شعائر المؤمن دائما : « قدر الله وما شاء الله فعل : الحمد لله على كل حال وبهذا لا يأمي على مافات ، ولا يحيا في خضم أليم من الذكريات ، وحسبه أن يتلو قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم » (٤) وهذا يسبغ عليه أيضاً نعمة الرضى الذى سنتحدث عنه فيما يلي :

(٢) آل عمران ١٦٨ .

(١) آل عمران ١٥٤

(٣) آل عمران ١٥٦ — ١٥٨ . (٤) التباين ١١ .

الرضى

« ان الله عز وجل بقسطه جعل الفرح
والروح فى الرضى واليقين، وجعل الغم
والحزن فى السخط والشك » .
« حديث شريف » ..

فى هذا الحديث الشريف كشف عن حقيقة نفسية باهرة ، فكما أن سنة الله
قد ربطت الشبع والرى بالطعام والشراب فى عالم المادة ، فإن سنته تعالى فى عالم
النفس والروح قد ربطت الفرح والروح ، وبعبارة أخرى السرور وراحة النفس —
بالرضى واليقين ، فيرضى الإنسان عن نفسه وربه يطمئن إلى يومه وحاضره ، وبيقينه
بالله والآخرة والجزاء يطمئن إلى غده ومستقبله . ومن غير المؤمن فى رضاه عن
يومه ، وبيقينه بغده ؟ كما ربطت سنة الله الغم والحزن بالسخط والشك .

فالساحطون والشاكون لا يذوقون للسرور طعمًا . إن حياتهم كلها سواد
ممتد ، وظلام متصل ، وليل حالك لا يعقبه نهار ، ولا يرتقب له فجر صادق .
وقد ربط الحديث النبوى الكريم بين السخط والشك وهما متلازمان ، فلا سخط
من غير شك ، ولا شك من غير سخط . قال ابن القيم : قل أن يسلم الساحط
من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه ، وإن كان لا يشعر به ، فلو فتش نفسه غاية
التفتيش ، لوجد يقينه معلوما مدخولا . فإن الرضى واليقين أخوان مصطحبان .
والشك والسخط قرينان .

الساحط إنسان دائم الحزن ، دائم الكآبة . ضيق الصدر ، ضيق الحياة
ضيق بالناس ، ضيق بنفسه ، ضيق بكل شيء ، كأن الدنيا — على سمعتها —
فى عينيه مسم الخياط .

إن المؤمن قد تصيبه الكآبة ، وقد يعتريه الحزن ، ولهذا قال الله لرسوله .
« ولا تحزن عليهم » « ولا يحزنك قولهم » ولكن حزن المؤمن لغيره أكثر من
حزنه لنفسه ، وإذا حزن لنفسه فلاخرته قبل دنياه . وإذا حزن لدنياه فهو حزن
عارض موقوت كغمام الصيف ، سرعان ما ينقشع إذا هبت عليه ريح الإيمان .
حتى النفوس المنقبضة والطباع المتشائمة ، ينشر الإيمان عليها من ضيائه وإشرافه ،
فيبديد كثيراً من ظلامها ويخفف كثيراً من انقباضها ويطارد أسباب السخط والنشأوم
من وجودها .

أما المرتاب في الله والآخرة فهو يعيش في مأثم مستمر ، ومناحة دائمة .
لأنه يعيش في سخط دائم ، وغضب مستمر . ساخط على الناس ، ساخط على
نفسه ، ساخط على الدهر ، ساخط على كل شيء . وقديماً قالوا : من غضب على
الدهر طال غضبه . ولهذا هو في مأثم مستمر . يبكي دائماً حظه وينعى نفسه ،
وينوح على دنياه ، ويولول على وجوده . كما وصف بعض المرتابين نفسه فقال :
إنه حزين بعاطفته وتفكيره وسلوكه .. حزين بأعصابه وأعصاب الكون والآلهة
والناس والأشياء ! .. لا يعرف لماذا هو ، لماذا هو حزين ، لا يعرف لماذا هو
حزين ، كما لا يعرف لماذا هو !!

إن شعور الإنسان بارضى من أول أسباب السكينة النفسية التي هي سر
السعادة .

وفي الحديث : « من سعادة المرء استخارته ربه ، ورضاه بما قضى ، ومن
شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء » (١)

فكل أمر مقدوره يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ، والرضى بعد
وقوعه ، والسعيد من جمع بينهما ، وذلك هو المؤمن ، والشقي من حرمهما .

(١) رواه البزار ومعناه عند أحمد والترمذى .

المؤمن يسأل الله قبل إقدامه على أمر من الأمور أن يهديه إلى أرشد الأعمال وأهدى السبل ، ومن الأدعية التي عليها لنا الرسول : « اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فيسره لي ، وبارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به » (١)

والمؤمن وحده هو الذي يغمره الإحساس بالرضى بعد كل قدر من أقدار الله للمؤمن هو الذي يحس تلك الحالة النفسية التي تجعله مستريح الفؤاد ، منشرح الصدر ، غير متبرم ولا ضجر ، ولا ساخط على نفسه ، وعلى الكون والحياة والأحياء ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه ، وعن الوجود العام من حوله ، ومبني هذا وذاك رضاه عن مصدر الوجود كله ، وينبوع هذا الرضى هو الإيمان بالله رب العالمين .

الرضى نعمة روحية جزيلة ، هبات أن يصل إليها جاحد بالله ، أو شك فيه ، أو مرتب في جزاء الآخرة ، إنما يصل إليها من قوى إيمانه بالله ، وحسن اتصاله به . وقد خاطب الله رسوله عليه السلام بقوله : « فاصبر على ما يلقى ولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار أملك ترضى » (٢) وامتن عليه بقوله : « واسوف يعطيك ربك فترضى » (٣) وقال النبي ﷺ : « ذائق طعم الإيمان من رضى بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً » (٤)

وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » (٥)
المؤمن راض عن نفسه وعن ربه :

المؤمن راض عن نفسه ، أعني عن وجوده ومكانه في الكون ، لأنه يعلم أنه

(٢) الضحى ٥

(٥) البينة ٨

(٢) طه ١٣

(١) رواه البخارى وغيره

(٤) رواه أحمد ومسلم والترمذى

ليس ذره ضائعة ، ولا كما مهملاً ، ولا شيئاً تافهاً ، بل هو قبس من نور الله ، ونفخة من روح الله ، وخليفة في أرض الله .

وهو راضٍ عن ربه ، لأنه آمن بكماله وجهاله ، وأيقن بعدله ورحمته ، واطمأن إلى علمه وحكمته ، أحاط سبحانه بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ووسع كل شيء رحمة ، لم يخلق شيئاً لهوياً ، ولم يترك شيئاً مدي ، له الملك ، وله الحمد ، نعمه عليه لا تعد ، وفضله عليه لا يحد ، فما به من نعمة فمن الله ، وما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه ، يردد دائماً هذا الثناء الذي رددته من قبل أبونا إبراهيم خليل الرحمن : « الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » (١)

المؤمن موقن تمام اليقين أن تدبير الله له أفضل من تديره لنفسه ، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبويه به ، ينظر في الأنفس والآفاق فيرى آثار بره تعالى ورحمته ، فيناجي ربه : « يبيدك الخير إنك على كل شيء قدير » (٢) فالخير بيديه ، والشر ليس إليه ، وما يظنه الناس شراً ، في الوجود ليس هو شراً في الحقيقة وإذا كان لا بد من تسميته شراً ، فإنما هو شر جزئي خاص مغفور في جانب الخير الكلي العام ، وهذا الشر الجزئي ، أو الشر الموهوم اقتضاه التكافل بين أجزاء الوجود . هذا التكافل الذي يقول فيه الأستاذ العقاد :

« إن المعتقدين به — أي بهذا التكافل — يرون أن الشر لا يناقض الخير في جوهره ، ولكنه جزء متمم له ، أو شرط لازم لتحقيقه ، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر ، ولا معنى للكرم بغير الحاجة ، ولا معنى للصبر بغير الشدة ، ولا معنى

تفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها ، وقد يطرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة كما يطرد في فضائلنا النفسية ، ومطالبنا العقلية ، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع ، ولا نستمتع بالرى مالم نشعر قبله بلهفة الظمأ ، ولا يطيب لنا منظر جميل مالم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح » (١) .

المؤمن راض عن الكون والحياة :

والمؤمن — نتيجة لهذا — راض عن الحياة والكون من حوله ، لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الذى أتقن كل شيء : « الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، وكل ذرة فى الأرض أو فى السماء تدل على حكمة حكيم ، وتقدير عزيز عليم ، وتدير ملك عظيم ، ورعاية رب كريم رحيم .

المؤمن — كما قال الإمام الغزالي — (٢) يصدق تصديقاً يقينياً لا ضعف فيه ولا ريب ، أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم ، وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور ، وأطلعهم على أسرار الملكوت ، وعرفهم دقائق اللطف ، وخفايا العقوبات ، حتى اطلعوا به على الخير والشر ، والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت ، بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقضى تدبير جميعهم من التعاون والتظاهر عليه ، أن يزداد فيما دبر الله سبحانه ، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر ، وعن بلى به ، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع ، وعن أنعم الله به عليه ، بل

(١) حقائق الإسلام ص ٨ .

(٢) الإحياء ربع ١٠ المنجيات . كتاب التوكل ص ٢٢٢ ط الحلبي .

كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض — إن رجعوا فيها البصر ، وطولوا فيها النظر — ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل ، وسرور وحزن ، وعجز وقدرة ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية ، فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي ، وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي ، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ، ولا أتم ، ولا أكمل ، ولو كان وادخره — مع القدرة — ولم يتفضل به لكان بخلاً يناقض الجود ، وظلماً يناقض العدل ، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية » اهـ .

فما عرفه المؤمن من حكمة الله في خلقه ، وأمراره في كونه فيها ونعمته وما خفي عليه وكله إلى عاله ، وقال في تواضع أولى الألباب : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه » .

لهذا نرى للمؤمن راضياً عما قدر الله له . وما قضى الله فيه ، ينشد دائماً :

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلا رأيت جميع الكائنات ملاحا

المؤمن عميق الإحساس بنعم الله عليه :

إن مما يستخط الناس على أنفسهم وعلى حياتهم ، ويحرمهم لذة الرضى ، أنهم يقليلوا الإحساس بما يتمتعون به من نعم غامرة ، ربما فقدت قيمتها بإلفها ، أو بسهولة الحصول عليها ، وهم يقولون دائماً : ينقصنا كذا وكذا ، ونريد كذا وكذا ، ولا يقولون : عندنا كذا وكذا .

ولكن المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضل عظيم ، وإحسان عظيم ، ونعم يحيط به عن يمينه وعن شماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، ومن فوقه ومن تحته . إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان في المهد صبيّاً ، بل منذ كان

فى بطن أمه جنيناً . كان صبيّاً وليداً لا سن له تقطع ، ولا يد له تبطش ، ولا قدم له تسعى ، فأجرى الله له عرقين رقيقين فى صدر أمه يجرّيان لبناً خالصاً ، كامل الغذاء ، دافئاً فى الشتاء ، بارداً فى الصيف ، وألقى الله محبته فى قلب أبويه ، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب ، ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش ، حتى يكفياه ما أهمه ، ويدفعا عنه كل سوء .

وكان فى بطن أمه جنيناً ، فجعل الله له قراراً مكيناً ، هياً له فيه أسباب الغذاء والدفع والتنفس ، وجعل له متكأ عن يمينه ، ومتكأ عن شماله : « ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون » (١) .

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه فى كل شىء حوله ، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة من الله له ، تيسر له معيشته ، وتعينه على القيام برضائه فى الحياة . . إنه يرى نعمة الله فى هبة الريح ، وسير السحاب ، وتفجر الأنهار ، وبزوغ الشمس ، وطلوع الفجر ، وضياء النهار ، وظلام الليل ، وتسخير الدواب ، وإنبات النبات .

ولنقرأ فى مثل هذا قول الله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (٢) : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٣) « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا لهم فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . لياكلوا من ثمره

وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ؟ . سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت
الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (١) ، « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت
أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم
فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟ » (٢) وهو الذى جعل لكم الليل لباساً
والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً . وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي
رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً . لنحيى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا
أنعاماً وأناسى كثيراً » (٣) . « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى
يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله
عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا
تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله
ولعلكم تشكرون » (٤) : « والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها
تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى
بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والنخيل
والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . . . هو الذى أنزل
من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون . ينبت لكم به الزرع
والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .
وضخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في
ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك
لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا
منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .

(٢) يس ٧١ - ٧٣

(٤) القصص ٧١ - ٧٣

(١) يس ٣٣ - ٣٥

(٣) الفرقان ٤٧ - ٤٩

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَمْهَارٌ وَسَبِيلًا لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ . وَعَلَامَاتٌ
بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ
اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ « (١) .

وهكذا يرى المؤمن - بتوجيه كتاب الله له - آثار رحمة الله ونعمته في كل
شيء حوله ، أما نعمة الله عليه في شخصه هو ذا أعظمها وما أغزرها !

قائلها : نعمة الخلق ، ولولا مشيئته وفضله لبقى في ظلمة العدم ، ولم يكن
شيئاً مذكوراً : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً .
أفأخلفنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » (٢) .

وثانيها : نعمة الإنسانية : فقد شاء الله أن يخلقه بشراً سوياً ، ويستخلفه في
الأرض ، ويفضله على كثير من خلقه : ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر
والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً « (٣) ويتبع
ذلك حسن الصورة الحسية المعنوية : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » (٤)
« وصوركم فأحسن صوركم » (٥) .

وثالثها : نعمة الإدراك والعلم . « اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم .
علم الإنسان ما لم يعلم » (٦) . « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون
شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (٧) . وهذه
الثلاثة هي أدوات العلم ومداركه .

ورابعها : نعمة البيان النطقي والخطي : « الرحمن . علم بالقرآن . خلق
الإنسان علمه البيان » (٨) « الذي علم بالقلم » ، « والقلم وما يسطرون » (٩) .

« (١) النحل ٥ - ١٨ (٢) الإنسان ١ ، ٢ (٣) الإسراء ٧٠ (٤) النين ٤
« (٥) التباين ٣ (٦) الطلق ٣ - ٥ (٧) النحل ٧٨ (٨) الرحمن ١ - ٤ (٩) العلم ١

وخامسها : نعمة الرزق : « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » ؟ ^(١) ، « قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل : الله » ^(٢) .

وسادسها : وهذا خاص بالمؤمن — نعمة الإيمان والهداية إلى صراط الله المستقيم :

« ... ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة » ^(٣) « يمنون عليك أن أسلموا ، قل : لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » ^(٤) .

وسابعها : نعمة الأخوة والمحبة : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء. فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » ^(٥) ، « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » ^(٦) .

وقد كان محمد رسول الله أشد الناس إحساسا بنعمة الله وفضله في كل شئونه ، ولذا تراه إذا تناول طعامه — وإن كان من خشن الخبز وجاف الشعير — يتناوله تناول الراضى الشاكر ، ويقول في ختام الطعام : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ، وإذا شرب الماء القراح قال : « الحمد لله الذى جعله عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » .

وإذا اكتسى ثوبا أو عمامة أو نحو ذلك قال : « الحمد لله الذى كسانى

(٢) سبا ٢٤

(٤) الحجرات ١٧

(٦) الانفال ٦٣

(١) فاطر ٣

(٣) الحجرات ٧

(٥) آل عمران ١٠٣

هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ، اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له .

وإذا ركب دابة قال ما علمه الله إياه : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

وإذا استيقظ من نومه قال : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

وإذا قضى ضرورته البشرية وخرج من الخلاء قال : الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني » .

وإذا رأى مبتلى في جسمه أو حواسه قال : الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه » .

وإذا تم له أمر على ما كان ينبغي ويريد قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » .

وإذا خاب له رجاء أو حدث له ما يكره بطبيعته البشرية قال : « الحمد لله على كل حال » .

وإذا استقبل وجه الصباح قال : « اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر ، فأتم على نعمتك وعافيتك وسترِكَ في الدنيا والآخرة ، اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر » .

وإذا أظله المساء قال مثل ما قال في الصباح .

فهذا هو شعور المؤمن دائماً ، شعور الذاكر لنعمة الله ، الشاكر لفضل الله « وما بكم من نعمة فمن الله » « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

ولا عجب أن كانت أول آية في كتاب الله الخالد - بعد البسملة - آية
تشعر المؤمنين أبدأ بنعمة الله وإحسانه وتوجههم إلى حمده وشكره ، تلك هي
آية فاتحة الكتاب « الحمد لله رب العالمين » ، ولا غرو أن جعل الإسلام تلاوتها
فريضة يومية يكررها المسلم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة في
صلواته الخمس .

المؤمن راض بما قدر الله عليه :

والمؤمن كما يغمره الشعور بنعمة الله عليه في كل حين وفي كل حال ،
لا يفقد هذا الشعور وإن أصابته البأساء والضراء ، وهزته زلازل الحياة .
إنه راض بما قضى الله له ، وما قدر عليه ، إيماناً بأن الله تعالى لا يفعل
شيئاً عبثاً ، ولا يقضى أمراً يريد به عسراً لعباده ، وأنه - سبحانه - أرحم بهم
من الوالدة بولدها ، وأن الخير مطوى في جوف ما نظنه كارثة وشرّاً ،
وما نكرهه بطبيعتنا البشرية « فحسب أن تكرر هوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً
كثيراً » .

ولقد لمس كثير ممن خالط المسلمين من الغربيين أثر هذا الجانب الاعتقادي
- جانب الرضى بالقضاء - في نفس المسلم ، واستقباله لكوارث الحياة وآلامها ،
بنفس لا تتضعع ، وقلب لا يتحطم .

من ذلك ما كتبه ف . س بودلى تحت عنوان « عشت في جنة الله »
قال :

« في عام ١٩١٨ أوليت ظهري للعالم الذي عرفته طيلة حياتي ، ويمت
شطر إفريقية الشمالية الغربية ، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء ، وقضيت
هناك سبعة أعوام ، أتقنت خلالها لغة البدو ، وكنت أرتدى زيهم ، وآكل من
طعامهم ، وأتخذ مظاهرهم في الحياة ، وغدوت مثلهم أمتك أغناماً ، وأنا م كما

ينامون في الخيام ، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى أننى ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه « الرسول » وقد كانت تلك الأعوام التى قضيتها مع هؤلاء البدو ارحل من أمتع سنى حياتى وأحفلها بالسلام والأطمئنان والرضى بالحياة .

وقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب على القلق ، فهم — بوصفهم مسلمين — يؤمنون بالقضاء والقدر ، وقد ساعدتهم هذا الإيمان على العيش فى أمان ، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً .

فهم لا يلقون أنفسهم بين برائن الهم والقلق على أمر ، إنهم يؤمنون بأن ما قدر يكون ، وأنه لا يصيب الفرد منهم إلا ما كتب الله له ، وليس معنى ذلك أنهم يتواكلون ، أو يققون فى وجه الكارثة مكتوفى الأيدى ، كلا ، ودعى أضرب مثلاً ما أعنيه :

هبت ذات يوم عاصفة عاتية ، حملت رمال الصحراء ، وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط ، ورمت بها وادى الرون فى فرنسا ، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة ، حتى أحسست كأن شعر رأسى ينتزع من مذابته ، لفرط وطأة الحر ، وأحسست من فرط القيظ كأننى مدفوع إلى الجنون ، ولكن العرب لم يشكوا إطلاقاً ، فقد هزوا أكتافهم ، وقالوا كلمتهم المأثورة : (قضاء مكتوب) . ولكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير ، فذبحوا صفار الخراف قبل أن يودى القيظ بحياتها ، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء ، فعلوا هذا كله فى صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى . . . قال رئيس القبيلة : (لم نفقد الشئ الكثير ، فند كنا خلقاء بأن نفقد كل شئ ، ولكن حمداً لله وشكراً ، فإن لدينا نحو أربعين فى المائة من ماشيتنا ، وفى استطاعتنا أن نبدأ بها عملاً من جديد) .

المؤمن راض بما قسم الله له من رزق :

والمؤمن راض بما قسم الله له من رزق ، وما قدر له من مواهب ، وما وهب له من حظ ، لأنه مؤمن بعدل الله فيما قسم من أرزاق ، وبمحكمة فيما وزع من مواهب ، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ ، وهذا هو معنى « القناعة » الذى حث عليه الدين . وأشاد به الحكماء والصالحون .

واقدر ظلم الناس — فيما ظلموا — كلمة « القناعة » فحسبوا الرضى بالدون ، والحياة الهون ، وضعف الهمة عن طلب معالى الأمور ، وإماتة رغبة الطموح إلى الرقى المادى والمعنوى ، وتمجيد الجوع والفقر والحرمان .

وهذا كله ، كما بينت فى كتابى « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » — خطأ واضح ، وضلال بعيد . فالحق أن القناعة لا تعنى شيئاً من أوهام الكثيرين عنها . وإنما تعنى أول ما تعنى أمرين :

أولهما : أن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا لا يكاد يسمع منها أو يرتوى ، وقد صور ذلك الحديث النبوى « لو كان لابن آدم واديان من ذهب ، لا بئى ثائلاً ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » (١) .

وكان لا بد للدين أن يهديه إلى الاعتدال فى السعى للغنى ، والإجمال فى طلب الرزق ، وبذلك يضمن التوازن فى نفسه وفى حياته ، ويمنحه السكينة التى هى سر السعادة ، ويجنبه الإفراط والغلو الذى يرهق النفس والبدن معاً ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اتقوا الله وأجلوا فى الطلب ، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها ، وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجلوا فى الطلب ، خذوا ما حل ، ودعوا ما حرم » (٢) .

(١) رواه البخارى

(٢) رواه ابن ماجه

ولو ترك الإنسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه ، لأصبح خطراً على نفسه وجماعته ، فكان لا بد من توجيه طموحه إلى قيم أرفع ، ومعان أخلد ، ورزق أبقي ، وذلك هو وظيفة الدين معه : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » ^(١) « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أوئيتمكم من دلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله » ^(٢) .

وظيفة الإيمان هنا أن يحد من سورة الحرص والطمع ، ويطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية فلا تستبد بها ، وتجعلها تحيا في قلق دائم ، لانكفى بقليل ، ولا تشبع من كثير ، لا يطفى غلة ظمئها ما عندها فتعتمد عينها إلى ما عند غيرها ، ولا يشبعها الحلال فيسبل لعابها إلى الحرام ، مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح ، إنها كجهمهم — أعاذنا الله منها — تلهم الملايين في جوفها ثم يقال لها : هل امتلأت ؟

وتقول هل من مزيد ؟ !

وظيفة الإيمان أن يوجه النفوس إلى القيم المعنوية الخالدة ، وإلى الدار الآخرة الباقية ، وإلى الله الحي الذي لا يموت ، ويعلم المؤمن أن الغنى — إن كان ينشد الغنى — ليس في وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى ، وإنما هو داخل النفس أولا ، وبذلك ورد الحديث : « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس » ^(٣) .

معنى الرضى بما قسم الله :

وثانى ما تعنيه التمناعة : أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره ، وفى حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه ، فلا يعيش ممتنياً ما لا يتيسر له ، متطلعاً إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له ، وذلك كتمنى الشيخ أن يكون له قوة الشباب ، وتطلع المرأة الدميعة إلى الحسناء فى غيرة وحسد ، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل فى حسرة وتلف ، وطموح البدوى الذى يعيش فى أرض قفراء بطبيعتها إلى رفاة الحياة وأسباب النعيم ، وكما حدث فى عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكن هن ما للرجال ، فأزل الله « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله » .

وفى حال العسر ، وضيق الرزق ، التى تحمل بالأفراد ، ولا تخلو منها حياة الناس ، وفى الأزمات الطارئة التى تحمل بالأمم نتيجة حرب أو مجاعة أو نحوها .

وفى البلاد والدول التى تقل مواردها الطبيعية عن توفير الرفاة لأهلها ، ولا يهتدى كثير منهم سبيلاً لتنمية رزقه أو للهجرة من بلده — تكون القناعة بما رزق الله هى الدواء الناجع ، والبلسم الشافى ، وتطلع مثل هؤلاء الذين ذكرنا ليس طموحاً ، ولا عاوهة ، إنه طمع فى غير مطمع ، وتمنّ لما لا يكون ، وحرص لا ثمرة له إلا الهم والحزن .

هؤلاء فى حاجة أن يعلموا ويوقنوا أن السمادة ليست فى وفرة أعراض الحياة ، ولكنها فى داخل النفس ، وأولى ما يقال لهم « أرض بما قسم الله لك نكن أغنى الناس » « قد أفلح من هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً وقنع به » « ما قل وكفى خير مما كثر وألهمى » .

إن الغنى هو الغنى بنفسه ولو أنه عارى المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافياً وإذا قنعت فبعض شيء كاف

اذن . . . من القناعة ألا تكون جشعاً شرهاً ، ولا متطلعاً إلى ما ليس لك ،
ولا في طاقة مثلك ، وبذلك تستروح نسمات الحياة الطيبة ، التي جعلها الله جزاء
للمؤمنين العاملين في الدنيا « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
فلنحيينه حياة طيبة » فسر على بن أبي طالب الحياة الطيبة بالقناعة .

قصة وعبرة

وانقرأ هذه القصة من السيرة (١) نجد لها ناطقة بما يصنعه الإيمان بقلوب
المؤمنين ، وكيف حول طموحهم من الدنيا ومتعها ومادتها إلى الله والدار
الآخرة . . .

قدم وفد نجيب - وهم من السكون باليمن - ثلاثة عشر رجلاً مسلماً ،
فسر بهم النبي ﷺ وأكرم منازلهم ، أمر بلالا أن يحسن ضيافتهم ،
وجعلوا يسألون النبي ﷺ ويتعلمون منه ، وأقاموا أياماً ولم يطيلوا المكث ، رغبة
في رجوعهم إلى قومهم ، ليعلموهم مما علمهم رسول الله ، ثم جاءوا إلى
رسول الله ﷺ يودعونهم ، فأرسل إليهم بلالا فأجازهم بأرفع ما كان يجيز
به الوفود ، ثم قل : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا : نعم - غلام خلفناه على
رحلنا هو أحدثنا سنّاً . . . قل : أرسلوه إلينا . . . فلما رجعوا إلى رحالهم . . .
قالوا للغلام : انطلق إلى رسول الله ﷺ فاتص حاجتك منه ، فإننا قد قضينا
حوائجنا منه وودعناه .

(١) ذكرها ابن القيم في « زاد الماد » عند ذكر الوفود .

فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إني امرؤ من
بنى أزدى - يقول - من الرهط الذين أنكأ ، فقضيت حوائجهم ، فاقض
حاجتي يا رسول الله .

قال : وما حاجتك ؟

قال : إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي - وإن كانوا قد قدموا راغبين
في الإسلام - وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم : وإني - والله - ما أقدمني من
بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمي ، وأن يجعل غماي
في قلبي .

فقال رسول الله ﷺ - وأقبل الغلام - « اللهم اغفر له وارحمه واجعل
غناه في قلبه » . ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه . فانطلقوا راجعين
إلى أهلهم .

ثم وافوا رسول الله ﷺ بنى سنة عشر من الهجرة فقالوا : نحن بنو أزدى ،
فقال رسول الله ﷺ : ما فعل الغلام الذي أتاني معكم ؟

قالوا : يا رسول الله ، ما رأينا مثله قط ، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ،
لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ، ولا التفت إليها !

فقال الرسول : الحمد لله . اني لأرجو أن يموت جميعا . .

فقال رجل منهم : أوليس يموت الرجل جميعاً يا رسول الله ؟

فقال الرسول - مبيناً لهم أن من الناس من يموت مشتتاً موزعاً - تشعب
أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا ، فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية ،
فلا يبالي الله عز وجل في أيها هلك !

قالوا : فعاش ذلك الغلام فينا على أفضل حال ، وأزده في الدنيا ،

وأقنعه بما رزق الله ، فلما توفي الرسول ﷺ ، ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام ، قام في قومه ، فذكرهم الله والإسلام ، فلم يرجع منهم أحد . وجعل أبو بكر الصديق يذكره ويسأل عنه ، حتى باغى حاله ، وما قام به ، فكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيراً .

هذه قصة شاب عمر الإيمان قلبه ، فلم يجعل همه ما يشغل كثيراً من الناس من زهرة الحياة الدنيا ، بل تعلقت همته بما عند الله ، مما هو خير وأبقى .

حين طلب حاجته من رسول الله كانت حاجته غير حوائج رفاقه - بل غير حوائج أكثر الناس . . . كانت حاجة دينه قبل دنياه ، حاجة روحه قبل جسده ، حاجة معنى الإنسان ، لا صورة الإنسان فيه .

حاجته من الرسول : أن يسأل الله له المغفرة والرحمة وأن يجعل غناه في قلبه !

حاجة - ولاريب - قرت بها عين رسول الله ، وقد ودعه وعاد إلى أهله ووطنه ، ولكن الرسول الخبير بنفوس الرجال ، لم ينس هذا الشاب ، على بعد المكان ، ومرور الزمان .

وفي موسم الحج سأل عنه قومه سؤال المرنى العارف عن التلميذ النجيب ، وأجابوه بما سر قلبه وحمد الله عليه ، وقل فيه كلمته الناصعة الفريدة « إني لأرجو أن يموت جميعاً » .

والناس يموتون على ما عاشوا - فن عاش جميعاً مات جميعاً ، ومن عاش أوزاعاً شتى وأجزاء متناثرة ، مات كما عاش .

وقليل من الناس ، بل أقل من القليل ، ذلك الذي يعيش اغاية واحدة ،

ويجمع همومه في هم واحد ، يحيا له ، ويموت عليه ، ذلك هو المؤمن البصير الذي جعل غيته القرار إلى الله ، وضييله اتباع ما رسم الله ، وكل شيء فيه لله ، وبالله ، ونشيدته : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبني رباً وهو رب كل شيء ؟ » .

هذا — ولا نجد غيره — هو الذي يعيش جميعاً ويموت جميعاً !

الرضا مصدر قوة لصاحبه :

وقبل أن ندع الحديث عن الرضى والقناعة لابد أن نقول كلمتين :

الاولى : أن القناعة بالقليل من الرزق ليست مصدر ضعف . كما يتوهم قصار النظر من الناس ، كلا إنها مصدر قوة لأصحاب المبادئ ، وحملة الرسائل المكافحين ، الذين يتعرضون للاضطهاد والمصادرة والحرمان ، فترى أحدهم يخوض المعركة ضد الباطل والظلم ، صلب العود ، متين البنيان ثابت القدم ، لأنه يعلم من نفسه أن القليل يكفيه مما جشبت من الطعام ، وما خشن من اللباس ، وشظف من العيش .

إنه ينظر إلى قصور الأمراء ، وخزائن الملوك ، ورياش المترفين ، كما ينظر راكب الطائرة المحلقة في أعالي الفضاء إلى القرى والمدن والناس ، إنه يرى القصور الشاهقة كالعلب الصغيرة ، ويرى البشر كالنمل في جحوره .

وقد قال حكيم شرقي لأحد تلاميذه : عش على أرز وماء ، متخذاً من ذراعك المطوية وسادة تكن نشوة النفس نصيبك ، وأما الثراء الذي ساءت وسائله ، والأعجاذ التي جاءتك عن طرائق السوء فكالسحاب العائرة ، لا خصب فيها ولا نماء

مما حكى عن المسيح عليه السلام أنه كان يقول : لباسي الصوف ،

وطعامي الشعير ، وسراجي القمر ، ودابتي رجلاي ، ووسادتي ذراعي . . .
أبيت وليس لي شيء ، وأصبح وليس لي شيء ، وليس علي وجه الأرض
أغني مني !!

وصاحب المبدأ والرسالة إذا تمكنت هذه القناعة من نفسه لم يعد يبالي أو
يخاف . إنه يتغنى بما تغني به الإمام الشافعي :

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً
همتي همّة الملوك ونفسي نفس حرّ ترى المذلّة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أخاف زيداً وعمراً ؟

ويحكى الإمام الغزالي في كتاب « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »
من إحيائه : أن شيخاً كان يمشي في الطريق يلتقط النوى من الأرض فكسر
« عوداً » مع خادم يحمله إلى جارية من جواري هارون الرشيد . تغنى عليه ،
وبلغ الخبر الرشيد ، فاستشاط غضباً واحمرت عيناه ، وأرسل ليأتوا إليه بالشيخ ،
فجاء الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين . فقال الشيخ : نعم . قال : اركب .
فقال : لا .

فجاء يمشي حتى وقف على باب القصر ، فغير الرشيد مجلسه ، ثم أمر بالشيخ
فأدخل ، وفي كفه السكيس الذي فيه النوى . فقال له الخادم : أخرج هذا من كحك
وادخل على أمير المؤمنين ، فقال : من هذا عشائي الليلة .
قال : نحن نعشيك .

قال : لا حاجة لي في عشائك .

فقال الرشيد للخادم : أي شيء تريد منه ؟

قال : في كفه نوى قالت له اطرحه وادخل على أمير المؤمنين .

فقال الرشيد : دعه لا يطرحه .

فدخل وسلم وجلس ، فقال له هارون : يا شيخ ما حملك على ما صنعت ؟
قال : وأى شيء صنعت ؟

وجعل هارون يستحي أن يقول : كسرت عودى !

فلما أكثر عليه قال : إني سمعت آباءك وأجدادك يقرأون هذه الآية على المنبر : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » وأنا رأيت منكراً فغيرته . فقال له هارون : فغيره .

قال روى القصة : فوالله ما قال إلا هذا . فلما خرج أعطى الخليفة رجلاً بكرة (عشرة آلاف درهم) .

وقال : اتبع الشيخ ، فإن رأيته يقول : قلت لأمير المؤمنين وقال لى ، فلا تعطه شيئاً ، وإن رأيته لا يكلم أحداً فأعطه البكرة .

فلما خرج من القصر إذا هو بنواة فى الأرض قد غاصت فجعل يعالجها . ولم يكلم أحداً . فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : خذ هذه البكرة . فقال : قل لأمير المؤمنين يردّها من حيث أخذها .

ويروى أنه أقبل ، بعد فراغه من كلامه - على النواة التى يعالج قلعها من الأرض وهو يقول :

أرى الدنيا إن هى فى يديه هموماً كلّما كثرت لديه
تهين المسكرمين لها بصغر وتسكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

بمثل هذه النفس التى تقنع بالتقاط النوى من الأرض وترفض قبول الآلاف من الخلفاء والملوك ، تعلو كلمة الحق ، وتنصرف المبادئ والرسالات .

الرضى لا يقتضى السكوت على الباطل :

والكلمة الثانية أن رضى الإنسان عن الله ، وعن السير العام للكون والحياة ، لا يستلزم الرضى عن كل ما يراه على مسرح الحياة من شذوذ وانحراف جزئى . مصدره هذا الإنسان المكلف المحقار .

إن رضا الإنسان عن السيارات وركوبها ، ليس معناه الرضى عما تسببه من حوادث ، وما يرتكبه سائقوها من مخالفات لقواعد المرور وآداب الطريق . لقد رضى المؤمن عن نظام الله فى الكون . ومن هذا النظام ما منح الله من عقل واختيار للإنسان على أساسهما يتحمل المسئولية ، ويكون أهلاً للزجر والثورة عليه ، وتأديبه وتقويمه .

فالمؤمن راض عن نظام الوجود ، ساخط على انحراف الإنسان الذى لم يقيم بشكر الله على نعمة العقل والإرادة التى منحها . بل سخر نعمة الله فى غير ما خلقت له .

وهذا السخط على الشذوذ والانحراف البشرى سخط يرضاه الله ، بل يأمر به ، ويتوعد المهترئين له ، والساكنتين عنه ، بالعذاب الشديد « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم »^(١) « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه أبئس ما كانوا يفعلون »^(٢) .

الأمْن النفسى

(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم
بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)
قرآن كريم

كما لا يتحسر المؤمن على الماضى باكياً حزيناً ، ولا يابقى الحاضر جزوعاً
ساخطاً ، لا يواجه المستقبل خائفاً وجلالاً ، ولا يعيش فى فزع منه ، ورهبة من
غموضه ، وتوجس من جبروته ، كأنه عدو شرير متربص ، بل يعيش آمن النفس
كأنه فى الجنة ... إن إيمانه كان مصدر أمنه ، والأمن من ثمرات الطمأنينة
والسكينة بل هو نوع منها ، إنه طمأنينة تتعاقب بالمستقبل ، بكل ما يتوقعه الإنسان
ويخاف منه ، أو يخاف عليه ، ولا سعادة بدون هذا الأمن النفسى ... وقد قيل
لحكيم : ما السرور ؟ فقال : الأمن فإني وجدت الخائف لا عيش له .

ولا عجب إن جعل الله الجنة دار أمن وسلام كاملين ، فأهلها فى العرفات
آمنون ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وتلقاهم الملائكة منذ اللحظة الأولى
« أدخلوها بسلام آمنين »^(١) .

ولكى تعلم مدى ما يضيفه الإيمان من أمن وسلام على نفس صاحبه ولكى
تكون الموازنة بين ظاهرة بين المؤمنين وغيره ، أحب أن تقرأ بتأمل هذه السطور
التالية^(٢) :

نموذج للخوف والاضطراب :

« إننى أعيش فى خوف دائم ، فى رعب من الناس والأشياء ، ورعب من

(١) الحجر ٤٦

(١) مقنسة بتصرف من يوميات الأستاذ محمد زكى عبد القادر على لسان صديق أودعه مذكراته

نفسى ، لا الثروة أعطاني الطمأنينة ، ولا المركز الممتاز أعطانها ولا الصحة ، ولا الرجولة ، ولا المرأة ، ولا الحب ، ولا السهرات الحمراء ... ضقت بكل شيء ، بعد أن جربت كل شيء .

إنتى أكره نفسى ، أخاف من نفسى ، ألا ترى الأشباح من حولى ؟
ألا تحس بالخوف يفتح فيه لكى يلتهمنى ؟

مم هذا ؟ الهموم ؟ أليست لى هموم ؟ إن همى الأكبر هو هذه الدنيا ، المال عندى ، المركز والجاه ، والصحة ، والمرأة والجمال ، و ... كل شيء بين يدى ، كل شيء ملكى ، لماذا أنا خائف إذا ؟ مم أخاف ؟؟

من الله ؟ كلا ، إن الله لا وجود له فى حياتى ، مم إذن أخاف ؟ من المجتمع ؟
إنى أكرهه وأحتقره وأهزأ به ، من أين يأتينى الخوف إذن ؟ من الموت ؟ ربما ،
ولكنى لا أبالى به ، لا أشعر أننى أخافه . إنه عندى مجرد ظاهرة ، من أين يأتى
الخوف إذن ؟

ربما كنت خائفاً لأنه لا يوجد شيء أخاف منه ، ربما كنت خائفاً لأن كل شيء بين يدى ، محضر لى ، إن الامتلاء كالجوع كلاهما يخيف ! لو كان المال ليس حاضراً لى لثميتته وسعيت من أجله ، وأنفقت يومى وليلى أسعى من أجله ... لو كان المركز المحترم بعيداً عنى لبذلت جهدى لكى أباغ ، ولكن كل شيء موجود : المال ، المرأة ، الأصدقاء ، الاحترام . كل ما يسعى الناس إليه ويفكرون فيه ميسر لى : ليس لى ما يشغنى أو يتعبنى الحصول عليه ... حياتى فضاء ... همومى ؟ لا هموم لى ... إذن لابد أن أخاف ، لأننى لأجد ما أخاف منه ، لابد أن أخاف من المجهول الذى لا أعرفه ...

إننى تائه فى الحياة لأننى بلغت قمة الحياة ... إن الحياة الآن هى عدوى ..

ليس ما في الحياة ، فكله ملكته . . . إننى أشعر أنها نسخرمنى ، وتقف فى وجهى كالنول ... عرفت الآن مم أخاف إنى أخاف من الحياة ذلتها .

نموذج للامن والاستقرار :

هذا نموذج واضح الظلال لنفسية أولئك المحرومين من حلاوة الإيمان ، وبرد اليقين ، وهو يصور لنا ما يعانیه هؤلاء من رعب وخوف وقلق وتعب نفس لم يخفف وطأته عليهم وفره المال والجاه ونعيم الدنيا كله .

وتقرأ فى مقابل هذا نموذجاً رسمه القرآن لأم مؤمنة أوحى الله إليها أن تلقى بولدها وفلذة كبدها فى عرض البحر ، ووعداها برده إليها ، فاستجابت لإيمانها ، وصدقت بكلمات ربها ووعدده ، وقذفته فى التابوت ، ثم فى اليم ، ليلقيه اليم بالساحل ، ليأخذده عدوه المتربص ، كل هذا وقلبها مطمئن بالإيمان تقرأ فى هذا قول الله سبحانه ، وتعالى :

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إننا نرادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين »^(١) واستجابت الأم وصدقها الله وعده « فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون »^(٢) . .

الايمان مصدر الامان :

إن الناس يخافون من أشياء كثيرة ، وأمور شتى ، ولكن المؤمن سد أبواب الخوف كلها ، فلم يعد يخاف إلا الله وحده ، يخافه أن يكون فرط فى حقه ، أو اعتدى على خلقه ، أما الناس فلا يخافهم ، لأنهم لا يملكون له ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

دعا أبو الأنبياء إبراهيم إلى توحيد الله ، وتحطيم الأصنام ، فخوفه قومه من آلهتهم التي دعا إلى نبذها ، فقال إبراهيم متعجباً : « وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ! ! فأى الفريقين أحق بالآمن إن كنتم تعلمون ؟ »^(١) وقد عقب الله على ذلك حاكماً بين الفريقين فقال : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »^(٢) ...

وفسر النبي ﷺ الظلم في هذه الآية بالشرك « إن الشرك لظلم عظيم »^(٣) .

فبين لنا أن الإيمان والتوحيد هما أعظم أسباب الأمن والطمأنينة ، وبالتالي يكون الجحود بالله أو الشك فيه ، أو الشرك به ، أعظم أسباب الخوف والاضطراب والرعب . وصدق الله إذ قال : « سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً »^(٤) .

مخاوف الملحدين والشاكين :

والملحدون الجاحدون أكثر الناس مخاوف - وإن كتموها عن الناس -
لأنهم يخافون الزمن والكوارث ، والفقر والمرض والناس ، وأشد ما يخيفهم الموت ؛ فهم ينظرون إليه نظرهم إلى سبع فاتك ، وعدو متربص ، ونهاية مجهولة ، ومصير مخوف .

قال الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه : « إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدرك الموت على الحقيقة ، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه ، فقد انحلت ذاته ، وبطلت نفسه بطلان عدم واثور . وإن العالم متبقي موجوداً . وليس هو بموجود فيه . كما يظنه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد . أو لأنه يظن أن الموت ألماً عظيماً . غير ألم الأمراض

(٢) الأنعام آية ٨٢

(٤) آل عمران ١٥١

(١) الأنعام آية ٨١

(٣) لقمان آية ١٣

التي ربما تقدمته وأدت إليه. وكانت سبب حلوله . أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ، أو لأنه متحير لا يدري على أى شيء يقدم بعد الموت . أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات . وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها .

ظنون باطلة . ولكن المنكرين والشاكرين يعيشون في هذه الظنون . ويموتون على هذه الأباطيل . وهم بين الموت والخيالة في قلق وخوف واضطراب . على حين يجد المؤمن أقل الناس خوفاً وأشدهم أمناً .

المؤمن امن على رزقه :

هو آمن على رزقه أن يفوت . فان الأرزاق في ضمان الله الذي لا يخلف وعده . ولا يضيع عبده . وقد خلق الأرض مهاداً وفراشاً وبساطاً . وبارك فيها وقدر فيها أقواتها . وجعل فيها معاش . ووعد عباده فيها بكفالة الأرزاق وعداً كرّره وأكده وأقسم عليه . وعد كريم لا يبخل . قدیر لا يعجز . حكيم لا يعبث : « وكان وعد ربى حقاً » ^(١) « وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ^(٢) « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ^(٣) « وفي السماء رزقكم وما توعدون . ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » ^(٤) « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » ^(٥) « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » ^(٦) .

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمناً على رزقه . مطمئناً إلى أن الله لن يهلكه جوعاً . وهو الذي يطعم الطير في الوكنات . والسباع في الفلوات . والاسماك في البحار . والديدان في الصخور .

ولقد كان المؤمن يذهب إلى ميدان الجهاد حاملاً رأسه على كفه . متمنياً

(١) الكهف آية ٩٨	(٢) الروم آية ٦	(٣) الذاريات ٥٨
(٤) الذاريات ٢٢ ، ٢٣	(٥) هود ٦	(٦) العنكبوت ٦٠

الموت في سبيل عقيدته ، ومن خلفه ذرية ضفاف ، وأفراخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر ، ولكنه كان يوقن أنه يتركهم في رعاية رب كريم ، هو أربهم وأحني عليهم منه .

وتقول الزوجة عن زوجها وهو ذاهب في سبيل الله : إنني عرفته أكالا ، وما عرفته رزاقا ، ولئن ذهب الأكال لقد بقي الرزاق !

المؤمن آمن على أجله :

وهو آمن على أجله ، فإن الله قدر له ميقاتا مسمى ، أياما معدودة وأنفاسا محدودة . لا تملك قوة أن تنقص من هذا الميقات أو تزيد فيه « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »^(١) « ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها »^(٢) « إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون »^(٣) « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب »^(٤) .

أيقن المؤمن أن الله قد فرغ من الآجال والأعمار ، وكتب على كل نفس متى تموت وأين تموت .

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

وبهذا ألقى عن كاهله هم التفكير في الموت والخوف على الحياة .

هذا الأمن على الرزق والأجل منح المؤمن السكينة والطمأنينة ، كما منحه القوة في مواجهة الحياة وما فيها من طغيان وجبروت .

هدد الحجاج سعيد بن جبير بالقتل فقل له :

لو علمت أن الموت والحياة في يدك ما عبدت إلها غيرك !

المؤمن لا يخاف الموت :

وهو كذلك لا يعيش في خوف من الموت ، وجزع من مرارة كأسه ، إنه زائر لا بد من لقائه ، وقادم لا ريب فيه ، والخوف لا يردده ، والجزع لا يثنيه ، « قل إن الموت الذي تقرّون منه فإنه مُلَاقِيكُمْ »^(١) « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مُشَيّدة »^(٢) « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم »^(٣) .

ويهون الموت على المؤمن أنه سبيل الناس قبله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فلا عليه إذا اقتفى أثرهم ، وسار في دربهم . . . إن الموت خطب قد عظم حتى هان وخشن حتى لان ، إنه بلية عمت ، والبلايا إذا عمت طابت ، « إنك ميت وإنهم ميتون »^(٤) .

ومتاع الدنيا أهون عند المؤمن من أن يأسى على فراقه بالموت ، كيف والموت قنطرته إلى المتاع الباقي ، والنعيم السرمدي ؟ « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »^(٥) . « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظالمون فتيلاً »^(٦) .

فالموت ليس عدماً محضاً ، ولا فناء صرفاً ، إنه انتقال من حياة إلى حياة ، ومن طور إلى طور ، وفي الأثر « إنكم خلقتُم للأبد ، وإنما تنقلون من دار إلى دار » .

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الثاني إلى المنزل الباقي

الموت انطلاق من قفص الجسد وغلافه — في الحياة البرزخية — ثم عودة

(٣) آل عمران ١٥٤

(٢) النساء ٧٨

(١) الجمعة ٨

(٦) النساء ٧٧

(٥) آل عمران ١٧٥

(٤) الزمر ٣٠

(م ١١ — الايمان)

إليه في نشأة أخرى يوم البعث والنشور ، ولقد روى أن أحد الصالحين حين أحس بدنو أجله قام فاغتسل وتطيب وصلى ركعتين ، وما هي إلا برهة حتى دخلوا عليه فوجدوه قد مات مستقبل القبلة ، وعند رأسه ورقة كتب فيها هذه الآيات :

قل لإخوان رأوني ميتاً فبكوني ورثوني حزناً
أتظنون بأى ميتكم ؟ ليس هذا الميت والله أنا
أنا فى الصور وهذا جسدى كان ثوبى وقميصى زَمَناً
أنا عصفورٌ وهذا قفصى طرتُ عنه وبقي مرثناً
أحمدُ الله الذى خَلَصَنى وبنى لى فى المعالى مسكناً
لا تظنوا الموت موتاً ، إنه ليس إلا نقلة من هاهنا !

وقال جلال الدين الرومى فى بيان شر الموت ، وحكمة فناء الأجساد قبل حياة الخلود والبقاء : « إن العمران لا يكون إلا بعد الخراب ، وإن الكنز الثمين لا يعثر عليه إلا بعد حفر الأرض وإثارتها ، فإذا رأيت بيتاً يهدم ويخرب فاعلم أن هناك تصميمًا جديدًا وبناءً جديدًا ، إنما خرب البيت ليستخرج منه الكنز الدفين ، وتعمره عمارة جديدة » « إن للشجرة لا تعطى الأثمار حتى تفتتح وتسقط الأزهار ، كذلك الروح لا تقوى ولا تجدد ، ولا تلبس كسوة جديدة قشبية حتى يتهدم الجسم القانى ، ويخلع العمر البالى » .

« إن الله — وهو الجواد المطلق — لا يسلب نعمة أنعم بها إلا وهو يعطى نعمة أكبر منها ، فلا يسلب هذه الحياة الضعيفة القيمة التى لا تستحق أن تسمى الحياة الباقية إلا ويعطى حياة أوسع وأبقى وأجمل وأفضل » .

وقال يحيى بن معاذ : « لا يسكره لقاء الموت إلا مريب ، فهو الذى يقرب الحبيب من الحبيب » .

ولم تكن هذه نظرة الخاصة أو المتفلسفة أو المتصوفة فقط للموت ، ولكنها كانت نظرة جمهور المؤمنين .

قيل لأعرابي اشتد مرضه : إنك ستموت ، فقال : وإلى أين يذهب بي بعد الموت ؟ قالوا : إلى الله ، فقال : وبمحكم ، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده ؟ .

وصدق الله « إن الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم » (١) .

الأمل

ومن مصادر الأمن والسكينة لدى المؤمن : ما يغمر جوانحه من أمل ذلك الشعاع الذي يلوح للإنسان في دياجير الحياة فيضيء له الظلمات ، وينير له المعالم ويهديه السبيل ، ذلك هو الأمل ، الذي به تنمو شجرة الحياة ، ويرتفع صرح العمران ، ويذوق المرء طعم السعادة ، ويمس ببهجة الحياة .

الأمل قوة دافعة تشرح الصدر للعمل ، وتخلق دواعي الكفاح من أجل الواجب ، وتبعث النشاط في الروح والبدن ، تدفع الكسول إلى الجد ، والمجدد إلى المداومة على جده ، والزيادة فيه . تدفع المحقق إلى تكرار المحاولة حتى ينجح ، وتحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه . إن الذي يدفع الزارع إلى السكح والعرق أمله في الحصاد ، والذي يغري التاجر بالأسفار والمخاطر ، أمله في الربح ، والذي يبعث الطالب إلى الجد والمثابرة أمله في النجاح ، والذي يحفر الجندي إلى الاستبسال أمله في النصر ، والذي يهون على الشعب المستعبد تكاليف الجهاد أمله في التحرر ، والذي يحجب إلى المريض الدواء المر أمله في العافية ، والذي يدعو المؤمن أن يخالف هواه ويطيع ربه أمله في رضوانه وجنته .

الأمل إذن هو إكسير الحياة ، ودافع نشاطها ، ومخفف ويلاتها ، وباعث البهجة والسرور فيها .

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !

والأمل — قبل ذلك كله — شيء حلو المذاق ، جميل الحيا في ذاته ، تحقق أو لم يتحقق . واستمع إلى الشاعر العاشق يقول :

أمانى من ليلى عذاب كأنما سقتنى بها ليلى على ظمأ بردا
منى إن تسكن حقاً تكن أحسن المنى وإلاً فقد عشنا بها زمناً رغدا

ضد الأمل اليأس ... هو انطفاء جذوة الأمل فى الصدر ، وانقطاع خيط
الرجاء فى القلب ، فهو العقبة الكئود ، والمعوق القاهر الذى يحطم فى النفس
بوعات العمل . ويوهى فى الجسد دواعى القوة ، ورحم الله من قال :

والياس يحدث فى أعضاء صاحبه ضعفا وبورث أهل العزم توهينا

وقال ابن مسعود : « الهلاك فى اثنتين : القنوط والعُجب » ... والقنوط هو
اليأس ، والعجب هو الإعجاب بالنفس والغرور بما قدمته . قال الإمام الغزالي :
(إنما جمع بينهما : لأن السعادة لا تنال إلا بالسعى والطلب ، والجد والتشمير ، والقنوط
لا يسعى ولا يطلب « لأن ما يطلبه مستحيل فى نظره » ، والمعجب يعتقد أنه قد سعى
وأنه قد ظفر بمراحه ، فلا يسعى ، فالموجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب ، والسعادة
موجودة فى اعتقاد المعجب حاملة ، ومستحيلة فى اعتقاد القنوط ... فن ههنا
جمع بينهما) .

ومصادق هذا الكلام فى الحياة جلى واضح : إذا يئس التلميذ من النجاح ..
نقر من الكتاب والقلم ، وضاق بالمدرسة والبيت ، ولم يعد ينفعه درس خاص
يتلقاه ، أو نصيح يسدى إليه ، أو تهيئة المكان والجو المناسب لاستذكاره ، أو ...
أو ... إلا أن يعود الأمل إليه .

وإذا يئس المريض من الشفاء كره الدواء والطبيب ، والعيادة والصيدلية ،
وضاق بالحياة والأحياء . ولم يعد يجديه علاج ، إلا أن يعود الأمل إليه .

وهكذا إذا تغلب اليأس على إنسان أى إنسان اسودت الدنيا فى وجهه ،

وأظلمت في عينه ، وأغلقت أمامه الأبواب ، وتقطعت دونه الأسباب ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت .

وأصبح لا يدري وإن كان دارياً أقدامه خير له أم وراؤه ؟
ذلك هو اليأس — أس ، سم بطيء لروح الإنسان ، وإعصار مدمر لنشاط الإنسان ، وتلك حال اليائسين أبد الدهر : لا إنتاج للحياة ، ولا إحساس بمعنى الحياة .

تلازم اليأس والكفر :

وليس بعجيب أن تجد هذا الصنف من الناس بوفرة وغزارة بين الجاحدين بالله أو ضعاف الإيمان به ، لأنهم عاشوا بأنفسهم فحسب — زعموا — وقطعوا الصلة بالكوز ورب الكون ، فلا غرو أن نجد هؤلاء الكافرين أيأس الناس ، كما نجد اليائسين أكفر الناس ، فهناك ارتباط بين اليأس والكفر ، كلاهما سبب للآخر وثمره له : اليأس يلد الكفر والكفر يلد اليأس . « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ^(١) . « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ^(٢) .

وأظهر ما يتجلى هذا اليأس في الشدة ونزول الشر ، وقد كرر القرآن ذمّه لهذا النوع من الناس فقال : « وثمن أذقنا الإنسان منارحة ثم نزعناها منه إنه أيثوس كفُور » ، ثم استثنى من ذلك بعد : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » ^(٣) وقال : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً » ^(٤) ، « وإن مسه الشر فيئوس قنوط » ^(٥) .

وليس اليأس من لوازم الكفر فحسب ، بل من لوازم الشك أيضاً . فكل

(٢) هود ٩ — ١١

(٢) الحجر ٥٦

(١) يوسف ٨٧

(٥) فصلت ٤٩

(٤) الاسراء ٨٣

من فقد اليقين الجازم بالله ولقائه ، وحكمته وعدله ، فقد حرم الأمل والنظرة المتفائلة للناس والكون والحياة ، وعاش ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود قاتم ، ويرى الأرض غابة والناس وحوشاً والعيش عبثاً لا يطاقى ... على نحو ما قال أبو العلاء : هذا جنه أبى على ، وما جنيت على أحد . وقال :

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود فالميت للدود والمولود للدود !

الإيمان يلد الأمل :

وفي الجانب الآخر نجد الإيمان والأمل متلازمين ، فالمؤمن أوسع الناس أملاً ، وأكثرهم تفاؤلاً واستبشاراً ، وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضجر ، إذ الإيمان معناه الاعتقاد بقوة عليا تدبر هذا الكون لا يخفى عليها شيء ، ولا تعجز عن شيء ، الاعتقاد بقوة غير محصورة ، ورحمة غير متناهية ، وكرم غير محدود ، الاعتقاد بإله قدير رحيم ، يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، يمنح الجزيل ، ويغفر الذنوب ، ويقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، إله هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وأبر بخلقه من أنفسهم .

إله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء

الليل .

إله يفرح بتوبة عبده أشد من فرحة الضال إذا وجد ، والغائب إذا وفد ،

والظلمآن إذا ورد .

إله يجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف أو يزيد ، ويجزى السيئة

بمثلها أو يعفو .

إله يدعو المعرض عنه من قريب ، ويتلقى المقبل عليه من بعيد ، ويقول : «أنا عند

ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ،

وإن ذكرنى فى ملاذ ذكرته فى ملاخير منهم ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه

ذراعاً وإن تقرب إلى ذراعاً تقر بت إليه باعاً ، وإن أتاني بمشي أتيته هرولة «^(١) .
 لله يداول الأيام بين الناس . فيبدل من بعد الخوف أمناً ، ومن بعد الضعف
 قوة ، ويجعل من كل ضيق فرجاً ، ومن كل هم مخرجاً ، ومع كل عسر يسراً .

* * *

المؤمن الذي يعتصم بهذا الإله البر الرحيم ، العزيز الكريم ، الغفور الودود ،
 ذي العرش المجيد ، الفعال لما يريد - يعيش على أمل لا حد له ، ورجاء لا تنفصم
 عراه . إنه دائماً متفائل ، ينظر إلى الحياة بوجه ضاحك ، ويستقبل أحداثها بثغر
 باسم ، لا بوجه عبوس قطرير .

فهو إذا حارب كان واثقاً بالنصر ، لأنه مع الله فالله معه ، ولأنه لله فالله له ،
 « إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون »^(٢) .

وإذا مرض لم ينقطع أمله في العافية « الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو
 يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين »^(٣) .

وإذا اقترف ذنباً لم ييأس من المغفرة ، ومهما يكن ذنبه عظيماً فإن عفو الله
 أعظم « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله
 يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم »^(٤) .

وهو إذا أعسر لم يزل يؤمل في اليسر « فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر
 يسراً »^(٥) . ولن يغلب عسر يسرين أبداً . قال ابن مسعود : لو دخل العسر حجراً
 لتبعه اليسر .

وهو إذا انتابته كارثة من كوارث الزمن كان على رجاء من الله أن يأجره في
 مصيبتيه ويخلفه خير أمنها . « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون .
 أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »^(٦) .

(١) حديث قدسي رواه البخاري وغيره . (٢) الصافات ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٣) الشعراء ٧٨ - ٨٠ . (٤) الزمر ٥٣ . (٥) الانشراح ٦٠ ، (٦) البقر ١٥٦ ، ١٥٧ .

وهو إذا عادى أو كره ، كان قريباً إلى الصلة والسلام ، راجياً في الصفاء والوثام ، مؤمناً بأن الله يحول القلوب « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة والله قديرٌ والله غفورٌ رحيم » (١) .

وهو إذا رأى الباطل يقوم في غنمة الحق أيقن أن الباطل إلى زوال ، وأن الحق إلى ظهور وانتصار « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ، « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (٢) .

وهو إذا أدركته الشيخوخة ، واشتعل رأسه شيباً ، لم ينفك يرجو حياة أخرى فيها شباب بلا هرم ، وحياة بلا موت ، وسعادة بلا شقاء ، « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً . لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولمهم رزقهم فيها بكرةً وعشيّاً » (٣) .

* * *

إن الماديين يققون عند السنن المعتادة ، والأسباب الظاهرة ، لا يطمعون في شيء وراءها ، أما المؤمنون فيعلون على ظواهر الأسباب ، وينفذون إلى سر الوجود ، إلى الله خالق الأسباب والمسببات ، الذي عنده من الأسباب الباطنة ما يخفى على إدراك عباده ، فلماذا لا تتجه قلوبهم إليه حين تدلهم الأزمات ، وتستحكم الحلقات ، وبضيق على أعناقهم الخناق ؟

إنهم يجدون فيه الملاذ في الشدة . والأنيس في الوحشة ، والنصير في القلة . يتجه إليه المريض الذي استعصى مرضه على الأطباء ، ويدعوه آملاً الشفاء . ويتجه إليه المكروب يسأله الصبر والرضى ، والخلف من كل فائت ، والعوض من كل مفقود .

ويتجه إليه المظلوم آملاً يوماً قريباً ينتصر فيه على ظالمه ، فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب .

ويتجه إليه المحروم من الأولاد سائلاً أن يرزقه ذرية طيبة .
وكل واحد من هؤلاء آمل في أن يحاب إلى ما طلب ، ويحقق له ما ارتجى ،
فما ذلك على قدرة الله ببعيد ، وما ذلك على الله بعزير .

طلب إبراهيم الولد وهو شيخ كبير « رب هب لي من الصالحين » ^(١)
فاستجاب الله له وبعث إليه الملائكة ، في صورة ضيوف من البشر فقالوا له :
« إنا نبشرك بغلام عليم . قال : أبشرونني على أن مسنى الكبر فم تبشرون ؟
قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال : ومن يقنط من رحمة
ربه إلا الضالون ؟ » ^(٢) .

وقد أثنى على ربه فقال : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل
وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء » ^(٣) .

ويعقوب بعد أن طالت غيبة ولده يوسف عنه ، وبعدت مسافة الزمن
بينه وبينه ، وكان جديراً أن يفقد الأمل في لقائه ، ثم فجع بحجز شقيقه من
بعده في حادثة صواع الملك ، لكنه مع هذا لم يتسرب إلى فؤاده اليأس ،
بل قال : « فصرته جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم
الحكيم » ^(٤) .

وحين أبدى أسفه على ابنه يوسف قال له أبناؤه : « تالله تفتأ تذكر
يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ! قال : إنما أشكو بثي
وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » ^(٥) . ثم ألقى إلى أبناؤه بحقيقة
ما في نفسه من أمل حلو تعززه الثقة بالله أن يجمع شمله بأبنائه فقال : « يا بني

(٢) الحجر ٥٣ - ٥٦

(٤) يوسف ٨٣

(١) الصافات ١٠٠

(٣) إبراهيم ٢٩

(٥) يوسف ٨٥ ، ٨٦

أذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون» (١).

وزكريا «إذ نادى ربه نداء خفياً . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيكاً ولم أكن بدعائك رب شقياً . وإني خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً» (٢) فاستجاب له السماء : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً » (٣).

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكري للعابدين » (٤).

ويونس قد ابتلعه الحوت « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجينااه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » (٥).

وموسى حين يسرى بقومه لينجوه بهم من فرعون وجنوده ، فيعلمون بسراه ويحشدون الحشود ليدركوه « فاتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون » (٦) وأى إدراك أكثر من هذا ؟ البحر من أمامهم والعدو من ورائهم !! بيد أن موسى لم يفزع ولم يئأس ، بل قال « كلا إن معى ربي سيهدين » (٧) ولم يضع أمـ له سدى . . . « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفناهم الآخرى وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرى . إن فى ذلك لآية » (٨).

(٣) الأنبياء ٨٣ ، ٨٤

(٢) مريم الآيات ٣ - ١١

(١) يوسف ٨٧

(٦) الشعراء ٦٣ - ٦٧

(٥) الزمر ٦٠ - ٦٢

(٤) الأنبياء ٨٧ ، ٨٨

ومحمد يلجأ إلى غار ثور في هجرته مع صاحبه الصديق ، ويقنئ المشركون آثار قدميه ، ويقول قائلهم : لم يعد محمد هذا الموضع . . . فإما صعد إلى السماء من هنا ، وإما هبط إلى الأرض من هنا . . . ويشهد خوف الصديق على صاحب الدعوة وخاتم النبيين ويبيـحـى ويقول : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول له النبي : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، وكانت للعاقبة ما ذكره القرآن « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » (١) .

وهذه وقائع عرفها التاريخ الذى لا شك فيه ، وربما أنكر الماديون بعضها . أو كلها ، لأنها تخرج على الأسباب المعتادة للناس ، غير أن المؤمنين يوقنون أن الأسباب المعتادة لاتحد قدرة الله المطلقة . وإيس ثباتها واجبا عقليا لا يقبل الانفكاك ، ولو جحد العلماء والمخترعون على ما اعتاده الناس ، وما تعارفوا عليه فى عصرهم ، ما تقدم العلم شبرا ولا فترا ، وما وصلنا إلى عصر الذرة والفضاء .

ضرورة الامل فى الحياة :

الامل لابد منه لتقدم العلوم ، فلو وقف عباقرة العلم والاختراع عند مقررات ذمهم ولم ينظروا إلا إلى مواضع أقدامهم ، ولم يمدحهم الأمل بروحه فى كشف المجهول ، واكتساب الجديد من الحقائق والمعارف ، ما خطا العلم خطواته الرائعة إلى الأمام ووصل بالإنسان إلى القمر .

والامل لابد منه لنجاح الرسالات والنهضات ، وإذا فقد المصلح أمله فقد دخل

المعركة بلا سلاح يقاتل به ، بل بلا يد تمسك بالسلاح ، فأنى يرتقب له انتصار وفلاح ؟ . . .

وإذا استصحب الأمل فإن الصعب سيمهون ، والبعيد سيدنو والأيام تقرب البعيد ، والزمن جزء من العلاج .

والمثل الأعلى للمصلحين سيدنا رسول الله صلوات الله عليه :

ظل في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو قومه إلى الإسلام ، فيلقون دعوته بالاستهزاء ، وقرآنه بالغرف فيه ، وحججه بالأكاذيب ، وآياته بالتعنت والعناد ، وأصحابه بالأذى والعذاب ، فما لانت له قناة ، ولا انطفأ في صدره أمل .

اشتد أذى المشركين لأصحابه ، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، وقال لهم في ثقة و يقين : « تفرقوا في الأرض وإن الله سيجمعكم » .

وجاء أحد أصحابه « خباب بن الارت » وكانت مولاه تكوى ظهره بالحديد المحمى فضاق بهذا العذاب المتكرر ذرعاً ، وقال للرسول في ألم : ألا تدعو لنا ؟ كأنه يستبطن سير الزمن ويستحث خطاه ويريد حسم الموقف بين الإيمان والشرك بدعوة محمدية تهتز لها قوائم العرش ، فينزل الله بأمره بالقوم المجرمين كما أنزله بعاد وثمود والذين من بعدهم .

وغضب للنبي ﷺ لهذه العجالة من صاحبه : وألقى عليه درساً في الصبر على بأساء اليوم ، والأمل في نصر الغد ، فقال : « إن الرجل قبلكم كان يمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ، وينشر بالمنشار فرقتين ما يعصره ذلك عن دينه . والذي نفسي بيده ليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون !! » .

وفي الهجرة من مكة ، والنبي خارج من بلده خروج المطارد المضطهد الذى يغير الطريق ، ويأوى إلى الغار ، ويسير بالليل ، ويختفى بالنهار . . . وفي الطريق يلحقه الفارس المغامر سراقه بن مالك وفي رأسه أحلام سعيدة بمائة ناقة من حمر النعم — جائزة قريش لمن يأنى برأس محمد حياً أو ميتاً — ولكن قوائم جواده تسوخ فى الأرض ويدركه الوهن ، وينظر إليه الرسول ، ويكشف الله له عن الغيب المستور لديه فيقول له : ياسراقه كيف بك إذا ألبسك الله سوارى كسرى؟ فيعجب الرجل ويبهت ويقول كسرى بن هرمز ؟ فيقول : « نعم » .

ويذهب الرسول إلى المدينة ، ويبدأ فى كفاح دام مرير مع طواغيت الشرك ، وأعوان الضلال ، وتسير الحرب — كما هى سنة الله — سجالاً ، حتى تأتى غزوة الأحزاب فيتألب الشرك الوثنى بكل عناصره ، والغدر اليهودى بكل تاريخه ، ويشدد الأمر على النبى وأصحابه : قريش وغطفان ومن يحطب فى جبلهما من خارج المدينة ، واليهود والمنافقون من الداخل . موقف عصيب صوره القرآن بقوله : إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ^(١) فى هذه الساعات الرهيبة التى يذوى فيها عود الأمل ، ويخبو شعاع الرجاء ، ولا يفسكر المرء إلا فى الخلاص والنجاة . . . فى هذه اللحظات والنبى يسهم مع أصحابه فى حفر الخندق حول المدينة يصدون بحفره الغزاة ، وبوقون الطامعين العتاة — يحدث النبى أصحابه عن الغد المأمول ، والمستقبل المرجو حين يفتح الله عليهم بلاد كسرى بفارس ، وبلاد قيصر بالشام ، وبلاد اليمن بالجزيرة ، حديث الواثق المطمئن الذى أثار أرباب النفاق فقالوا فى ضيق وحنق : إن محمداً يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب

إلى الخلاء وحده ! أو كما قال القرآن : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » ^(١) .

ماذا تسمى هذا الشعاع الذى يبرز فى دياجير الأحداث من القلوب الكبيرة،
فينير الطريق ويبدد الظلام ؟ إنه الأمل ، وإن شئت فهو الإيمان بنصر الله
« ينصرُ مَنْ يشاء وهو العزيز الرحيم . وَعَدَ اللهُ لا يخلف الله وعده ولكن
أكثر الناس لا يعلمون » ^(٢) .

الإيمان والحب

« والذي نفسى بيده لن تدخلوا الجنة »

« حتى تؤمنوا وان تؤمنوا حتى تحابوا »

حديث شريف رواه مسلم

الحب معنى أخص من الرضى ، وأعمق أثراً ، فقد يرضى الإنسان بالشئ أو يرضى عن الشخص ، ولا يقضى ذلك إلى حبه وتعلق القلب به . فإن ذلك شأن الحب لا شأن الرضى .

الحب هو روح الوجود ، وإكسير القلوب ، وصمام الأمان لبني الإنسان .
إذا كان قانون الجاذبية يمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم
فتتساقط أو تحترق وتزول ، فمماون الحب هو الذى يمسك العلاقات الإنسانية أن
تتصادم فتحترق ، وتستحيل إلى دماء .

هذا هو الحب الذى عرف الناس قيمته فى القديم والحديث . وقالوا : لوساد
الحب ما احتاج الناس إلى العدل ولا إلى القانون .
وقديماً قال صوفى شاعر كبير^(١) :

« إن الحب يحول المرّ حلواً ، والتراب تبراً ، والكدر صفاء ، والألم شفاء ،
والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والفقر رحمة ، وهو لدى يلين الحديد ، ويذيب
الحجر ، ويبعث الميت ، ويغنى فيه الحياة ... » .

« إن هذا الحب هو الجناح الذى يطير به الإنسان المادى الثقيل فى الأجواء ،
ويصل من السمك إلى السماء ، ومن الثرى إلى الثريا ... »

(١) هو الصوفى الكبير جلال الدين الرومى ، وهذه الفقرات من شعره الصوفى الوجدانى
وقد نقل هذه الفقرات السيد أبو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام »
ص ٢٨٨ وما بعدها .

« بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم !! لا ننازعهم في شيء . أما نحن فأسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول ... ! »

« حياك الله أيها الحب المضي ! يا طيب علكتى وسقى ! يا دواء تخوفى وكبرى ! يا طبيى النطاسى ! يا مداوى الآسى !! » .

وحديثاً كتب صحفى أديب يعنى الجوانب النفسية^(١) يقول :

ولمحت عن بعد أضواء تلمع وسط البحر كالنجم الهائىء ، وتمنيت لو كان لى فى المستقبل مثل هذا النجم ... ومن منا لا يتمنى أن يكون له فى مستقبله نجم هاد ... ؟ نجم هاد فيمابقى من أيام ... ماذا يكون ؟

الحكمة ... وماذا تعطينا غير المنطق الجاف ؟

الحذر ... وماذا يعطينا غير الخوف الدائم ؟

العمل ... وماذا يعطينا غير العرق المتصبب والحقد المتأجج ؟

المال ... وماذا يعطينا غير الخوف والحذر والعرق والعقد ؟

الحب ... إنه الجوهر الوحيد الذى يعطينا الأمان والاستقرار والسلام .
نحب كل شيء ... كل إنسان ... نحب حتى الكارثة كما نحب النعمة ...
الأولى لتوقظ القوة على المقاومة فتوهج النفس كأنها تتحفز ... والثانية نسيم يلفظ
حر المعركة ، نحب الوجود كله بدايته ونهايته ، الموت فيه والحياة !
هل يستطيع أحد أن يحب هذا الحب ؟ لو فعل لكان ملاكاً ... »

* * *

ونحن نجيب على هذا السؤال فنقول : إن الذى يستطيع أن يحب هذا الحب

(١) هو الأستاذ محمد زكى عبد القادر فى إحدى يومياته بجريدة « الأخبار » القاهرية .

الكبير صنف واحد من بني الإنسان ، إنه الصنف الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان .

الإيمان وحده هو ينبوع الحب المصطفى الخالد ، والمؤمن وحده هو الذي يستطيع أن يحب كل شيء حتى الكارثة ، يحب الوجود كله بدايته ونهايته ، الموت فيه والحياة^(١) .

حب الله :

المؤمن بعتيدة الإسلام نفذ إلى سر الوجود فأحب الله وأحب الحياة ، ومصدر الخلق والأمر ، والإيجاد والإمداد .

أحبه حب الإنسان للجمال ، فقد رأى في كونه أثر الإبداع والإحكام « ما ترى

(١) وقد أشاع المبشرون والمستشرقون أن المسيحية وحدها دين المحبة ولا مجال فيها للبض أو عنف ، وأن الإسلام دين الجهاد والسيوف ، ولا مجال فيه لتسامح أو حب . وهذا جهل مركب ، أو تضليل مفضوح ، ففي نصوص المسيحية نجد المسيح يقول في الإنجيل « ما جئت لألقي على الأرض سلاماً ، بل سيفاً ، فاني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها ، والسكنة (زوجة الابن) ضد حماتها ، وأهداه الإنسان أهل بنيه » (متى : ٢٤ - ٣٦) .

وفي تاريخ المسيحية في المصور الوسطى نجد ما أكثر البيانات شتى للحروب ولإراقة الدماء ، ولإحداثاً للمجازر البشرية الرهيبة ليس بينها وبين مخالفتها فحسب ، بل بين طوائفها بعضها وبعض . والمسيح عليه السلام يرى من هذه المذابح الوحشية ، والمسئول عنها إنما هي الكنيسة التي أعطت نفسها حق التحليل والتحرير ، والتشريع في الدين بما لم يأذن به الله ، وبيع صكوك النفران وأرض الجنة بالدرهم والدنار . إن خرافات الكنيسة ومصالحها وأهواء رجالها الذين ساندوا الظلم والاستغلال والفساد هي المسئولة عن هذه الحروب والدماء .

ومها يكن الأمر فإن الإسلام المظلوم هو أعظم الفوائد دعوة إلى الحب ، وتوكيداً لمعانيه ، وتفهيراً لينايعه ، واقواها حرباً للعبادة والبغضاء والجسد والحق ، وتضييقاً لمسالكها ، وإغلاقاً للنوافذ التي تهب منها رياحها السوم .

واقعد قال أحد وجهاء النصاري المنصفين في طرابلس الشام للسيد رشيد رضا رحمه الله : إن في الإسلام فضائل كالأجيال أو أشمخ وأرسخ ولا يكتم دفتموها ، حتى لا تكاد تعرف أو ترى ، ونحن عندنا شيء قليل ضئيل ، ككلمة « حب الله والقريب » فما زلنا نمطه ونمده ، ونقول : « الفضائل المسيحية » حتى ملأ الدنيا كلها !

وهي شهادة من مسيحي معتدل لا تحتاج إلى تعليق .

في خلق الرحمن من تفاوت»^(١) «صنع الله الذي أتقن كل شيء»^(٢) «الذي أحسن كل شيء خلقه»^(٣)

وأحبه حب الإنسان للكمال ، وهل هناك - في الحقيقة - إلا كماله سبحانه ؟
وكل ما نرى من مظاهر الكمال النسبي إن هي إلا ذرات مستمدة منه ،
ومفتقرة إليه .

وأحبه حب الإنسان للإحسان ، فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها .
وأى إحسان كإحسان من خلقه من عدم ، وجعله بشراً سوياً ، واستخلفه في
الأرض ، وسخر له الكون جميعاً منه « هو الذي خلق لكم ما في الأرض
جميعاً »^(٤) « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض
وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »^(٥) .

أحب لهذا كله ولأكثر منه ، حباً يفوق حب الإنسان لأبويه ، بل لولده
بل لنفسه ، وأحب كل ما يحيى من قبله وكل ما يحبه سبحانه ، أحب الكتاب
الذي أنزله ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وأحب النبي الذي أرسله
رحمة للعالمين ، وأحب كل إنسان من أهل الخير والصلاح الذين يحبهم ويحبونه ،
وجعل دعاءه ما كان يدعو به محمد رسول الله : « اللهم ارزقني حبك وحب من
يحبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد » .

حب الطبيعة :

والمؤمن في ظل الإسلام كما أحب الله أحب الطبيعة والوجود كله ، إنها
أثر من آثار ربه « الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى »^(٦) كل شيء
فيها بحساب وانغاية وحكمة . « إننا كل شيء خلقناه بقدر »^(٧) « الشمس

(٣) سورة السجدة : ٧

(٢) سورة الزمل : ٨٨

(١) سورة الملك : ٣

(٥) لقمان : ٢٠

(٤) البقرة : ٢٩

(٧) القمر : ٤٩

(٦) الأعلى : ٢ و ٣

والقمر مجسبان» (١) « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» (٢).

الطبيعة ليست عدوًّا للإنسان واسكنها مخلوق مخر لخدمته ، ليساعده على القيام بمهمة الخلافة في الأرض ، وكل ما في الكون السنة صدق تمجد الله وتسبحه بلغة قد لا تفهمها العقول البشرية المحدودة « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون قسيعهم» (٣).

فالعالم ليس شرًّا يجب التعجيل بفنائه كما صورته الفلسفة المانوية وشبهها ، وإنما هو كتاب الله المفتوح للقارئ والأميين جميعاً ، تتلى فيه آيات قدرته ورحمته ، وعظمته ونعمته .

هذا العالم علويه وسفليه ليس إلا صنع الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، الذي أفرغ على هذا الكون وحدة جعلته في أرضه وسمائه ، وحيوانه ونباته كأجزاء الجسد الواحد تعاوناً واتساقاً وائتلافاً « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» (٤).

ليس في الكون شيء خالق جزافاً أو عبثاً . كل شيء فيه قد هيء ليؤدي دوره فيما أراد الله من عمارة الأرض ، واستمرار الحياة إلى أجلها ، وخدمة هذا النوع المكرم من الخليقة (الإنسان) .

كان بعض البشر ينظرون إلى الظلام نظرة الخوف والكراهية ، ويتمثل للظلام مظهرًا لإله الشر الذي يحارب إله النور والخير ، فإذا يكون شعور هؤلاء إذا لفهم الليل بردائه الأسود ، ونصف الزمن ليل كما نعلم ؟

(٢) سورة الحجر ٢١

(٤) « يس ٤٠

(١) سورة الرحمن : ٥

(٣) « الاسراء : ٤٤

لقد أزاحت عقيدة الإسلام هذا الكابوس العقلي والنفسى وقررت أن توزع
الزمن بين ليل ونهار ، وظلمة ونور ، آية من آيات الله في تنظيمه للعالم ، ونعمة
من نعم الله على خلقه ، يجب أن يشكروه عليها لا أن يخافوا منها ، « قل أرأيتم إن
جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بضياء ؟
أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من
إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم
الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (١) .

حب الطبيعة الحق يتمثل في المؤمنين الذين يرون وجه الله في هذه الطبيعة ،
ويرون فيها قرآنه الصامت الدال على ألوهيته « إن في خلق السموات والأرض
واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولى الأبصار . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً
وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا
باطلاً سبحانه » (٢) .

ويتمثل هذا الحب بأجلى صوره في رسول الإسلام الذي أعلن هذا الحب
حتى للجبال ، بل لجبل كان يمكن أن يتطير به ، ويتشام من رؤيته ، لما أصابه
من هزيمة بجواره ، ذلك هو « جبل أحد » .

روى البخارى عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال : خرجت مع
النبي ﷺ إلى خير أخدمه ، فلما قدم النبي ﷺ راجعاً وبدا له أحد قال :
« هذا جبل يحبنا ونحبه »

حب الحياة :

وكما أحب المسلم الطبيعة أحب الحياة ، ولم يعتبرها ذنباً جنى به عليه أبواه ،

(١) القصص : ٧١ - ٧٣

(٢) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١

ولا عبثاً يجب أن باقى ، ولا سجننا يجب أن يهرب منه ، إنما هى رسالة تؤدى
ونعمة تشكر .

وفى الحديث النبوى . « خير الناس من طال عمره وحسن عمله ^(١) » « لا يتمنى
أحدكم الموت ولا يدعو به من قبل أن يأتيه ، وأنه إذا مات انقطع عمله ، وأنه
لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً ^(٢) » « لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد ،
وإما مسيئاً فلعله يستعذب ^(٣) » .

فالحياة خير على كل حال ، فإن قدمت به الذنبة فليقل . « اللهم أحينى
ما علمت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى ^(٤) » .
حب الموت :

والمؤمن لا يحب الحياة حب المريض على متاعها الأدنى ، المتهافت على
لذائها ، حباً يخيفه من الموت ، ويأصته بتراب الأرض ، بل أحب المؤمن
الحياة لأنه يقوم فيها بحق الله فى الأرض ، وأحب الموت لأنه يجعل به إلى لقاء
ربه . وفى الحديث : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ^(٥) » .

حينما خير الرسول بين لقاء ربه والبقاء فى الدنيا قال : « أختر الرفيق
الأعلى » ! وحينما أصاب على بن أبى طالب رضى الله عنه ضربة عبد الرحمن بن
ملاجم قل : فزت ورب الكعبة ! وحينما حضرت بلالا الوفاة صرخت امرأته :
واكرباه ! فقال لها : بل واطرباه !! غداً أتى الأعبة محمداً وصحبه !

وحينما أخذ المشركون فى مكة خبيب بن زيد ليصابوه كان نشيده الذى
يترنم به على خشبة الصاب :

(١) رواه أحمد والترمذى وحسنه (٢) رواه مسلم (٣) رواه أحمد والبخارى
(٤) رواه النسائى والحاكم (٥) متفق عليه .

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وأن يشأ يبارك على أوصال شلّو ممزّع
وكان سيف الله خالد بن الوليد حينما يرسل إلى قائد من قواد الفرس أو
الروم يختم رسالته بعد الدعوة إلى السلام والإسلام بقوله : وإلا . . .
رميتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . . !!

حب الناس :

وأحب المؤمن الناس جميعاً ، لأنهم إخوته فى الآدمية ، وشركاؤه فى
المبودية لله ، جمع بينه وبينهم رحم ونسب ، كما جمع بينهم هدف مشترك
وعدو مشترك ...

أما الرحم العامة الواشجة فقد قال فيها الله : « يأيتها الناس اتقوا ربكم
الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً
ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » وما أحق كلمة « الأرحام »
هنا أن يراد بها الأرحام الإنسانية التى تصل بين الناس جميعاً ، بدليل فاتحة الآية .
وأما الهدف المشترك والعدو المشترك . . . فقال فيهما : « يأيتها الناس
إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الفرور . إن الشيطان
لكم عدو فآخذوه عدواً » فالحياة الآخرة الباقية والخلود فى نعيمها هو الهدف
الإنسانى المشترك ، والشيطان المعوق عنها هو العدو المشترك .

وعقيدة المسلم لا تسمح بنزعات عنصريه ، ونعرات جنسية ، فالمسلم
يعتقد أن الناس جميعاً لآدم وآدم من تراب ، وأن اختلاف اللغات والألوان
ليس إلا دليلاً على قدرة الله ، وعلى عظمة الصانع وآية من آياته فى خلقه
« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى
ذلك لآيات للعالمين » (١)

فشعور المسلم بإخوته لبني الإنسان جميعاً ليس أمراً ثانوياً عنده ، ولا نافلة في دينه ، انما هو عقيدة يدين الله بها ويلقاه يوم القيامة ويرطب بها لسانه ذكر الله يرجو به عند الله القربة . روى الإمام أحمد وأبو داود عن زيد بن أرقم قال : « كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة : اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك . اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك . اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة »

أرأيت كيف تسمو الأخوة البشرية في ضمير المسلم ؟ إنها في المرتبة التالية لتوحيد الله ، والإقرار برسالة محمد عليه السلام .

وكيف يتصور أن يحقر المسلم جنساً من أجناس البشرية . إن صح أن في البشر أجناساً .. وقرآنه الكريم يعلمه أن يحترم أجناس المخلوقات كلها ويعرف لها كياناتها من الدواب والحشرات والطيور « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء » ثم إلى ربهم يحشرون^(١) .

ويقول النبي : « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها » ..

هذا هو شعور المؤمن بالإسلام نحو الناس ، ليس شعور الاستعلاء العنصري ولا التعصب الإقليمي ، ولا الحقد الطبقي ، ولا الحسد الشخصي ، وإنما هو شعور الحب والإخاء للنامن كانه .

المؤمن سليم الصدر لا يحسد ولا يحقد :

وإن أدنى ثمرات المحبة التي يفرسها الإيمان في قلب المؤمن هي سلامته من الغل

والحسد ، فإن أنوار الإيمان كغفلة أن تبدد دياجير الحسد من قلبه ، وبذلك يمسى
ويصبح سليم الصدر ، نقي الفؤاد ، يدعو بما دعا به الصالحون « ربنا اغفر لنا
ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك
رؤوف رحيم »^(١).

للمؤمن لا يحسد : لأن الحسد — كما سماه رسول الله — « داء » من أدواء
الأمم ، داء نفسى يصنع بالروح ما تصنع الأوبئة بالاجسام ، فهو غم على صاحبه ،
ونسكد دائم له ، وغيظ لقلبه لا ينتهى أمدّه ، بل هو داء جسدى أيضا : ينهك
القوى ، ويؤذى البدن ، ويغير الوجه ، وقد قال حكيم :

لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله !!

وقال شاعر :

اصبر على كيد الحسو د فإن صبرك قاتله
النار تأكل نفسها إن لم تجد مائتاً كله

والمؤمن لا يحسد ، لأنه يحب الخير لعباد الله جميعاً ، وهو لا يعارض ربه فى
رعاية خلقه أو تقسيم رزقه « إن ربك ييسط الرزقَ لم يشاء ويقدر إنه كان
عباده خبيراً بصيراً »^(٢).

إنه مؤمن بعدل ربه فيما قسم من حظوظ ، وما وزع من مواهب ، ويعتقد
أن قضاءه تعالى فى خلقه صادر عن حكمة بالغة يعرف منها ويجهل ، وقد قيل :
« الحاسد جاحد ؛ لأنه لم يرض بقضاء الواحد » . « أم يحسدون الناس على
ما أتاهم الله من فضله »^(٣).

ومن هنا نرى المؤمن لا يفرح بالمصيبة تنزل بغيره ، ولا يحزن للنعمة يسوقها

الله إلى عبد من عباده ، بل يقول ما علمه النبي الكريم « اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر » .
والمؤمن لا يحسد ، لأن همته منوطة بما هو أرفع وأبقى من الدنيا التي يتنافس عليها الناس ، ويتحاسدون ، وإنما يوجه همته إلى معالي الأمور ، إلى المعاني الباقية : إلى الآخرة والجنة .

روى البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« لا حسد الا في اثنتين رجل اتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » . « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » ^(١)
« سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة » ^(٢) .

قل الحسن البصرى : يا ابن آدم : لم تحسد أخاك ؟ فإن كان الذى أعطاه الله سكرامته عليه فلماذا تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ ، وقال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا...
إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهى حقيرة فى جنب الجنة ؟
وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على الدنيا وهو يصير إلى النار ؟ .

والمؤمن لا يحقد ، لأنه عفو كريم ، يكظم غيظه وهو يستطيع أن يرضيه ، ويعفو وهو قادر على الانتقام ، ويتسامح وهو صاحب الحق ، لا يشغل نفسه بالخصام والعداوات ، فالمر لا يتسع لمثل هذا العدا ، والدنيا لا تستحق عنده هذا العناء . فكيف يسلم قلبه للعداوة والأحقاد فتنهشها أفاعيها السامة ؟ وكيف يبيت وفى قلبه لأخيه شجناء العدا فيبيت بعيداً عن رحمة الله ؟ فى الحديث :
« تعرض الأعمال كل يوم اثنين وخميس ، فيغفر الله عز وجل فى ذلك اليوم

لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً ، إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء ،
فيقول : أتركوا هذين حتى يصطلحا » ، رواه مسلم .

والمؤمن لا يحسد ولا يبغض ، لأن الحسد والبغضاء من بذور الشيطان ،
والحبة والصفاء من غرس الرحمن « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة
والبغضاء » ^(١) « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة » ^(٢)
« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً » ^(٣) .

هذا — وسلامة القلب من الضغن والحسد أول ما يتصف به المؤمن ، بل
أدنى ما يتصف به . ولا يكمل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ،
ويكره له ما يكره لنفسه .

فإن من هذه المعاني الرفيعة ما تنادى به اليوم دحوات هدامة . كل همها
زرع الأحقاد ، وبث البغضاء والكراهية والعداوة بين الطوائف والطبقات ،
حتى يعيش الناس في تنازع وصراع دائم ، يتسللون من ورائه إلى الحكم
والسلطان ؟ ! !

الآثار من خصائص المؤمنين :

وأعلى درجات الحب أن يؤثر الإنسان أخاه على نفسه فيجود له بالشيء
وهو محتاج إليه ، يجوع ليشبع أخوه ، ويكذب ليرتاح ، ويسهر لينام .

وهذا المعنى مقطوع من جذوره في ميثاق الملحدين والماديين ، فإن المؤمنين
يؤثرون ابتغاء وجه الله ومرضاته ومحبته ، وأما أولئك فلو جه من يؤثرون ؟
وعلام يؤثرون ؟

ولم تر الدنيا حباً كريماً أصيلاً يعلو على الشهوة والمنفعة كالحب الذي أرسى
الإسلام ركائزه بين المسلمين في مجتمع المدنية .

(٣) سورة مريم : ٩٦

(٢) سورة المتحة : ٧

(١) سورة المائدة : ٩١

ها هم المهاجرون يخرجون من ديارهم وأموالهم يتتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، فيستقبلهم إخوانهم الأنصار من أهل المدينة بصدور رحبة ويتهاقون عليهم نهافت الظمآن على الشراب البارد العذب ، ويتنافسون عليهم ، كل منهم يريد أن يحظى بواحد منهم في داره ، فلا يرضيهم إلا القرعة ، ثم يؤاخي الرسول بينهم مؤاخاة قامت مقام أخوة النسب والدم ، وذابت الفروق الإقليمية والنسبية ، فلا قحطانيون وعدنانيون ، ولا شماليون وجنوبيون ، ولا يمنيون وحجازيون ، ولا أوسيون وخزرجيون ، كما انمحت الفوارق الطبقيّة والمهنية ، فلا أغنياء وفقراء ، ولا تجار وزراة ، إنما هي الأخوة الصادقة ، إنما هو الحب والإخلاص والإيثار (وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) (١) .

قال عبد الرحمن بن عوف المهاجري القرشي : لما قدمنا المدينة آخى رسول الله بيني وبين سعد بن الربيع — الأنصاري الخزرجي — فقال سعد لي : « إني من أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم لك نصف مالي ، وانظر أي زوجتي هويت نزلت ملك عنها ، فإذا حلّت زوجتها » وقابل عبد الرحمن هذا الإيثار الكريم من سعد بمغاف كريم منه فقال : « بارك الله لك في أهلك ومالك ... دلوني على السوق » .

وقد سجل الله في كتابه الثناء الخالد لموقف الأنصار فقال : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (٢) .

يقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه « الدين » .

« إن الخدمة الجليلة التي تؤديها الأديان للجماعة ، لا تقف عند تهذيب السلوك ، وتصحيح المعاملة وتطبيق قواعد العدل ، ومقاومة الفوضى والفساد

فحسب ، بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثراً في كيان الجماعة . ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم ، لا يعده رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الحوار أو المصالح المشتركة . بل إن هذه العلائق مجتمعة مهما يكن أثرها الظاهري من كف الأذى ، وبذل المعروف للتبادل ، تظل روابط سطحية تضم الأفراد ، كما تضم الأعواد في ضفث ، ولا تزال تتخللها الفجوات والثغرات والحواجز النفسية ، حتى تشدها رابطة الأخوة في العقيدة والمشاركة في المثل العليا ، فهناك تعود الكثرة وحدة ، وتصبح النفوس كالمرايا المتقابلة ، تنعكس صور بعضها في بعض ، بل كثيراً ما تستغنى هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الأخرى ، فتعتقد بها أقوى الوشائج وأدومها ، بين أفراد اختلفت أجناسهم ، وتباينت لهجاتهم ، وتباعدت ديارهم ، وتفاوتت مصالحهم ، وكثيراً ما نرى في الدول التي تقوم على قاعدة المصالح المشتركة في الوطن بين ملل مختلفة تضطر إلى الاستنجداد بما في هذه الأديان كلها من مبدأ التعاون على الخير والتناصر على دفع عدوان المغيرين — ولذلك قيل بحق . « إن الوطنية التي لا تعتمد على باعثة من الخلق والدين إنما هي حصن متداع يوشك أن ينهار . وقد ثبت بهذا كله أن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد » ١ هـ .

عاطفة الكره والى اين وجهها الاسلام ؟ :

ولكن مما لا ريب فيه أن في كل إنسان عاطفة أخرى غير الحب . عاطفة البغض والخوف والمقت ، وهي التي تفيض بالحق والشر والحرب والدم ! فكيف ردم الدين هذا المستنقع السكريه أو إلى أى مصب وجهه ؟

قال الأستاذ « جود » الانجليزى رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس في إحدى كليات لندن :

« إن العواطف التي هي مشتركة والتي يمكن إثارتها بسهولة هي عواطف

المقت والخوف التي تحرك جماعات كبيرة من الدهاء بدل الرخمة والجود والكرم والحب، فالذين يريدون أن يحكموا على الشعب لغاية ما لا ينجحون حتى يلمسوا له ما يكرهه، ويوجدوا له ما يخافه، وإذا أردت أن أوجد الشعوب ينبغى لى أن أخترع لهم عدواً على كوكب آخر - على القمر مثلاً - تخافه هذه الشعوب، فلم يعد من دواعى العجب أن الحكومات القومية فى هذا العصر فى معاملتها لجيرانها إنما تقادبعوا طام المقت والخوف فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها، وعلى تلك العواطف يقوى الإنماء القومى .

وقد عقب الداعية الإسلامى الكبير السيد أبو الحسن الندوى على ذلك فقال : (١) :

إن هذا الحل الذى قدمه الأستاذ جود لمشكلة الأمم ، ومعضلة الحروب ، والمنافسات الشعبوية، حل عادل ، وتوجيه معقول ، فلا تنصرف عداوة الشعوب والأمم بعضها لبعض حتى يكون لها عدو من غيرها تشترك فى عداوته وكرهه ، والخافه منه، وتتعاون فى الحرب ضده، ولكن هذا لا يحتاج إلى اختراع وإبداع، ولا يلزم أن يوجد لها عدو على كوكب آخر كالقمر والمريخ ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ، فالدين ينبه إلى أن هذا العدو للنوع الإنسانى ولذرية آدم يوجد على الأرض نفسها وعلى كل إنسان أن يعاديه ويحترس منه ، ويتعاون مع بنى نوعه فى معاداته ومحاربتة . يقول القرآن : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ^(٢) » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ^(٣) » .

(١) ١٦٧ من كتاب ماذا خسر العالم بالمخطاط المسلمين .

(٢) البقرة : ٢٠٨

(٣) سورة فاطر: ٦٠

وقد قسم الإسلام العالم البشري إلى قسمين فقط ، أولياء الله وأولياء الشيطان ، أنصار الحق وأنصار الباطل ، ولم يشرع حرباً ولا جهاداً إلا ضد أنصار الباطل وأولياء الشيطان أبنا كانوا ومن كانوا فقال : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » (١) ٥١ .

وهكذا ضاقت دائرة البغض ، وانكششت عاطفة الكره عند المؤمن ، فلم يعد يبغض لمنفعة شخصية ، ولم يعد يبغض لعصية قبلية أو قومية أو إقليمية ، أو طبقية ، ولم يعد يبغض لحقد أو حسد ، وإنما انحصر بغضه في مجال واحد هو البغض في الله ، أى من أجل الحق وحده ، وفي ذلك يقول الحديث النبوى : « من أحب الله ، وأبغض الله ، أعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان » .

التسامح جزء من العقيدة :

ومع انحصار دائرة الكره في أهل الباطل والإثم والعدوان ، فإن كراهية المؤمن لهم ممزوجة بالألم من أجلهم ، والإشفاق عليهم ، وتمنى الخير لهم ، والدعاء لهم بالتوفيق والهداية « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » « لعلك باخع نفسك (أى قاتلها) ألا يكونوا مؤمنين » (٢) .

وهناك أمران في عقيدة المسلم يجعلانه مع استمساكه بدينه ، وثباته على إيمانه — أشد الناس تسامحاً مع المخالفين له ، والكافرين بدعوته :

أولهما : أن المسلم يعتقد جازماً أن من مقتضيات الإرادة الإلهية التى لا تخلو عن الحكمة اختلاف الناس في الدين والإيمان « ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً

واحدة ، ولا يزالون مختلفين » ^(١) « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » ^(٢) .

وإذا كانت مشيئة الله نافذة — ومشيئته تعالى مرتبطة بحكمته — فكيف يقاوم المؤمن مشيئة الله ، أو ينكر حكمة الله ؟

وثانيهما : أن الله قد أمر نبيه المصطفى أن يتجنب اللجاجة في الجدل مع المخالفين ، وأن يكل أمرهم إلى الله ، ويعلنهم أن يوم الفصل بين المختلفين إنما هو يوم القيامة ، فلا داعي للجدال الذي يثير الفتن ، والمراء الذي يوغر الصدور . قال تعالى لرسوله : « وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » ^(٣) ويقول : « فذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، وإليه المصير » ^(٤) « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » ^(٥) .

ذلك هو المؤمن بمقيدة الإسلام : أحب الوجود كله ، أحب الله والطبيعة أحب الحياة والموت ، أحب القدر حلوه ومره ، أحب الناس جميعاً ، وإذا كره ولا بد فإنما يكره الشيطان ، ويكره حزب الشيطان ، كرهاً مقروناً بالرحمة والإشفاق وحب الخير ، للناس جميعاً .

إن هذا الحب هو دليل إيمانه بربه ، وقائده إلى جنته ، وصدق رسول الله «والذي نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، وإن تؤمنوا حتى تحابوا» .

(٢) سورة يونس : ٩٩

(٤) الشورى : ١٥

(١) هود : ١١٨

(٣) سورة الحج : ٦٨ ، ٦٩

(٥) الزمر : ٤٦

الشباب في الشدائد

« عجباً لأمر المؤمن ، ان أمره كله له خير —
وليس ذلك لاحد الا للمؤمن — ان أصابته سراء
شكر . فكان خيراً له ، وان أصابته ضراء صبر
فكان خيراً له . »

حديث شريف رواه مسلم

الأمل والأمن ، والرضى والحب ، والسكينة النفسية ، ثمار شبيهة لفراس
العقيدة في نفس المؤمن ، وذخائر لا تنفد لإمداده في معركة الحياة ، وإلّا لم تكن
طويلة الأمد ، كثيرة التكاليف ، محفوفة بالأخطار والمشقات .

ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا ، وطبيعة البشر فيها ، تجعلان من المستحيل أن
يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه ، وشدائد تحل بساحته ، فكم يحقق له
عمل . أو يخيب له أمل . أو يموت له حبيب . أو يمرض له بدن . أو يفقد منه
مال . أو . . . أو . . . إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة . . . حتى قال الشاعر
يصف الدنيا :

جبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الآلام والأكدار !
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نثار

وإذا كان هذا سنة الله في الحياة عامة . وفي الناس كافة ، فإن أصحاب
الرسالات خاصة أشد تعرضاً لنكبات الدنيا وويلاتها . إنهم يدعون إلى الله
فيحاربهم دعاة الطاغوت . وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل . ويهدون إلى
الخير فيماتهم أنصار الشر . ويأمرون بالعروف فيخاصمهم أهل المنكر . . .
وبهذا يحبون في دوامة من الحن . وسلسلة من المؤامرات والفتن . سنة الله

الذى خلق آدم وإبليس . وإبراهيم ونمروذ . وموسى وفرعون . ومحمداً وأبا جهل « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » (١) « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين » (٢) .

هذا شأن الأنبياء . وشأن ورثتهم . والسائرين على دربهم . والداعين بدعوتهم . مع الطغاة الصادين عن سبيل الله « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (٣) .

سئل الرسول صلى الله عليه وسلم : أى الناس أشد بلاء ؟ فقال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وأن كان فى دينه رقة ابتلاه الله حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يبدى على الأرض ما عليه خفية » (٤) .

الملحدون أشد الناس جزعاً :

وقد أثبت الاستقراء والملاحظة أن أشد الناس جزعاً ، وأسرعهم انهياراً أمام شدائد الحياة هم الملحدون والمرتابون وضعاف الإيمان ، وقد وصف القرآن هذا النموذج من الناس فقال : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤرس كفوراً » (٥) ، « وإن مسه الشر فيؤوس قنوطاً » (٦) ، « وإذا مسه الشر كان يئوساً » (٧) ، « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » (٨) .

(١) سورة الأنعام ١١٢ (٢) سورة الفرقان ٣١ (٣) سورة البروج ٨

(٤) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

(٥) سورة هود ٩ (٦) سورة فصلت ٤٩

(٧) سورة الاسراء ٨٣ (٨) سورة الحج ١١

إنهم لا يؤمنون بقدر فيرضوا به ، ولا بإله فيطمئنون إلى حكمته في خلقه ،
ولا بأنبياء فيجدوا في حياتهم القاسية قدوة وعبرة ، ولا بحياة أخرى فتهب عليهم
نسماؤها منعشة للنفس ، طاردة للسكابة ، باعثة للأمل .

إنهم كسفينة فمادت الدفة والشرع وكل عوامل الثبات أمام الأمواج
والعواصف ، فهي لأدنى حركة من الريح يشتد اهتزازها وتمايلها ، ويحيط بها
اللوج من كل مكان ، وسرعان ما تغوص إلى الأعماق !

ولا غرو أن نجد الانتحار أكثر ما يكون في البيئات التي ضعف دينها أو
فقدته ، فإن لم يكن الانتحار فهو الألم القاتل ، والجزع الهالع ، والسكابة الحزينة ،
والحزن الكئيب ، والحياة التي خات من معنى الحياة .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء !
إنما الميت من يعيش كئيهاً كاسفاً باله قليل الرجاء !

ثبات المؤمنين ومصدره :

أما المؤمنون فهم أصبر الناس على البلاء ، وأثبتهم في الشدائد ، وأرضاهم
نفساً في الملمات .

عرفوا قصر عمر الدنيا بالنسبة لعمر الخلود فلم يطمعوا أن تكون دنياهم
جنة قبل الجنة « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » (١) . وما
الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٢) .

وعرفوا سنة الله في هذا النوع من الخليفة (الإنسان) الذي ابتلى بنعمة
حرية الإرادة ، والاستخلاف في الأرض ، فلم يطمعوا أن يكونوا ملائكة

أولى أجنحة « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نباتية ^(١) » ، « لقد خلقنا الإنسان في كبد ^(٢) » .

وعرفوا من سنن أنبيائهم ورسولهم أنهم أشد الناس بلاء في الحياة الدنيا ، وأقل الناس استمتاعاً بزخرفها ، فلم يطامعوا أن يكونوا خيراً منهم ، ولهم فيهم أسوة حسنة « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب ^(٣) » .

قال ابن القيم : يا مخنث العزم . . . الطريق تعب فيه آدم ، ونوح فيه نوح ، وأتق في النار إبراهيم ، وتعرض للذبح إسماعيل ، ونشر بالمنشار زكريا ، وذبح السيد المحصور يحيى . . .

الايمان بالقدر يهون على المؤمنين البلاء :

وعرفوا أن ما ينزل بهم من مصائب ليس ضربات عجماء ، ولا خبطة عشواء ، ولكنه وفق قدر معلوم ، وقضاء مرسوم ، وحكمة أزلية ، وكتابة إلهية ، فآمنوا بأنه ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم . . . « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها أن ذلك على الله يسير ^(٤) » .

وعرفوا أن من صفته تعالى أن يقدر ويلطف ، ويتلى ويخفف ، ومن ظن اقتكك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره « إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ^(٥) » .

(٢) سورة البلد ٤
(٤) سورة الحديد ٣٢

(١) سورة الانسان ٢
(٣) سورة البقرة ٢١٤
(٥) سورة يوسف ١٠٠

وعرفوا من لطف ربهم أن هذه الشدائد دروس قيمة لهم ، وتجارب نافعة
للدنياهم ودنياهم ، تنضج نفوسهم ، وتصل إيمانهم ، وتذهب صدأ قلوبهم « مثل
المؤمن تصيبه الوعكة من البلاء كمثل الحديد تدخل النار فيذهب خبثها ، ويبقى
طيبها » وما أبلغ ما قال الرافعي :

« ما أشبه النكبة بالبيضة ، تحسب سجنًا لما فيها وهي تحوطه ، وتربيه وتعينه
على تمامه ، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة ، والرضى إلى غاية ، ثم تنف الببيضة ،
فيخرج خلق آخر .

وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته : عمله أن يتكون فيها ، وتامه
أن ينبثق شخصه الكامل فيخرج إلى عالمه الكامل .

شعور المؤمن بنعمة الله في السراء والضراء :

وعرفوا من مظاهر هذا اللطف والرحمة الإلهية ما عرفه أحد السلف حين قال :
« وما أصبت في دنياي بمصيبة إلا رأيت لله فيها ثلاث نعم : أنها لم تكن في
ديني ، وأنها لم تكن أكبر منها ، وأني أرجو ثواب الله عليها » .

وتلك نعم تلبس كل مصيبة في دنيا الناس ، جديرة أن تشعر المؤمن بشعور
الشكر لله فضلا عن الرضى بقضائه ، والصبر على بلائه .

مصائب الدنيا تهون :

فكل مصيبة في دنيا الإنسان قد تعوض بخير منها ، أما مصيبة الدين
فخسارة لا تعوض ، ولذلك حين خير يوسف عليه السلام بين أن يصاب
في دنياه فيسجن ويكون من الصاغرين ، وأن يصاب في دينه فيصبو إلى النسوة
ويكون من الجاهلين ، كما قالت امرأة العزيز للنسوة : « ولقد راودته عن
نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » (١) .

حين خير يوسف بين الأمرين كان لابد أن يختار مصيبة الدنيا ، قتل
« رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه » (١) .

وكان مما علمه نبي الإسلام لأمته أن يقولوا : « اللهم لا تجعل مصيبتنا في
ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا » (٢) .

بعض الشر أهون من بعض :

وإن كل مصيبة لا شك أن هناك أكبر منها ، وقديماً قال الناس : « بعض
الشر أهون من بعض » « وبلاء أخف من بلاء » « ومن نظر لبلوى غيره
هانت عليه بلواه » .

والؤمن ينظر بعين بصيرته فيحمد الله على أمرين : أولهما : دفع ما كان
يمكن أن يحدث من بلاء أكبر ، وثانيهما : بقاء ما كان يمكن أن يزول من
نعمة غامرة وفضل جزيل . فهو ينظر إلى النعمة الموجودة قبل أن ينظر إلى
النعمة المفقودة ، وينظر إلى البلاء المتوقع بجانب نظره إلى البلاء الواقع .

وهذا بلا شك يحدث كثيراً من الارتياح والرضى ، فالبلاء المتوقع كثير وقد
دفع عنه ، والنعم الموجودة كثيرة وقد بقيت له .

وهذا عروة بن الزبير أحد فقهاء التابعين في الإسلام ممثل صالح للمؤمن
الصابر الراضى ، المقدّر لنعم الله ، ففدروا أن رجله وقعت فيها الأكلة
فقرر الأطباء قطعها حتى لا تسرى إلى ساقه كلها ثم إلى فخذة ، وربما ترقى
إلى الجسد فأكلته ، فطابت نفسه بنشرها . فعرضوا عليه أن يشرب شيئاً
يغيب عقله حتى لا يحس بالألم ويتمكنوا من قطعها فقل : ما ظننت أن أحداً
يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل ، ولكن هلموا

فاقطعوها ، فقطعوها من ركبته وهو صامت لا يتكلم ، ولا يعرف أنه أن (اشتكى) !!
وشاء القدر أن يبتلى الرجل على قدر إيمانه ، ففى هذه الليلة التى قطعت فيها
رجله سقط ابن له - كان أحب أولاده إليه - من سطح فمات ، فدخلوا عليه
فعرزوه فيه ، فقال : اللهم لك الحمد ، كانوا سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة ،
وكان لى أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فإن كنت أخذت فلقد
أعطيت ، ولئن كنت قد ابتليت لقد عافيت !!

حلاوة الثواب وحرارة الألم :

ورجاء ماثوبة الله تعالى على ما يبتلى به الإنسان فى دنياه نعمة روحية أخرى
تهون على الإنسان البلاء ، وهذه المثوبة تتمثل فى تكفير السيئات ، وما
أكثرها !! وزيادة الحسنات ، وما أحوج الإنسان إليها !! وفى الحديث الصحيح :
« ما يصيب المسلم من هم ولا غم ولا نصب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا
كفر الله بها من خطاياها » .

أصاب أحد الصالحين شيء فى قدمه فلم يتوجع ولم يتأوه ، بل ابتسم
واسترجع ، فقيل له : يصيبك هذا ولا تتوجع ؟ فقال : إن حلاوة ثوابه أنستنى
مرارة وجعه !

الملحدون يعترفون بأثر الإيمان فى الأزمات :

بقى أن نقول : إن الملحدين أنفسهم شعروا بأن أنظمتهم وفلسفتهم المادية
الجامدة لا تستطيع أن تهيب للناس الروح المعنوية التى تهون عليهم الشدائد ، وتمدهم
بالصبر والثبات فى الأزمات ، ولم يملك الشيوعيون - على تعصبهم - فى الحرب
العالمية الثانية إلا أن يطلقوا مراح الدين وقتاً ما لى دورى فى تثبيت النفوس
وإمساكها أن تنخلع وتنهار ، وأرغمتهم الظروف أن يتركوا الشعوب ترجع إلى
فطرتها فتتملاً فراغها بما لا يمكن أن تملأ إلا به ، بالإيمان .



النَّارِي السَّيَّي

الباب الثالث

الإيمان في حياة المجتمع

- الإيمان والاخلاق
- البذل والتضحية
- القوة
- الرحمة
- الإيمان والانتاج
- الإيمان والاصلاح

الإيمان في حياة المجتمع

الحدود بين الفرد والمجتمع متداخلة متشابكة ، وليس من المستطاع بسهولة أن يقال : هذا أمر يؤثر في الفرد ، وهذا أمر يؤثر في المجتمع ، فما المجتمع في واقع أمره إلا أفراد ربطت بينهم روابط مشتركة . . . وكل جهد يبذل لتكوين الفرد الصالح ، هو عمل أصيل لتكوين المجتمع الصالح .

ومثل المجتمع البشري كمثل البنیان المرصوص ، ومثل الأفراد فيه كمثل اللبنة للبنیان ، فإذا كانت اللبنة قوية متينة ، وكانت المادة التي تربط بينها قوية الربط وإحكام الالتحام والتماسك بينها . قام منها بناء قوى مكين . فالعمل الأول في البناء يجب أن يتجه إلى اللبنة وإعدادها .

وإذا نظرنا إلى ما تقدم — من أثر الإيمان في حياة الفرد — نجد أن الفرد الذي يتمتع بسكينة النفس ، وأمن الروح ، ويتذوق نعمة الرضى ويستروح نسمات الأمل ، وبحيا في ظلال الحب الفسيح ، ويحس بالقوة ، وبشعر بالكرامة ، إنما هو إنسان اجتماعي راق . وابنة صالحة لأن يقوم عليها بناء اجتماعي سليم .

والمجتمع الذي تشيع بين أفراده السكينة والأمن ، والرضى والأمل ، والحب والشعور بالكرامة ، مجتمع يشق طريقه إلى السعادة والرقى والاستقرار .

ألا وإن أخص ما يميز المجتمع الراقى ، المجتمع الفاضل ، المجتمع السعيد هو التماسك والترابط . المجتمع الفاضل هو الذي يتعارف أبناؤه فلا يتناكرون . ويتحابون فلا يتباغضون . ويتعاونون فلا يتخاذلون . ويتملون قima بينهم بالعدل والرحمة ، فلا يبغي بعضهم على بعض ، ولا يقسو بعضهم على بعض . فلا ينسى الواجد المحروم . ولا يهمل القادر العاجز . ولا يأكل الكبير الصغير كالسمك ، ولا يمدو القوى على الضعيف كسكان الغابة .

وشر ما يصيب المجتمع هو التفكك وضعف الروابط بين أبنائه . وذلك بغلبة
الأنانية على أنفسهم ، فيذكر المرء نفسه وينسى أخاه ، ويقول كل واحد : نفسى
نفسى ، ولا يبالي أن يجعل من الناس قرايبين تقدم لإله أطماعه وشهواته .
شر ما يصيب المجتمع : أن يقول كل فرد فيه : لى ، ولا يقول : على . . .
أن تتضخم « أنا » فى نفسه على حساب غيره . فينظر إلى نفسه نظرة استعلاء
واستكبار . وإلى الناس نظرة الازدراء والاحتقار .

ومثل ذلك فى الشر أن يفقد الإنسان إحساسه بذاته ، وشعوره بكرامته ،
وبما وهبه الله من قوة ، وما آتاه من نعمة ، وحينئذ تموت فى نفسه الحوافز الكريمة ،
والبواعث الطيبة ، ولا ينمو فى جوانحه إلا الشعور بالضعف والهوان والضياع
والفراغ ، وهى مشاعر قتالة للفرد ، وبالتالى هدامة لصرح المجتمع .

وإذن فلا بد من حد وسط يقف عنده الفرد . يحس بذاته وكرامته إحساساً
لا ينال من ذات غيره وكرامته وحقه باعتباره إنساناً . . . وبذلك يعمل أبناء
المجتمع معاً ، ويسيرون إلى الهدف المشترك جنباً إلى جنب ، متعاونين على البر
والنقوى ، متواصين بالحق والصبر .

والمجتمع فى حاجة إلى ضوابط تحكم علاقاته ومعاملاته بعضه لبعض . فلا
تطغى الغريزة على العقل . ولا القوة على الحق . ولا الهوى على الواجب . ولا
المنفعة الخاصة على المصلحة العامة . وهذه الضوابط لا تؤدى مهمتها إن لم تكن
ضوابط أخلاقية . مبعثها النفس . ومصدرها الضمير .

لهذا كان كل بناء أو إصلاح أو تغيير اجتماعى لا يقوم على إصلاح الأنفس
وإيقاظ الضمائر ، وتربية الأخلاق ، أشبه ببناء على كسبان من الرمال « إن الله
لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وسنرى فيما يلى أثر الإيمان الحى فى المجتمع المؤمن ، وكيف يسمو به إلى
مستوى من الرقى الإنسانى ، تندق دونه أعناق الماديين .

الإيمان والأخلاق

(أكمل المؤمنين أيماناً أحسنهم خلقاً)

حديث شريف رواه الترمذى

الحيوان تكفيه غريزته :

إذا تأملنا فى عالم الحيوان وجدنا غريزته تكفيه فى هدايته إلى تنظيم حياته وتدير أمره ، منفرداً ومجتمعاً ، كما نشاهد ذلك فى جماعة النمل ، وكيف تعمل فى تعاون واتساق لجمع أقواتها ، وادخارها فى جحورها إلى فصل الشتاء ، حيث لا تستطيع الغدو فى طلب الرزق . وأوضح من ذلك ما نراه فى مملكة النحل التى تقوم دواتها على ملكة وعاملات وذكور - يقوم كل منها بدوره فى الجماعة فى دقة وتعاون واتساق . وذلك آية من آيات الله للمتفكرين فى هذا النظام الدقيق الذى هداها الله إليه أو أوحى إليها به - وفق تعبير القرآن - « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخدى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » (١) .

ذلك شأن الغريزة فى الحيوان .

غرائز الإنسان متضاربة :

أما الإنسان فغرائزه متعددة متنوعة ، معقدة غير سهلة ، مركبة غير بسيطة ، فمنها الفردى الذى يدفع إلى الأنانية والأثرة ، ومنها الاجتماعى الذى يفرى

بالتعاون والإيثار ، ومنها ما يهبط به إلى حضيض المادة ، ومنها ما يسمو به إلى أفق الروح ، ذلك أن الإنسان نفسه مخلوق مركب ، في كيانه جزء أرضي وجزء سماوي . هو جسد وروح ، شهوة وعقل ، وإنسان وحيوان ، وملاك وشيطان ، ولذا عرفه بعض الفلاسفة — نظراً لانصاله بعالم الروح وعالم المادة — فقال : « الإنسان مواطن في عالمين » .

ويقول الفيلسوف البريطاني المعاصر برتراند رسل : « الإنسان أكثر تعقيداً في نزعاته ورغباته من أى حيوان آخر ، وتنشأ الصعوبات التي يواجهها من هذا التعقيد ، فهو ليس اجتماعياً تماماً مثل النمل والنحل ، ولا هو انفرادي تماماً مثل الأسود والنمور ، إنه حيوان شبه اجتماعي ، وبعض نزعاته ورغباته اجتماعي ، وبعضها انفرادي ، ويبدو الجانب الاجتماعي في طبيعته من أن الحبس الانفرادي يعتبر عقوبة بالغة الشدة ، ويبدو الجانب الآخر في حبه للاستقلال بأموره الخاصة ، وعدم استعداده للتحدث فيها إلى الغرباء . ولأننا لسنا اجتماعيين تماماً فنحن في حاجة إلى أخلاق ، لتوحي لنا بالأهداف . وإلى قواعد أخلاقية لتفرض علينا قواعد التصرفات ، والنحل — كما يبدو — ليس في حاجة إلى شيء من هذا ، فهو يتصرف بما تمليه عليه مصلحة الجماعة » (١) .

تري ما الذي يضع للإنسان القواعد الأخلاقية السليمة الصحيحة ؟
وما الذي يحدد للإنسان سلوكه المستقيم ؟ ويرسم له طريقاً موثقاً إلى غاية لا عوج فيه ، ويدفعه إلى السير في هذا الطريق القويم ؟
هل هو القابون ؟
أم هي الفلسفة الأخلاقية ؟

(١) من كتاب المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة لبرتراند رسل ، ص ١٠

أم هو الدين ؟

سنحاول أن نلقى بعض الأشعة الكاشفة على كل من هذه الثلاثة :

القانون وحده لا يكفي لضبط السلوك الانساني :

أما القانون فهو أمر لا بد منه لتنظيم شؤون الجماعة وتحديد علاقاتها ، ولكنه لا يصالح وحده ضابطاً لسلوك البشر ، لأن سلطانه على الظاهر لا على الباطن ، ودائرته في العلاقات العامة لا في الشؤون الخاصة . ومهمته أن يعاقب المسيء دون أن يستطيع مكافأة المحسن ، على أن التحايل على القوانين ميسور ، وتطويع نصوصها للأهواء مستطاع ، والهرب من عقوباتها ليس بالشيء العسير ، وإذا كان القانون عاجزاً عن أن يكون زاجراً عن الشر ورادعاً عن الجريمة والفساد ، فإنه لأعجز وأعجز عن أن يكون دافعاً إلى خير أو باعثاً على حق أو حافزاً على عمل صالح .

ومهما افترضنا في القانون الإنساني من مطابقة العدل والحق ، فإنه على كل حال ليس له قوة ذاتية وإنما قوته في « الحكومة » القائمة على رعايته وتنفيذه .

ويقول السيد جمال الدين الأفغاني في هذه الحكومة ، وأنها لا تكفي في إلزام النفس حدود العدل (١) : « ليس يخاف أن قوة الحكومة إنما تأتي على كف العدوان الظاهر ، ورفع الظلم البين ، أما الاختلاس والزور الموه والباطل المزين والفساد الملون بصبغ من الصلاح ، ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات ، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه ؟ وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل ، وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ومستورات القدر حتى تقوم بدفع ضرره ؟

على أن الحاكم وأعواه قد يسكونون ، بل كثيراً ما كانوا ويسكونون
من تملكهم الشهوات ، فأى وازع يأخذ على أمدى أصحاب السلطة ، ويمنهم
من مطاوعة شهواتهم المتسارعة على عقولهم ؟ وأى غوث ينقذ ضعفاء الرعايا
وذوى المسكنة منهم من شره أولئك المتسلطين وحرصهم ؟

ويقول أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه « الدين » :

« لا قيام للحياة في الجماعة إلا بالتعاون بين أعضائها ، وهذا التعاون إنما يتم
بقانون ينظم علاقاته . ويحدد حقوقه وواجباته . وهذا القانون لاغنى له عن سلطان
نازع وازع . يكفل مهابة في النفوس . ويمنع انتهاك حرمانه .

ونقرر أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة الدين . أو تدانها في
كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع . واستقرار نظامه . والتثام أسباب
الراحة والطمأنينة فيه .

« والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن حرمانه
وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره . ولا يوضع
في يده ولا في عنقه . ولا يجري في دمه ولا في عضلاته ولا في أعصابه . وإنما هو
معنى إنساني روحاني اسمه الفكرة والعقيدة . ولقد ضل قوم قلوبوا هذا الوضع ،
وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران
بها . (يقصد الماركسبين) .

« أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره . وليست قوانين الجماعات
ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدنية فاضلة تحترم فيها الحقوق .
وتؤدي الواجبات على وجهها الكامل . فإن القدي يؤدي واجبه رهبة من السوط
أو السجن أو العقوبة المالية ، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من
طائلة القانون .

«ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء وعوضاً عن التربية والتهديب الديني والخلقي . ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير . كما يصلح للبناء والتعمير . ولا بد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى الشر والفساد ذلكم الرقيب هو (العقيدة والإيمان)^(١) .

الفلسفة الأخلاقية لا تغنى :

وأما الفلسفة الأخلاقية فلا يمكنها توجيه الجماهير الغفيرة من الناس ، إنما لا تستطيع إلا توجيه أفراد معدودين ، وبناؤهم محدود لا ينفذ إلى الأعماق كما ينفذ الدين .

ثم أى فلسفة أخلاقية تلك التى يتبعها الناس ، وكل فيلسوف له مذهب ، وكل مذهب له مقياس ؟ أهى فلسفة المنفعة التى نادى بها وايم جيمس وغيره ؟ أم فلسفة اللذة التى نادى بها « أريستيب » « وأبيقور » ؟ أم فلسفة القوة التى نادى بها « نيتشة » أم فلسفة الواجب التى دعا إليها « كانت » ؟

وما الجزاء الذى يناله المرء على استمساكه بفضائل أخلاقية معينة ؟ أهو جزاء يقنع العقل ويرضى النفس ؟ أم هو سراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ؟

ما جزاء الجندى المجهول الذى يعمل لخدمة المجموع دون أن يراه أحد أو يشعر به أو يكفئه ؟

ما هو جزاء المضحى فى سبيل أمته وأمرته ، يقاتل دفاعاً فيقتل ظلماً فيموت ؟ إن راحة الضمير هنا - التى يتغنى بها الأخلاقيون - ليس لها وجود .

ومن جانب آخر ، ما جزاء من عاش طول عمره يظلم ويظغى ، ويعب من

(١) من كتاب « الدين » للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .

الشهوات الحرام دون أن يشعر بتأنيب الضمير ، لأن ضميره قد مات؟ إنه لا يحل هذه المقدرة إلا بالإيمان ، إلا الدين . . . الذى يقول : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيدهم ويصالح بهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم » « يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى » .

الاخلاق لا الفلسفة الاخلاقية :

ورفضنا للفلسفة الأخلاقية ليس رفضاً للأخلاق نفسها ، فالأخلاق ملاك الفرد الفاضل ، وقوام المجتمع الراقى ، يبقى ويستقر ما بقيت ، ويذهب ويتلاشى إن ذهبت ، بل لا حياة له بغيرها :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً وللأخلاق فى نظر الدين عامة ، والإسلام خاصة محل رفيع ، ومكان فسيح ، والقرآن لم يثن على خير الرسول محمد عليه السلام بأكثر من أن قال : « وإنك لعلى خلق عظيم » ^(١) والنبي يلخص رسالته فلا يزيد أن يقول : « إنما بعثت لاتهم مكارم الاخلاق » ^(٢) .

ولا عجب أن رأينا من محققى علماء الإسلام رجلاً مثل ابن القيم يقول : الدين هو الخلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الدين ^(٣)

(١) سورة ن ٤

(٢) رواه ابن سعد والبخارى فى الأدب المفرد ، والحاكم فى المستدرک ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة ورمز له السيوطى بعلامة الصحة .

(٣) مدارج السالكين ، ج ٢ ص ٣٠٧ ط السنة المحمدية

وهذا مصداق ما جاء في الحديث النبوى « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « البر حسن الخلق »^(٢) « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن »^(٣) .

ذلك هو شأن الأخلاق في الدين وفي المجتمع ... هي في الدين ركن ركين ، وهي في المجتمع أساس مكين .

لا أخلاق من غير دين :

غير أن الدين لا يقف عند حد الدعوة إلى مكارم الأخلاق وتبجيلها . إنه هو الذى يرسى قواعدها ، ويحدد معالمها ، ويضبط مقاييسها الكلية ، ويضع الأمثلة للكثير من جزئيات السلوك ، ثم يغرى بالاستقامة ، ويحذر من الانحراف ، ويضع الأجزاء متوبة وعقوبة على كلا السلوكين نصب العين .

وقد قال الفيلسوف الألمانى « فيخته » : « الأخلاق من غير دين عبث » . وقال الزعيم الهندى غاندى : « إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الانفصال ، ولا يفترقان بعضهما عن بعض ، فهما وحدة لا تتجزأ ، إن الدين كالروح للأخلاق ، والأخلاق كالجو للروح ، وبعبارة أخرى إن الدين يغذى الأخلاق وينمىها وينعشها ، كما أن الماء يغذى الزرع وينميه » .

ومنذ سنوات اطلع العالم كله على تقرير القاضى البريطانى « ديننج » عن فضائح الوزير السابق البريطانى جون بروفيمو وعشيقته كريستن كيلر ، وقد عكف ديننج على دراسة هذه القضية فى شقته المتواضعة بلندن ثلاثة شهور لم يكن يتمتع أثنائها إلا بمطلته الأسبوعية ، يتضيها فى منزله بالريف البريطانى حيث تقيم زوجته .

(١) رواه الترمذى وقال حسن صحيح من حديث أبى هريرة .

(٢) رواه مسلم من حديث النواس بن سميان .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح — من حديث أبى هريرة .

وقد قابل خلال التحقيق ١٨٠ رجلاً وامرأة واجتمع بالصحفيين ، وأعضاء البرلمان وغيرهم ، وقد كتب تقريره في ٨٥٠ ألف كلمة ، وأخيراً تكلم هذا القاضي بنزاهة ، وصراحة ، معقباً على هذه التضيعة الخطيرة ، فقال :

بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق ، وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون !

الدين هو المصدر الفذ المعصوم الذي يعرف منه حسن الأخلاق من قبيحها ، والدين هو الذي يربط الإنسان بمثل أعلى يرنو إليه ، ويعمل له ، والدين هو الذي يحد من أنانية الفرد ، ويكفكف من طغيان غرائزه ، وسيطرة عاداته ، ويخضعها لأهدافه ومثله ، ويربى فيه الضمير الحى الذى على أساسه يرتفع صرح الأخلاق .

الايمان والمثل الاعلى :

ما هم الإنسان الذى لا دين له ولا عقيدة ؟ وما غايته من وجوده ؟ وما رسالته فى الحياة ؟

أغايته رضوان الله ؟ إنه لا يؤمن به ولا يرجو له وقاراً .

أغايته الجلود والنعم فى الحياة الأبدية ؟ إنه لا يؤمن بها ، ولا يفكر فيها .

إنه لا هم له ولا غاية ولا رسالة إلا أن يدور فى فلك نفسه ، يتبع هواها ، ويحقق رغائبها العاجلة ، ويسير خلف دوافعها أياً كانت ، وفناً لمزاجه وتكوينه الخاص .

فإن كان مزاجه من النوع الهادئ المسالم عاش فى الدنيا غافلاً عن نفسه وعما حوله ، حياً كميئ ، وموجوداً كمنفود ، لا يحس أحد بحياته ، ولا يترك فراغاً بعد موته .

فذاك الذى إن عاش لم ينتفع به وإن مات لا تبكى عليه أقاربه
وإن كان يغلب على نفسه الجانب «البهيمى» جرى وراء الشهوات واللذات ،
يقتحم إلى بلوغها كل حرمة ، ويساك من أجلها كل طريق ، لا حياء يردعه ،
ولا صبر يقمعه ، ولا عقل يمنعه ، يقول ما قاله أبو نواس :

إمّا الدنيا طعام وشراب وندام^(١)
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

وإن كان مزاجه من النوع «العصبي» جعل همه العـُـنـو في الأرض ،
والاستكبار على الناس ، وإظهار السلطة والتحكم في الرقاب ، والفخر بلسانه ،
والاختيال بفعاله ، ولم يهـمه في سبيل ذلك أن يبني قصرأ من جماجم البشر ، وأن
يزخرفه بدماء الأبرياء ، شعاره ما قاله الشاعر الجاهلى :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكننا سنبداً ظالمينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً نخر له الجبابر ساجدينا

وإن كان يغلب عليه الجانب «الشرطاني» دبر المكاييد ، وفرق بين
الأحبة ، ووضع الألفام ليدمر ، وسمم الآبار ليقتل ، وعكر المياه ليصطاد ،
وزين الإثم ، وأغرى بالفاحشة ، وأوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، وقال مع
الشاعر :

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفعا
وكان ممن حق عليهم قول الله : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه

(١) الندام : المتأدبة والمجالسة على شرب الخمر .

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . أو أهلك لهم اللعنة
ولهم سوء الدار» (١) ...

وهكذا يدور كل واحد من هؤلاء حيث تدور نفسه ، وينقاد لأمر هواه ،
والهوى يعنى ويعصم ، والهوى إله معبود « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى
من الله » (٢) .

أما المؤمن فإنه يعيش لرسالة كبيرة ، ويعمل لهدف رفيع ، ويحيا في ظل مثل
عليها ، يعيش لها ويموت عليها هي : القرنى إلى الله ، والتخلق بأخلاقه ، والسعى في
مرضاته . وفي سبيل مثله يكبح جمح نفسه ، ويقمع طغيان هواه ، ويضغط على
غرائزه وشهواته ، احتساباً لله وإيثاراً لما عنده ، وابتغاء مرضاته ، وإيماناً بحسن
الثواب لديه ، قد وضع نصب عينيه قول ربه جل شأنه : « زين للناس حب
الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة
والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم
بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين
فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون : ربنا
إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقائمين
والمتقين والمستغفرين بالأسحار » (٣) فهذه هي الثمرات الأخلاقية للإيمان ، وهذه هي
صفات المؤمن النقي الذي آثر ما عند الله على شهوات الحياة : خشية من الله
وحرص على رضاه ومغفرته ، وصبر وصدق وقنوت وإنفاق ، بلا ادعاء ولا غرور ،
بل شعور بالتقصير ، يجعله يستغفر الله على كل حال .

إن المثل الأعلى للمؤمن أن يقترب من الله في علاه ، ويحصل على مثوبته

ورضاه ، وهذا يجعل حياته كلها موصولة الأسباب بالله ، ويجعله يحيا دائماً وهو
يرجو الله والدار الآخرة ، ويجعل أكبر همه أن يتخلق بأخلاق الله ، وينأى
بنفسه عن مشابهة الأنعام والسباع والشياطين .

ولقد زعم بعض الكاتبين أن الدين كلف الناس شططاً ، بل محالاً ، حين
طلب إليهم أن يتخلقوا بأخلاق الله . كأنه تصور أن هذه الدعوة تعنى أن يتحول
الإنسان إلى إله !

وهذا وهم بعيد عن الصواب ، فإن مطالبة الإنسان أن يتخلق بأخلاق الله
معناها : المحاولة الدائبة للصعود والترقى . والسعى المتواصل من قبل الإنسان ليقبس
من كمال الألوهية بقدر طاقته واستعداده البشرى .

إن الله عليم حكيم فليحاول الإنسان أن يتصف بالعلم والحكمة بقدر طاقته
البشرية ، والله رؤوف رحيم فليحاول الإنسان أن يتصف بالرفقة والرحمة بقدر طاقته
البشرية . والله غنى كريم فليحاول الإنسان أن يتصف بالغنى والكرم بقدر طاقته
البشرية . والله صبور حلیم فليحاول الإنسان أن يتصف بالصبر والحلم بقدر طاقته
البشرية . والله جبار متكبر فليحاول الإنسان أن يكون جباراً على المبتلين والطغاة
متكبراً عن دنابا الأخلاق وسفاسف الأعمال .

والله عزيز ذو انتقام فليحاول الإنسان أن يكون عزيزاً على الكافرين
وذا نعمة على المفسدين الظالمين . والله شكور غفور فليحاول الإنسان أن يكون
شكوراً لمن أحسن إليه ، غفوراً لمن اعتذر إليه . والله على صراط مستقيم فليحاول
الإنسان أن يكون على صراط مستقيم حتى لا تضل به المسالك الملتوية . ولا يتمرق
به السبل العوج .

والله تعالى متصف بكل كمال ، معتمذه على كل نقص ، فليضع الإنسان نصب
عينه أن يبرأ من النقص وأن يتصف بالكمال حسب جهده .

فأى إيماء أكرم وأعظم تأثيراً في النفس الإنسانية من هذا الإيماء : التخلق بأخلاق الله ؟ والاقتراس من كمال الألوهية ؟ وأى مثل أعلى يدانى هذا المثل الذى اتخذه المؤمن نصب عينيه : أن يقترب من الله ويوثق صلته به ، عن طريق العمل الصالح الذى يحبه الله وبرضاه ؟

متاع الحياة وخطره على الاخلاق :

ثم إن أخطر شيء على أخلاق الناس هو هذه الدنيا بمتاعها ومغرياتها ، الدنيا بزخارفها وشهواتها من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخليل المسومة^(١) والأنعام والحراث .

إن الغلو في حب الدنيا هو رأس كل خطيئة . والتنافس عليها أساس كل بلية . من أجل متاع الدنيا يبيع الأخ أخاه . ومن أجل متاع الدنيا يقتل الابن أباه ، ومن أجلها يخون الناس الأمانات وينكثون العهود ، ومن أجلها يجحد الناس الحقوق ، وينسون الواجبات ، ومن أجلها يبغى الناس بعضهم على بعض ويعيشون كسباع الغابة أو أسماك البحار ، يفترس القوى الضعيف ، ويلتهم الكبير الصغير ، من أجل شهوات الدنيا ومفاتها يغش التجار ويطففون ، ويتجبر الرؤساء ويستكبرون ، ويجور القضاء ويرتشون ، ويطنى الأغنياء ويترفون ، وينافق ضعفاء النفوس ويتزفون .

من أجل الدنيا يسكتم العالم ما يعلم أنه الحق ، ويفتى بما يعتقد أنه الباطل . من أجل الدنيا يروج الصحفي الكذب والزور ، ويخفى الحقائق وهى أوضح من فلق الصبح .

من أجل الدنيا يهجو الشاعر كل حليم رشيد ، وبزف عرائس المديح إلى كل مكبر وعريد .

(١) تمثلها الآن السيارات الفارحة بمختلف أصنافها وألوانها .

من أجل الدنيا تسفك الدماء ، وتستباح الحرمات ، وتداس القيم ، ويباع
الدين والشرف والوطن والعرض وكل معنى إنساني كريم .

كل هذا من أجل الدنيا ومتاع الدنيا وشهوات الدنيا : من أجل امرأة أو
كأس أو عمارة أو قطعة أرض أو منصب يصغر أو يكبر ، أو دنائير تفل أو
تكثر ، أو حظوة لدى رئيس ، أو شهرة بين الناس ، أو غير ذلك من هم البطن ،
وشهوة الفرج ، وحب الجاه والمال ، وشهوة السيطرة والاستعلاء .

أجل إن حب الحياة والأمل فيها جزء من فطرة الإنسان ، ولولا ذلك
ما عمرت الأرض ، ولا ترعرعت شجرة الحياة ، فلم يكن مما ينافي الحكمة أن
يزين للناس حب الشهوات . ولكن الخطر كل الخطر أن يستغرق الناس في
حب الدنيا وطول الأمل فيها ، وأن تكون هذه الحياة القصيرة أكبر همهم ،
ومبلغ علمهم ، ومنتهى آمالهم ، شأن أولئك الذين لا يرجون لقاء الله ولا يؤمنون
بيوم الحساب . وأولئك الذين يؤمنون بالآخرة . ولكنهم عنها مشغولون ولها
نامسون ، ولهذا علمنا رسول الإسلام أن ندهو الله فنقول : « اللهم لا تجعل الدنيا
أكبر همنا ولا مبلغ علمنا » .

إنه لا بد من حب آخر وأمل آخر ، أقوى من حب الحياة الدنيا ومن الأمل
فيها ، وليس ذلك إلا حب الآخرة والأمل في لقاء الله ، والطمع في مشوبته
ورضوانه ، والخوف من حسابه وعذابه . إن هذه المعاني من الحب والأمل والطمع
والخوف هي العواصم المنجية من أخطار المحبة للدنيا والحرص عليها والركون إليها .
إنها « صمام الأمن » من خطر الاغراق والإسراف في الإقبال على شهوات الحياة .
وذلك هو دور الإيمان الذي يغمر قلب صاحبه يقيناً بالآخرة . ورجاء فيما
عند الله . ومن هنا تكرر وصف المحسنين والمتقين في القرآن بقوله : « وهم بالآخرة

هم يُوقِنُونَ» (١) . وفي مقابل ذلك قال في شأن الطغاة والمجرمين «إنهم كانوا لا يرجون حساباً، وكذبوا بآياتنا كذاباً» (٢) وفي مشهد من مشاهد الآخرة يقص علينا القرآن تساؤل المؤمنين في الجنة عن المجرمين في النار «ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين» (٣) وقال في شأن فرعون وملئه «واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم أبنا لا يرجعون» (٤) ولو ظنوا أنهم إلى ربهم راجعون، وعليه معروضون، ما أقدموا على ما فعلوا، من الجرائم البشعة، والمذابح الرهيبة، والمظالم القاسية .

إن المؤمن بالله والآخرة هو الذي يستطيع أن يعلو على شهوات الدنيا، وأن يطرح مغرياتها وراء ظهره، وأن يركل متاعها بقدمه ويقول لها ما قال على بن أبي طالب، رضى الله عنه: «إليك عني، يا صفراء يا بيضاء، غري غري . ألى تعرضت أم إلى تشوقت؟ قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها» ! بل يقول ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام حين دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال له: يا رسول الله: لو اتخذت فراشاً أو ثمر من هذا؟ فقال: «مالى وللدنيا؟ ما مثل ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف؟ فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها» (٥)

الإيمان وحده هو الذى يعطى المؤمن هدفاً أكبر من الدنيا، ويشده إلى قيم أرفع وأبقى من شهواتها .

الإيمان وحده هو الذى يعطى صاحبه القدرة على مقاومة إغراء الدنيا وفتنتها .

(١) سورة البقرة ٤ ، والنمل ٣ ، ولقمان ٤

(٢) النبأ ٢٧ ، ٢٨ (٣) المدثر ٤٢ - ٤٦

(٤) سورة القصص ٢٩

(٥) رواه أحمد وأبو حيان في صحيحه والبيهقي .

إنه قد يملك الدنيا ولكنها لا تملكه ، وقد تمتلئ بها يداه ، ولكن لا يمتلئ بها قلبه ، ذلك أنه يعيش في الدنيا روح المرتحل ، كأنه غريب أو عابر سبيل ، ومن عاش في الدنيا بهذه الروح فلا خوف عليه من امتلاك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، إنه يحيا في الدنيا بقلب أهل الآخرة ، ويمشي وقدمه في الأرض ، وقلبه موصول بالسماء .

المؤمن وحده هو الذي امتلأ يقيناً بأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأنها قنطرة عبور إلى الحياة الباقية ، وأن ركعتين خاشعتين لله عند الله خير من الدنيا وما فيها ، وأن غدوة أو راحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، وأن موضع قدم الإنسان في الجنة خير من الدنيا وما فيها . وحسب المؤمن أن يعلم أن أنبياء الله ورسله وأوليائه عاشوا في الدنيا معذبين مضطهدين وأن أعداءه وأعداء رسله من الكفرة والمكذبين والملحدين كثيراً ما عاشوا منعمين مترفين .

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سققاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . وليبوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفاً ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » (١) .

ليس معنى هذا أن يقعد المؤمن عن السعي في الحياة ، أو يحرم على نفسه طيباتها ، أو يدع عجلتها لقيادة الكفار والفجار .

كلا ، إنه مأمور أن يعمر الدنيا ، وأن يندمها ويرقيها ، مأمور أن يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله فيها ، وينعم بطيباتها ، ويسخرها لخدمة رسالته وعقيدته . وأن يكون فيها سيداً لا عبداً .

إن الاستعلاء على متاع الدنيا والاستكبار على شهواتها ومغرياتها ، ليس معناه أبداً تحريم طيباتها . أو تعطيل مصالحها ، أو تعويق سيرها ، إنما المقصود أن تكون الآخرة مراد المؤمن وغاية سعيه ، فلا يكون ممن يريد حرث الدنيا ،

عمن يريد العاجلة . . . ممن وصفه القرآن بأنه « طغى وآثر الحياة الدنيا »^(١) ،
« خاطب الرسول في شأنه بقوله : « فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة
الدنيا . ذلك مباههم ممن العلم »^(٢) .

بل يجب أن يكون المؤمن ممن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، واتخذ الدنيا
« وسيلة لا غاية ، وممرأ لا مقراً .

إن الذى لا يوقن بالآخرة يقيناً جازماً ، يصعب فطامه عن شهواتها ،
« صرفه عن مجونه ولذاته ، لأنه لا يرضى أن يبيع لذة حاضرة يقينية ، من أجل
« لذة آجلة مشكوك في وقوعها عنده .

فلا تعجب إذا سمعنا مثل عمر الخيام يقول ما ترجمته بالعربية :

قالوا : امتنع عن شرب بنت السكروم فإنها تورث نار الجحيم !
ولدتى فى شربها ساعة تعدل فى عيني جنان النعيم !
أين النديم السمع ؟ أين الصبوح ؟ فقد أمضى الهمة قلبي الجريح !
ثلاثة هن أحب المنى كأس وأنعام ووجه صبيح !
وإنما قال هذا الرجل ما قال ، أغلبة شكه على يقينه ، ولو أيقن بالآخرة حقاً ،
لهانت الكأس والأنعام والوجه الصبيح وهانت الدنيا كلها ، فى جنب ثواب الله
تعالى ورضوانه .

إن الإيمان قوة قاهرة غالبة ، أقوى من الغرائز والشهوات ، وأقوى من
سلطان العادات ، وأقوى من كل المؤثرات .

سلطان الغريزة وسلطان الإيمان :

لا ريب أن للغرائز فى دفع الإنسان سلطاناً لا ينسکر ، ولكن انثل العليا

(١) النازعات ٢٩

(٢) النجم ٢٩ ، ٣٠

التي يعيش لها المؤمن تعلقه على الغرائز وسلطانها^(١) .

والغريزة الجنسية بخاصة لعلمها أعنى الغرائز وأقواها ، حتى إن في علماء النفس من فسر بها السلوك البشري كله ، مثل « فرويد » : وهو تفسير حيواني يتجاهل غرائز الإنسان الأخرى ، وسائر ملكاته الروحية ودوافعه النفسية — وليس هذا موضع مناقشته .

وفي الشباب تتجلى هذه الغريزة على أشدها ، فالشباب شعلة متوهجة لعظم طاقته الحيوية ، وقوة دوافعه النفسية ، وقلة علمه وتجاربه في الحياة ، بجانب أحلامه وخيالاته الكثيرة ، فإذا يمنع الشاب الناصر الفتوة ، الفوى الغريزة أن يقضى شهوة جنسية مع امرأة لا تحل له إذا تيسرت له أسبابها ، وتهيات وسائلها دون خشية من عقاب أو قانون أو أعين الناس ؟

لا شيء يمنع إلا الإيمان ... هذا ما حدث ليوسف عليه السلام : شاب في ريعان الشباب ، مكتمل الرجولة ، رائع الفتوة ، تدعوه إلى نفسها امرأة ذات منصب وجمال ، ليست من عامة الناس ولكنها امرأة العزيز الذي هو في بيتها وهو عبدها وخدامها ، والأبواب مغلقة ، والسبل ميسرة ، كما حكى القرآن : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » !

فإذا كان موقفه أمام هذا الإغراء . وتلك الفتنة التي تخطف الأبصار ؟ ألا نتقناته فاستسلم وخان عرضاً أو ثمن عليه ؟ كلا إنما قال « معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي ! إنه لا يفتاح الظالمون » .

ولقد حاولت المرأة بكيدها ومكرها وبكل ما لديها من ألوان الإغراء

(١) أصبح علماء النفس اليوم لا يستحسنون كلمة « الغرائز » ويعتبرون بدلها « الدوافع النفسية » . ولكننا آثرنا كلمة الغرائز لشيوعها وظهور معناها لدى جمهور الناس ولا مشاحة في الاصطلاح .

والتهديد أن تذيب من صلابته وتضعضع من شموخه ، وأعلنت ذلك لنسوتها في خفيق وغيظ : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » .

ولكن الشاب يوسف اتجه إلى الله يسأله المعونة والعصمة « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » .

كانت فتنة بين ضمير المؤمن ، ومغريات الإثم ، ففشلت المغريات وانتصر الإيمان .

والغريزة من شأنها أن تطلب متنفساً ، فإن طال حبسها خيف عليها الانفجار مما لم يحجزها سد الإيمان .

وهذه امرأة يغيب عنها زوجها فترة طويلة من الزمن ، ، فتخيم عليها كآبة الوحشة ، وتهجم عليها هواجس الوحدة ، ويشور في عرقها دم الأنوثة ، وينطق فيها صوت الغريزة فلا يصدده إلا حاجز الإيمان ، وفي جنح الليل باتت تنشد :

لقد طال هذا الليل واسود جانبه وأرقني أن لا حبيب ألاعبه

فوالله لولا الله تخشى عواقبه لحرك من هذا السرير جوانبه !

* * *

وغريزة المقاتلة التي عبر عنها الأقدمون ، بالقوة الغضبية ، أو القوة السبعية ، والتي تثير الإنسان أن يرد الصاع صاعين ، وتدفعه إلى التدمير والانتقام ، وبها يبدو كالوحش الهائج ، أو الإعصار المدمر . جرة من النار يلقمها شيطان الغضب في جوفه فتنتفخ أوداجه ، وتحممر عيناه ، ويبدو كأن له مخالب وأنياباً !

ما الذى يقلم أظافر هذه الغريزة ، ويلقى على هذه الجرة المتقدة ماء الهدوء والسلام ؟

إنه الإيمان الذى يحمل المؤمن أن يكظم الغيظ ، ويعفو عن ظلمه ، ويحلم على من جهل عليه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، ويجعله يحس فى مرارة جرعة الغيظ حلاوة يجدها فى صدره .

وقد قص علينا القرآن قصة ابنى آدم بالحق « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » فما كان من ابن آدم الشرير إلا أن قال لأخيه : « لأقتلك » قال المؤمن الصالح « إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بياسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين » .

خوف الله إذن هو الذى يكف الأيدي أن تمتد بالأذى ، وإن التهمت الغريزة ، ودفعت إلى العدوان . وقد قال عمر : « من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون » .

وكلم رجل يوماً عمر بن عبد العزيز ، فأساء إليه حتى أغضبه — وهو أمير المؤمنين — فهم به عمر ، ثم أمسك نفسه وقال للرجل : أردت أن يستغزنى الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ما تناله منى غداً ؟ — أى فى الآخرة — قم عافاك الله ، لا حاجة لنا فى مقاولتك .

الإيمان ينتصر على الأنانية :

وغريزة الأنانية أو حب الذات غريزة عاتية جبارة ، لا يكاد يخلو بشر من سلطانها عليه ، وقوة دفعها له ، وتوجيهها لسلوكه . وإنك ترى الناس تدفعهم الأنانية إلى التنافس على الدنيا ومتاعها ، ويدفعهم التنافس إلى التنازع والاختصاص ، ويدفعهم ذلك إلى ادعاء ما ليس لهم ، وجحود ما عليهم من حق ، وكل أموال

الناس بالباطل ، وعندما يطل شيطان الخصومة برأسه لا يكون إلا حب الغلب
بأى ثمن ، وأية وسيلة .

ولسكن عنصر الإيمان إذا دخل المعركة أطقاً لمحب الخصومة ، فصارت نارها
برداً وسلاماً ، وحطم طغيان الأنانية فاستحالت تسامحاً وإيثاراً ، وحلق بالثؤمن من
المتاع الأدنى إلى لمثل الأعلى .

وفي القصة التي روتها أم سلمة زوج الرسول مثل واضح على مبلغ أثر
الإيمان : رجلان يختصمان في مواريث وليس لهما بينة إلا دعواهما ، كلاهما يقول :
هذا حقى ، وينكر على صاحبه أن يكون له حق ... ويحكم الرجلان إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم وفي صدر كل منهما فرديته وأنانيته . فيصدع الرسول
آذانهما وقلبيهما بهذه الكلمات الحية : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ،
ولعل بضعكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . فأقضى له على نحو ما أسمع
منه ، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من
النار » .

سمع الرجلان المختصمان هذه الكلمات الهادرة ، فلمست أوتار الإيمان من
صدريهما ، وأيقظت فيها خشية الله والدار الآخرة ، فبكى الرجلان وقال كل
منهما لصاحبه : حقى لك !

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما إذا فعلتما ما فعلتما فاقتما وتوخيا الحق ،
ثم استهما ... ثم تحالا^(١) (أى ليحل كل منكما صاحبه وليسامحه فيما عسى أن
يكون من حقه) .

هنا كانت كلمة الإيمان ، وكلمة الضمير الذي أيقظه الإيمان ، هي القول

(١) الفصة في كتاب (الأقضية) من سنن أبي داود ،

الفصل ، والقضاء العدل في قضية يعجز القانون المجرد ، والقضاء الظاهر ، عن معرفة الحق فيها مادام الطرفان متنازعين ، ولا بينة لأحدهما .

وقد قص النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه قصة رجلين مؤمنين ، ضربهما مثلاً لما يجب أن يكون عليه المؤمنون من العفاف والزهد والإيثار . قال :

« اشترى رجل من رجل عقاراً له . فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب ، فقال للذي اشترى العقار منه :

خذ ذهبك عني ، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب !

فقال الآخر : إنما بعتك الأرض وما فيها !

قال صلى الله عليه وسلم : فتحا كما إلى رجل ... فقال الذي تحا كما إليه —
ألكما ولد ؟

فقال أحدهما : لى غلام .

وقال الآخر : لى جارية .

فقال الحكم : أنكحوا الغلام الجارية : وأنفقوا على أنفسكم منه
وتصدقوا^(١) .

وهكذا يرى الناس لونا ممتازاً من النفوس : رجالان وأمامهما جرة فيها ذهب لا يتقاتلان عليها . ولكن يتدافعاها ، يقول كل منهما لصاحبه : هي لك ...
على حين نرى الإنسان دائماً يقول : هذا لى !

سلطان العادة وسلطان الايمان :

هكذا يقف الإيمان القوى أمام طغيان الغرائز الإنسانية فيكشف كنف من

(١) القصة رواها مسلم في صحيحه .

غلوائها ، ويحد من شرها ، ويقوم من انحرافها ، ويوجهها وجهة الخير والسداد والصلاح ، ولكن الإنسان لا يخضع لسلطان الغريزة وحدها ، وإنما يؤثر فيه - وراء الغرائز - شيء آخر ، له سلطانه القاهر ، وكلمته النافذة ، ذلك الشيء هو العادة .

والعادة تتكون من ميل الإنسان إلى شيء ما ، ثم استجابته لهذا الميل وفعله لهذا الشيء ، ثم تكراره لهذا الفعل مرة بعد مرة ، ويوماً بعد يوم ، حتى ترتبط بأعصابه ، وتخط فيها مجرى يختلف في سعته وعمقه تبعاً لقوة العادة وضعفها ، ويؤدي هذا الفعل بعد ذلك بيسر وسهولة ، أداء يكاد يكون آلياً ، ليس فيه إلا قليل من الانتباه والتفكير ، ويصبح الامتناع عن هذا الأمر - بعد أن صار عادة - من الصعوبة بمكان .

سلطان العادة وقوقها :

ولقد قال بعض الباحثين : « إن الإنسان يكاد يكون مجموع عادات تمشي على الأرض » وقال روسو : « يولد الإنسان ويموت مستترقاً مستعبداً ، يشد عليه القمط يوم يولد ، والكفن يوم يموت » يريد أنه - فيما بين المهد والحد - أنير للعادات ، مستعبد للتقاليد .

وقال القدماء : « العادة طبيعة ثانية » يعنون بذلك أن لها من القوة ما يقرب من « الطبيعة الأولى » والطبيعة الأولى هي ما ولد عليه الإنسان وفطر عليه . فكل إنسان خرج من هذا العالم كآلة مجهزة بكثير من العدد : عين تبصر ، وأذن تسمع ، ومعدة تهضم ، وغرائز فطرية . . . وهكذا . فهذا الذي ولدنا عليه وورثناه من آباءنا وأجدادنا هو : طبيعتنا الأولى ، ولها سلطان كبير على الإنسان ، فلو حاول أن يبصر بأذنه ويسمع بعينه ما استطاع ، فهو لا بد خاضع لسلطانها .

وما يدخله الإنسان على الطبيعة الأولى من التحسين والتقييح هو ما يسمى « الطبيعة الثانية » أو « العادة » ولها كذلك سلطان كبير . فالطريق الذى نختطه لأنفسنا فى الحياة ، ونعتاد السير فيه ، له من السلطان علينا ما يقرب من سلطان الطبيعة ، فنحن أحرار فى السنين الأولى من حياتنا ، لا سلطان للعادة علينا ، حتى إذا نمونا كان نحو التسعين فى المائة من أعمالنا - من لبس وخلع وطريقة أكل وشرب ونمط فى الكلام والسلام والمشى والمعاملة - معتاداً ، نعمله بقليل من الفكر والانتباه ويصعب علينا العدول عنه ، وتصبح حياتنا مجرد تكرير لأفكار وأعمال كسبناها فى مستقبل الحياة .

ذلك هو مبلغ سلطان العادة على الإنسان - فرداً كان أو جماعة - فإذا كانت عاداته صالحة فما أسعده بها . وإن كانت عاداته قبيحة ضارة فما أتعسه وما أشقاه بها ! إنه يأكل كل الشئ الذى يضر جسمه ، ويشرب الشئ الذى يغيب عقله ، ويلبس الشئ الذى يضايقه ويخنقه ، ويرتكب الشئ الذى يستتبعه ويستتبعه . وما ذلك إلا لسلطان العادة عليه ، وغلبتها على عقله وإرادته . وحسبنا دليلاً على هذا ما نراه بأعيننا فى المدمنين لشرب المسكرات ، وتناول السكيوف والمخدرات ، ولعب الميسر والقمار .

سلطان الايمان أقوى

وللتخلص من عادة متمكنة لا بد من إعلان حرب عليها : حرب ساخنة ملتهبة ، لا ينتصر فيها إلا من تسليح بإرادة قوية ، وعزم فولاذى لا يتزعزع ولا يلين ، وتصميم على الانتصار لا يشوبه يأس أو تردد أو تراخ .

هذا هو سبيل الانتصار على العادات الضارة المنتشرة فى مجتمع من المجتمعات ، لا العقوبات القاسية ، أو القوانين الرادعة وحدها . وكما رأينا فى القديم والحديث من قوانين وعقوبات ارتدت مدحورة أمام جبروت العادات .

ومن لنا بالعزم والتصميم الذى يقهر العادة ويدحرها ؟ إنه الإيمان الذى يشحذ العزائم ، ويسمو بالنفوس ويمدها بقوى المقاومة والجلاد الباسل ، فتختر أمامها أسوار العادات والتقاليد .

تحریم الخمر بين الولايات المتحدة وأمة العرب:

ولكى يتضح لنا أثر الإيمان فى تغيير العادات المستمكنة ، وتربية النفوس على عمل الخير وإن كان شاقاً ، وترك الشر وإن كان مألوفاً ومعتاداً — نقيم موازنة بين موقفين فى مشكلة واحدة : موقف من التاريخ الحديث ، وموقف من التاريخ القديم ، يصوران لنا كيف يصنع وازع الإيمان ما يعجز عنه وازع السلطان .

للموقف الأول فى الولايات المتحدة الأمريكية . . . وقد انتشرت فيها عادة السكر وشرب الخمر انتشاراً أقنع الحكومة بضرر ذلك على الفرد والأسرة والمجتمع . فأصدرت الحكومة قانوناً يمنع الخمر ، ثم تبين لها بعد مدة يسيرة أنها عاجزة تمام العجز عن تنفيذ قانونها ، وأن أفراداً وجماعات أخذوا يعيشون فى الأرض فساداً بتعاطى الخمر وتهريبها والاتجار بها ، والتفنى فى صناعاتها على استغناء ، وامتصاص أخصب أنواعها أكثر من ذى قبل .

ومما ينبغى أن نلفت إليه أن هذا الخطر لم يكن (أمراً ملكياً) أو منشوراً من امبراطور مستبد أراد أن يرغم شعبه بسلطان القوة ، وقوة السلطان .

كلا . . . إنه تشريع جاء عن طريق برلمان فى بلد ديمقراطى دستورى حر ، من شأنه أن يشرع لنفسه ما يجلب له النفع ، ويدرك منه الفساد والضرر ، وقد شرع هذا القانون بعد أن اقتنع به رأى العام وتحقق له من الوجهة العلمية والعملية أن الخمر ضارة بالصحة ، مفسدة للعقل ، محطمة للحضارة .

فحوالى عام ١٩١٨ ثارت المشكلة فى رأى العام الأمريكى . وفى عام ١٩١٩

أدخل في الدستور الأمريكي تحت عنوان « التعديل الثامن عشر » وفي نفس السنة أيد هذا التعديل بأمر حظر ، أطلق عليه التاريخ قانون (فولستد) .
وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضي الأمريكية كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة :

١ - جند الأسطول كله لمراقبة الشواطئ ، منعاً للتهريب .

٢ - جند الطيران لمراقبة الجو .

٣ - شغلت أجهزة الحكومة واستخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر ، وبيان مضارها وجندت كذلك المجلات والصحف والكتب والنشرات والصور والسينما والأحاديث والمحاضرات وغيرها .

ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ من الدولارات ، وإن ما أصدرته من الكتب والنشرات يبلغ عشرة بلايين صفحة ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم - في مدة أربعة عشر عاماً - لا يقل عن ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ مائتين وخمسين مليون جنيه ، وقد أعدم هذه المدة ٣٠٠ ثلاثمائة نفس ، وسجن ٥٣٢,٣٣٥ نفس ، وبلغت الغرامات ١٦,٠٠٠,٠٠٠ ستة عشر مليون جنيه ، وصادرت من الأملاك ما بلغ ٤٠٤,٠٠٠,٠٠٠ أربعائة مليون وأربعة ملايين جنيه ، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر ، وعناداً في تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ إلى إلغاء هذا القانون ، وإباحة الخمر إباحة مطلقة^(١) .
هذه هي نهاية المطاف ، وهذا هو ختام القصة .

(١) ذكر هذه الإحصاءات الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه « تنقيحات » وعنه عنها الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين ص ٧٧ هامش .

فشل كامل لأمر الحظر . . . وسقوط قرره التعديل الدستورى الحادى
والعشرون . الذى صدق عليه الكونجرس عام ١٩٣٣ .

وذلك هو الموجز التاريخى للمأساة التشريعية بأكملها . . . تلك التى سميت فى
تاريخ الأمة الأمريكية (عهد التحريم) .

لقد فشل القانون ، وعجز السلطان ، وأفلست أجهزة الدولة ، فى منع الخمر
ومحاربة السكيرين ، برغم الاقتناع العقلى الذى كان سائداً فى الأمة بضرر الخمر ،
ولكن الاقتناع العقلى شىء وعمل الإرادة شىء آخر . .

واقد قال أحد الكتاب الغربيين بحق :

« إن طلب شىء فى تصميم وقوة يتطلب روحاً من التعبد والتقشف ، أى
تكريس الحياة لبلوغ مثل أعلى واحد ، اختاره الإنسان بعناية وتفطن . . . إن
الإرادة تغلب دائماً الثقافة ، حينما تكون الثقافة لا المبادئ الدينية هى التى يرتكز
عليها تصميم المرء ونشاطه ومدده الروحانى » .

فشلت الاساطيل ونجح الايمان

هذا موقف ، والموقف الآخر من تاريخنا العربى الإسلامى القديم :

فقد بعث محمد رسول الله وللخمر فى المجتمع العربى سريان وانتشار . تجرى
من نفوس أبنائه مجرى الدم ، يتمدحون بشربها ، ويفتنون فى وصفها ووصف
محالسيها وندمائىها وأقداحها ، ويصور شاعرهم مدى تعلقه بها فيقول :

إذا مت فادفنى إلى جنبِ كرمةٍ تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولم يستطيع امرؤ القيس الشاعر المعروف — وقد بلغه قتل أبيه — أن يدع
الكأس من يده ، ويفارق مجلس ندمائه بل قال كلمته المشهورة : « اليوم خمر
وغداً أمر » .

ولم يعرف المجتمع الجاهل إلا أفراداً معدودين على الأصابع عافوا شرب الخمر مروءة وسجل لهم ذلك التاريخ كمأثرة نادرة ، كزيد بن عمرو ابن نفيل .

ومما يدل على اهتمامهم بالخمر أنهم وضعوا للتعبير عنها أسماء كثيرة ، وكنيات مختلفة ، وألقاباً متعددة — المدامة ، السلافة ، الراح ، الصهباء ، ابنة العنقود ، ابنة الكرم ، بنت الحان ، بنت الدنان ... إلى آخر الأسماء التي بلغت أكثر من مائة (١) .

كما أن تجارتها عندهم كانت في نماء وازدهار .

ومن أدلة شغفهم بها ، وتمسكها من نفوسهم ، أن كثيراً من الصحابة بعد أن نزلت الآيتان الأوليان في شأن الخمر : « قل فيها إثم كبير ومنافع للناس » و « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ولم يكن التحريم فيها صريحاً حاسماً ، لم يزالوا يشربون الخمر ما دام في النص متسع لهم .

ذلك أن الإسلام تدرج معهم في تحريم الخمر — وفقاً بهم ونيسيراً عليهم — حتى نزلت آية المائدة الصريحة القاطعة : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

وهنا رأينا العجب ... رأينا الرجل يحطم كأسه ، ويسفك ما عنده من خمر في الطريق حتى تفيض طرقات المدينة بما كان عند الناس منها .

عن أبي سعيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأيها

الناس إن الله يبغض الخمر ، ولعل الله سينزل فيها أمراً ، فمن كان عنده شيء فليبعه وليتفع به (وذلك قبل التحريم النهائي) قال أبو سعيد : فما لبثنا إلا يسيراً ، حتى قال : إن الله حرم الخمر ، فمن أدركته هذه الآية — يعني آية المائدة السابقة — وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبيع ، قال أبو سعيد : فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها — أى صبوها وأسالوها — (رواه مسلم) .

وعن أنس قال : كنت أسمى أبا عبيدة وأبي بن كعب فجاءهم آت فقال : إن الخمر حرمت . . . فقال أبو طلحة : قم يا أنس فأهرقها . . . فأهرقتها (متفق عليه) .

وعن أبي موسى الأشعري قال :

بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة — أى حلالة — إذ قت حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر — إلى قوله فهل أنتم منتهون » فجئت إلى أصحابي ، فقرأتها عليهم . . . قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضكم وبعض في الإلقاء . . . فقال بالإلقاء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما في باطنهم فقلوا : انتهينا ربنا . . . انتهينا ربنا ! (رواه الطبري في تفسير آية المائدة) .

فهل رأت البشرية مثل هذا انتصاراً على النفس ، وسرعة في الاستجابة ، وقوة في الانقياد للأمر مهما يكن مخالفاً للعادات ، مصادماً للشهوات ؟

الضمير ومكانة الاخلاق :

في أعماق النفس الإنسانية قوة خفية لا تشاهد بالعين ، ولا ترى بالجر ،

ولا يعرفها التشريح والفسولوجيا (علم وظائف الأعضاء) ، إنها قوة معنوية يحسها الإنسان في حناية تهديه إلى الواجب كأنها كشف ينير له الطريق ، وتنجذب به إلى الخير كأنها الأبرة الممغطة تجذب دائماً نحو الشمال ، وتدفعه عن الشر كأنها صوت الأب يحذر ولده ، أو الأستاذ ينصح تلميذه ، فإذا خالف ما تأمر به أو اقترف ما تحذر كانت هذه القوة محكمة تقضى له أو عليه . تقضى له بالراحة والسرور والطمأنينة ، أو تحكم عليه بالألم والقلق والعذاب .

هذه القوة الكاشفة الهادية ، الأمرة الناهية ، المحذرة المحرصة ، الحاكمة المنفذة . هي التي سماها علماء الأخلاق « الضمير » وسماها بعضهم « الوجدان » وسماها الإسلام « القلب » وقال الرسول لمن جاء يسأله عن البر والإثم : « البر ماسكت إليه النفس واطمأن إليه القلب . والإثم مالم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وأن افتك المفتون » وفي حديث آخر : « استفت قلبك وإن افتك الناس وأفتوك وأفتوك » .

إنها قوة تسبق العمل وتقارنه وتلحقه ، فتسبقه بالإرشاد إلى عمل الواجب والتحذير من المعصية ، وتقارنه بالتشجيع على إتمام العمل الصالح ، والكف عن العمل السيئ وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة ، والإحساس بالألم والوخز عند العصيان .

هذا الضمير « أو الوجدان » « أو القلب » هو عماد الأخلاق ، وركيزتها الأولى ، فهو — كما رأينا — يهدي إلى ما تشابه منها ، ويرغب في خيرها ، ويزعج عن شرها ، ويقف ديدباناً يقظاً على حراستها .

والمجتمع ، أى مجتمع ، لا يرقى وينتظم ويسعد بسن القوانين ، وإصدار القرارات وتنظيم اللوائح ، ويقظة رجال السلطة . وإن كان لا يستغنى عن ذلك

كله — وإنما يرقى وينتظم ويسعد ، بوجود القلوب الحية ، وتوافر الضمائر اليقظة بين أبنائه . ومن الحكم المشهورة : « العدل ليس فى نص القانون ، وإنما هو فى ضمير القاضى » .

هذه أهمية الضمير بالنسبة لمن يقضى ويحكم ، أما المحكومون بالقانون فقد قال قائلهم :

لن يصلح القانون فىنا رادهاً حتى نكون ذوى ضمائر تردع

أثر الإيمان فى تكوين الضمير :

والإيمان — بلا ريب — هو أعظم مدد للضمير ، وأقوى « مولد » يغذيه ويمده « بالتيار » الذى يمنحه الضوء والحرارة والقوة المحركة .

ف العقيدة المؤمن فى الله أولاً . وعقيدته فى الحساب والجزاء ثانياً . تجعل ضميره فى حياة دائماً وفى صحو أبداً .

إنه يعتقد أن الله معه حيث كان ، فى السفر أو فى الحضر ، فى الجلوة أو فى الخلوة ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نبوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » « وما تكون فى شأن وما تلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقل ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » وقد كان المشركون يأتون برسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل الوحي من الله يفضح سترهم ، ويكشف أمرهم فقال بعضهم لبعض : غصوا أصواتكم حتى لا يسمعا إله محمد ! فنزل قول الله تعالى « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » .

ويعتقد المؤمن لذلك أنه محاسب يوم القيامة على عمله ، مجزى به إن خيراً أو شراً فما تقدم من عمل لم يذهب بذهاب أيامه ، بل كتبه « قلم التسجيل » الإلهي ، الذي يحصى له وعليه الصغيرة والكبيرة . « إذ يتلقى المتلقيان على اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » « وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون » « أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون » .

وهذه السجلات الوافية لن يضيعها الأهمال ، أو يمحوها مرور الزمان . إنها مستحفظ عند الله حتى يتلقاها صاحبها يوم الجزاء « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

وحينذاك يجد ما كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم ، ويدكر من الأعمال ما كان ناسياً « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شيء شهيد » .

هناك توزن الأعمال من خير أو شر ، من حسنات وسيئات ، بميزان إلهي دقيق لا يعرف كنهه ولا كيفيته ، ثم الحساب الإلهي العادل « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظالمون » .

وبعد ذلك . فريق في الجنة وفريق في السعير » فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً . وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

بهذه العقيدة في الله ، وفي الجزاء في الآخرة ، يصبح المؤمن ويمسى مراقباً لربه محاسباً لنفسه ، متيقظاً لأمره متدبراً في عاقبته ، لا يظلم ولا يخون ، لا يتطاول ولا يستكبر ، لا يجحد ما عليه . ولا يدعى ما ليس له ، لا يفعل اليوم ما يخاف من حسابه غداً ، ولا يعمل في السر ما يستجى منه في العلانية ، ويقول ما قال الصوفي الشاعر :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ، ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه ، عنه يغيب

وسئل بعضهم عن قوله تعالى : رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه « فقال : معناه : لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده .

وقال محمد بن علي الترمذي : اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

وسئل ذو النون : بم ينال العبد الجنة ؟ قال : بخمس : استقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد ليس معه سهو ، ومراقبة لله في السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب .

إن الضمير الذي يريه الإيمان برقابة الله وبحساب الآخرة ضمير حي يقظ مرهف الحساسية . يحاسب المؤمن قبل أن يقوم على العمل : ماذا تعمل ؟ ولماذا تعمل ؟ ولئن تعمل ؟ ومحاسبه بعد العمل : ماذا عملت ؟ ولماذا عملت ؟ وكيف

عملت ؟ هو قاض مستعجل يصدر حكمه سريعاً بالثوبة أو العقوبة وليست عقوبته مقصورة على الوخز النفسى واللذع المعنوى ، إنه أحياناً يقرر عقوبات مادية أيضاً .

قال الحسن البصرى فى قوله تعالى « ولا أقسم بالنفس اللوامة » قال : لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه : ما أردت بكلمتى ؟ وما أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدماً لا يعاتب نفسه .

وقال أيضاً : المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة - ثم فسر المحاسبة فقال - : المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجتى ولكن هيهات . حيل بينى وبينك - وهذا حساب قبل العمل - ثم قال : ويفرط منه الشيء ، فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله - وهذا حساب بعد العمل .

قال مالك بن دينار : رحم الله امرأ قال لنفسه : ألسنت صاحبة كذا ؟ . ألسنت صاحبة كذا ؟ . ثم زمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله فكان له قائداً . وقال ابراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها . . ثم مثلت فى النار ، آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها . . ثم قلت لنفسى : يا نفس ، أى شئ تريدن ؟ قالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً ، قال : فأنت فى الأمنية فاعملى !!

وهذه طريقة اتخذها الرجل فى إيقاظ نفسه ، وإن شئت فقل : فى إحياء ضميره . لقد تخيل المتوقع واقعاً والغائب حاضراً . ثم قال لنفسه بعد أن عرض عليه الصورتين : تخيرى واعملى .

وهناك طريقة أخرى كان الأحنف بن قيس يصطنعها ليذكر نفسه بنار الآخرة وعذابها . كان يجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه : يا حنيف ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

ومن أساليب محاسبة النفس ما روى عن توبة الصمة وكان محاسباً لنفسه أنه حاسبها يوماً ، فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها ، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال : يا ويلتي ؟ ألقى الله بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب !

ومن الأمثلة لأحكام العقوبة التي يصدرها ضمير المؤمن ، فيقبلها ويسرع إلى تنفيذها ، ما روى عن أبي طلحة الأنصاري رضى الله عنه أنه اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه (بستانه) فتصدق بالحائط كفارة لذلك .

أثر الضمير الديني في مجالات الحياة

هذا هو أثر الإيمان في تكوين ضمير المؤمن وتغذيته وتعمده ، وهذا الضمير الديني هو الركيزة الأولى للأخلاق وهو الأساس الأصيل لحياة اجتماعية فاضلة ، حلم بها الفلاسفة صوراً في الخيال ترسم ، أو نماذج على الورق تكتب ، وجعلها الإيمان واقعاً يمشى على الأرض بين الناس .
وأما منا أمثلة لذلك في مجالات شتى :

في أداء الحقوق المالية

تفرض القوانين التي وضعها البشر لأنفسهم ، أو يضعها لهم جماعة منهم ضرائب على أهل المال منهم لقاء ما تقدم لهم الدولة من خدمات ، وأداء لما يجب عليهم من مشاركة في أعباء الأمة وواجباتها ، ولسكنا نجدهم يتهربون من أدائها بكل وسيلة ، ويتحايلون على التخلص من التزامها بكل سبيل !!

وازن هذا بالزكاة في الإسلام ، تلك الضريبة التي فرضها الإيمان عبادة على المسلم ، يتقرب بها إلى مولاه ، ويقدمها طيب النفس ، راضى القلب ، داعياً ربه « اللهم اجعلها مغنماً ولا تجعلها مغرماً » محاولاً أن تكون من أطيب ما عنده وأفضله ، يحاسب نفسه قبل حساب جباتها - العاملين عليها - وقد يبذل أكثر مما يطالب منه موقناً أن ما عنده ينفد وما عند الله باق .

عن أبي بن كعب رضى الله عنه قال :

بعثنى النبي صلى الله عليه وسلم مصداً - أى جايلاً للزكاة - فررت برجل ، فلما جمع لى ماله - من الأنعام - لم أجد عليه فيه إلا ابنة مخاض .
فقلت له : أد ابنة مخاض . فإنها صدقتك . .

فقال : ذاك مالا لبن فيه ولا ظهر (أى لا يقدر أن يركب ويحمل عليه)
ولكن هذه ناقة فتية عظيمة سمينة فخذها .

فقلت له : ما أنا بأخذ ما لم أؤمر به ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم منك قريب ، فإن أحببت أن تأتية فتعرض عليه ما عرضت على قافل . . فإن قبله منك قبلته ، وإن رده عليك رددته .

قال : فإني فاعل .

فخرج معي ، وخرج بالناقة التي عرض على حتى قدمنا على رسول الله ﷺ
فقال له : يا نبي الله : أتاني رسولك ليأخذ منى صدقة مالى وأيم الله ما قام فى مالى رسول الله ولا رسوله قط قبله ، فجمعت له مالى ، فزعم أن ما على فيه ابنة مخاض ، وذاك مالا لبن فيه ولا ظهر ، وقد عرضت عليه ناقة فتية عظيمة ليأخذها فأبى على . وها هى ذه . . قد جئتكم بها يا رسول الله ، خذها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك الذى عليك ، فإن تطوعت بخير أجرك الله فيه وقبلناه منك .

قال : فما هي ذى يارسول الله .. قد جئتكم بها فخذها .
قال : فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبضها .. ودعا في ماله بالبركة ،
رواه أبو داود .

في الاعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة:

ويفرض القانون عقوبات مادية رادعة على من يرتكبون الجرائم ، ولكن
المخالفين للقانون يحاولون الفرار من قبضته ، والتفلت من دائرة سلطانه ، وفي
غفلة من القانون والرقباء عليه ، يقدمون على أعمالهم ، مستخفين عن الأعين ،
أو ظاهرين وقد ألبسوا عملهم الآثم ثوب القانون أو مستندين إلى ذى سلطان
يشفع لهم ، أو يحى ظهرهم ، إلى آخر ما نعرف عن صور التفلت من يد
القانون .

فإذا نظرنا إلى ما يفرضه قانون الإيمان على صاحبه وجدنا صورة أخرى ،
ومنطقاً آخر ، وجدنا المؤمن إذا زلت قدمه فاقترف جرماً — وهو بطبيعته
بشر يخطئ — ويصيب — سرعان ما يستيقظ ضميره ، ويدفعه دفعاً حتى يذهب إلى
يد العدالة ، فيعترف بالجريمة ويطلب العقوبة لنفسه تطهيراً من آثار الإثم ،
وأوزاد العصيان ورجاء في أن تكون كفارة له عن ذنبه ، وشفيعاً له إلى ربه ،
لا يمنعه من الاعتراف أن فيه جلد ظهره أو قطع يده أو إزهاق روحه .

فهذا رجل عربى — هو ماعز بن مالك — يأتى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فيقول : يارسول الله ، ظلمت نفسى وزنيت ، وإنى أريد أن تطهرنى ، فيقول له :
اعلمك لامست ؟ اعلمك قبالت ! لعلك فاخذت ! ويرد الرجل مرة ومرة ومرة ،
والرجل مصر على الاعتراف بخطيئته ، مصر على التطهر منها بإقامة حد الله عليه
ولو كان الرجم بالحجر ، ويأمر الرسول أخيراً بإقامة الحد عليه ، فيقبله صابراً
محسباً ، راغباً في عفو الله ومغفرته .

وهذه امرأة أعرابية تعرف بالغامدية ، تزنى ويضطرب في أحشائها جنين من الزنا ، فيأبى عليها ضميرها المؤمن — وقد ارتكبت الفاحشة سرراً — إلا أن تنظف منها جواراً .

وجاءت رسول الله تقول له : إني قد زينت فطهرني !! فبردها الرسول .. فتأتى في الغد فتقول : يا رسول الله .. لم تردني ؟ لعلك أن تردني كما رددت ما عزاً .. فوالله إني لحبلى !!

فيقول لها : إما لا .. فاذهبي حتى تلدى .

وتذهب المرأة تنتظر الوضع ، وتمضى عليها الأيام والأشهر دون أن تحبو جذوة ضميرها . فما إن ولدت حتى أتت بالصبي في خرقة ، وقالت للرسول : ها قد ولدته .

قال لها : فاذهبي فأرضعيه حتى تفطمية .

وتعود المرأة إلى ديارها ترضع ولدها ، وتمضى مدة الرضاع — وهي في العادة حولان كاملان — أربعة وعشرون شهراً لم يستطع اختلاف الليل والنهار فيها أن ينسى المرأة ما ارتكبت من خطيئة .

وبغير إعلان من محكمة ، ولا تنبيه من حاكم ، ولا حراسة من شرطى ترجع المرأة إلى رسول الله طائعة مختارة ، لتلقى مصيرها الذي رضيته لنفسها ، فتقدم إليه الصبي وفي يده كسرة من الخبز ، وتقول :

هذا يا نبي الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام .

ولم يجد النبي بداً بعد هذا أن أمر بها ، فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجوها . فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضج الدم على وجه خالد ، فسبها .. فسمع نبي الله سبه إياها .. فقال :

« مهلا يا خالد ، فوالذى نفسى بيده .. لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من هل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ! » .

« القصة رواها مسلم »

في رعاية القوانين والامانات :

أصدر عمر بن الخطاب قانوناً يمنع غش اللبن يخلط بالماء .. ولكن هل تستطيع عين القانون أن ترى كل مخالف ؟ وهل تستطيع يده أن تقبض على كل غاش ؟

القانون أعجز من هذا ..

الإيمان هو الذى يعمل عمله فى هذا المجال .

وهنا تحكى القصة المشهورة حكاية الأم وابنتها : الأم تريد أن تخطب اللبن طمعاً فى زيادة الربح ، والبنت تذكرها بمنع أمير المؤمنين .

الأم تقول : أين نحن من أمير المؤمنين ؟ ! إنه لا يرانا ..

وترد الابنة بالجواب المقهم : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا !!

وروى الطبرى : لما هبط المسلمون (المدائن) وجمعوا الأقباض ، أقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال الذين معه :

ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه !!

فقالوا له : أخذت شيئاً ؟

فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ..

فرفوا أن للرجل شأنًا فقالوا : من أنت ؟

فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيركم ليقرظوني ، ولكنني أحمد الله وأرضى بثوابه .. فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه .. فسأل عنه .. فإذا هو (عامر بن عبد قيس) .

وقد نقل إلى عمر كثير من الغنائم التي يخف حملها ويغلو ثمنها ، أداها بأنفسهم جنود مخلصون لوجه الله لا يريدون جزاءً ولا شكوراً ، فقال في إعجاب وتقدير : إن قوماً أدوا هذا لأمناء !

وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فمررنا في بعض الطريق فأنحدر بنا راع من الجبل ، فقال له : يراعى ، يعني شاة من هذه الغنم .

فقال : إني مملوك .

فقال - اختباراً له - : قل لسيدك أكلها الذئب .

فقال الراعى : فأين الله ؟

فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا مع المملوك ، فاشتراه من مولاه ، وأعتقه ، وقال : أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

في السياسة والحكم :

أما في مجال السياسة والحكم - وهو المجال الذي يغرى بالحيف والغرور والطغيان - فقد قصر علينا التاريخ أمثلة شاذة لخلفائنا المهديين ، في العدالة الكاملة التي لا تتحيز لقريب أو تتحيف على عدو ، وفي المساواة القانونية التي لا تعرف الفوارق ، وفي الزاهد الذي يعرض عن الدنيا وفي يده البيضاء والصفراء ، والقوة والسلطان . لقد كان « الضمير » المؤمن هو الذي يحكم ويسود ، فسادت الفضيلة وسادت العدالة والمساواة ، ذلك الضمير الذي جعل خليفة كعمر يدخل

حائطاً لقضاء حاجة فيسمعه أنس يقول — وبينهما جدار الحائط — : عمن
ابن الخطاب أمير المؤمنين !! بنح بخ !! والله لتتقين الله بنى الخطاب ، أو
ليعذبنك !!

هذا الضمير هو الذى جعله فى عام المجاعة المعروف « بعام الرمادة » لا يأكل
إلا الخبز والزيت حتى اسود جلده ، فيكلمه بعض الصحابة فى ذلك ، فيقول :
بنس الوالى أنا إن شبت والناس جباع !

ورأى يوماً فتاة صغيرة تمايل من الجوع . فقال : من هذه ؟ فقال ابنه عبد الله :
هذه ابنتى . قال : فما بالها ؟ . قال : إنك تحبس عنا ما فى يدك فيصيبنا ما ترى .
فقال : يا عبد الله ، بينى وبينكم كتاب الله والله ما أعطىكم إلا ما فرض الله لكم .
أتريدون مى أن أعطىكم ما ليس لكم فأعود خائناً ؟ !

قال ابن كثير^(١) — بعد أن ذكر أعمال عمر الجليلة وفتوحاته العظيمة — :
وكان متواضعاً فى الله ، خشن العيش ، خشن المطعم ، شديداً فى ذات الله ، يرقع
الثوب بالأديم — أى الجلد — ويحمل القربة على كتفيه ، مع عظم هيئته ، ويركب
الحمار عرياً ، والبعر مخطوماً بالثيف ، وكان قليل الضحك لا يمازح أحداً ، وكان
نقش خاتمه : « كفى بالموت واعظاً يا عمر » .

وهذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب يقول له جعد بن هبيرة : يا أمير
المؤمنين ، يأتىك الرجلان ، أنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله والآخر لو استطاع
أن يذبحك لذبحك ، فتتضى لهذا على هذا !

قال : فلهزه على وقال : إن هذا شئ لو كان لى لفعلت ، ولكن إنما ذاك
شئ الله .

(١) فى كتابه « البداية والنهاية » .

ويحدثنا الشعبي أن علياً رضى الله عنه ضاعت منه درع فوجدها عند نصرانى
فأقبل به إلى القاضى « شريح » بمخاصمه ، وقال على : هذه الدرع درعى ولم أبع
ولم أهب .

فقال شريح للنصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟

فقال النصرانى : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب !

فالتفت شريح إلى على وقال : يا أمير المؤمنين ، ألك بيعة ؟

فابتسم على وقال : أصاب شريح ، مالى بيعة .

فقضى بالدرع للنصرانى ، فأخذها ومشى خطوات ثم رجع ، فقال : أما أنا
فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء : أمير المؤمنين يديننى إلى قاضيه ، فيقتضى فيقضى
عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . الدرع والله درعك
يا أمير المؤمنين ، سقطت منك وأنت منطلق إلى صفين .

قال : أما إذ أسلمت فهى لك .

كان الضمير المؤمن هو الذى يحكم الخليفة والقاضى ، فلم يحاول الخليفة المؤمن
أن يتخذ القوة لأخذ حقه أو يؤثر على القاضى ليحكم فى صالحه ، ولم يحاول القاضى
المؤمن أن يطوع النصوص لإرضاء لأمره — رغم ما يعتقد من صدقه — فالشرع
سيد على الجميع : الأمير والسوقة ، والمسلم والنصرانى سواء .

وكان على رضى الله عنه يلبس الفميص — وقد اشتراه بثلاثة دراهم —
ويقول : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى
عورتى !!

ومفتاح هذا الزهد وتلك العدالة ما قاله بعضهم : كان على يمشى فى الأسواق
وحده وهو خليفة ، يرشد الضال ، ويعين الضيف ، ويمر بالبيع والبقال ، فيفتح

عليه القرآن ، ويقرأ : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » ثم يقول : نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من الناس .

الرغبة في الدار الآخرة ، وحسن العاقبة عند الله ، هي السر السكامن وراء هذه المثل الرفيعة ، والأعمال الكبار .

وهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الراشد الذي يقول فيه مالك بن دينار : يقولون : مالك زاهد ! أى زهد عندي ؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أته الدنيا فاعرة فاهها ، فتركها جملة !

أجل ، فلم يسكن له في خلافته سوى قبص واحد يلبسه ، فكان إذا غسلوه جلس في المنزل حتى ييبس . وهو الذي نشأ وشب في أحضان النعم .

ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تقرضه درهما يشتري به عنباً ، فلم يجد عندها شيئاً . . فقالت له : أنت أمير المؤمنين وليس في خزائنك ما تشتري به عنباً ؟ !

فقال : هذا أيسر من معالجة الأغلال والأكل غداً في نار جهنم .

وقد اجتهد في مدة ولايته - مع قصرها - حتى رد المظالم ، وصرف إلى كل ذي حق حقه ، وكان مناديه ينادى في كل يوم : أين الغارمون ؟ أين الراغبون في الزواج ؟ أين اليتامى ؟ أين المساكين ؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء .

ومع عدله وزهده ، وردده للمظالم ، وشدته على نفسه وأقاربه كان يناجى ربه فيقول : اللهم إن عمر ليس أهلاً أن تناله رحمتك ، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر .

وأثنى عليه رجل فقال له : جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين ،

قال: بل جزى الله الإسلام غنى خيراً^(١).

لقد رد الحق إلى نصابه ، فما هو إلا خريج مدرسة الإسلام ؟ وصياغة مصنع الإيمان .

لقد أطلنا في سرد هذه الأمثلة ، لأن الحكم الذى لا يقوم عليه رجال مؤمنون ، والسياسة التى لا يراعها ضمير مؤمن إنما هى كما قال الشاعر :

كمثل الطبل يسمع من بعيد وباطنه من الخيرات خال

في التجارة والمعاملة :

يروى الإمام الغزالي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة دراهم ، وبعضها بعشرة فباع غلامه فى غيبته لأعرابى شقة من الخمسات بعشرة فلما عاد ابن المنكدر وعرف ، لم يزل يطلب ذلك الأعرابى المشتري طول النهار حتى وجده ، فقال له :

إن الغلام قد غلط ، فباعك ما يساوى خمسة بعشرة .

فقال الأعرابى : يا هذا قد رضيت .

فقال : وإن رضيت . فإننا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ، فاختر إحدى ثلاث خصال : إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة ، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك .

فرد عليه خمسة ، وانصرف الأعرابى^(٢) .

ويروى الغزالي أيضاً أنه كان عند يونس بن عبيد حلال مختلفة الأيمان ، منها

(١) هذه الأخبار عن عمر بن عبد العزيز ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٩ ،

ص ١٩٢ وما بعدها .

(٢) الإحياء ربيع العادات كتاب الكسب ص ٧٢ ، ٧٣ .

ضرب ، قيمة كل حلة منه أربعائة درهم ، وضرب كل حلة مائتان ، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابى وطلب حلة بأربعائة فعرض عليه من حلل المائتين . فاستحسنها ورضيها ، فاشتراها - أى بأربعائة - فمضى بها وهى على يديه فاستقبله يونس . فعرف حلته . فقال للأعرابى بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعائة . فقال : لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها . فقال هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأما ارتضيها . فقال له يونس : انصرف معى فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها . ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتى درهم . وخاصم ابن أخيه فى ذلك وقاتله . وقل : أما استحيت ؟ أما اتقيت الله ؟ تربح مثل الثمن ، وتترك النصح للمسلمين ؟ ! فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ! !^(١)

إن التجار عادة يغلب عليهم حب الكسب إلى حد الجشع حيناً ، والخيانة والظلم أحياناً . فإذا غاب الإيمان هان المال فى سبيل المثل الأعلى ومكارم الأخلاق . وايست هذه النماذج خاصة بالقرن الأولى وعهد السلف الصالح من المسلمين . فلا زال الإيمان أثره إلى اليوم فى كل بلد من ديار الإسلام ، وإن اختلف الكم والدرجة عما كنا عليه من قبل .

يذكر الأستاذ أبو الحسن الندوى بعض ذلك فى مقالة له^(٢) يقول :

حدثنى بعض الثقات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف فى الحجاز ، أن تجار مكة كانوا فى ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم ، والنظر فى مصالحهم والإخلاص والإيثار لهم ، قال : كان بعض التجار إذا أتاه زبون فى آخر النهار وقد باع ما يكفيه لقوت يومه وما حدده من الربح والوارد ، ولم يكن زميله

(١) الاحياء وبع العادات كتاب الكسب ص ٧٢ ، ٧٣

(٢) نشرت فى مجلة « البعث الإسلامى » .

الجار سعيد الحظ في ذلك اليوم ، قال له في لطف وهدوء : « دونك هذا الدكان الذى هو بجوارى ! تجده عنده ما تجده عندى ، وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم ، فهو أحق بأن تشتري منه » .

ويتحدث الأستاذ محمد أسد^(١) النمساوى عن مدينة إسلامية عربية كبيرة « هي دمشق » فيذكر انطباعاته كما يلي :

وقفت على ذلك الاستقرار الروحى في حياة سكانها ، إن أمنهم الباطنى كان يمكن أن يرى في الطريقة التى كان أصحاب الدكاكين يعامل بها بعضهم بعضاً ، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة ، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة ، أولئك كانوا يبدون وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد ، حتى إن صاحب دكان منهم لترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه ، كلما دعت حاجة إلى التفتيش بعض الوقت ، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتسأل فيما بينه وبين نفسه ، ما إذا كان ينتظر عودة البائع ، أو ينتقل إلى الدكان المجاور ، فيتقدم التاجر المجاور دائماً — التاجر المزاحم — ويسأل الزبون عن حاجته ويبيعه ما يطلب من البضاعة — لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب — ويترك له الثمن على مقعده ، أين ؟ فى أوربا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفة ؟ « الطريق إلى مكة ص ١٦٧ باختصار » .

في المواساة والإيثار :

ويتجلى أثر هذا الضمير الذى صنعه الإيمان بالله واليوم الآخر في مجال المواساة والإيثار بالمال والنفس . فكان أن رجل يحب لأخيه ما يحب لنفسه . ويبذل له من ذات يده ، ومن جهده ووقته ما يبذله لأعز بنيه عليه ، وأحب أهليه إليه . وقد يرتقى الإيمان بأحدهم ، فيؤثر أخاه على نفسه . فيجود له بالشيء ، وهو

(١) هولويوبولد فايس الذى أسلم بعد أن أقام في بلاد المسلمين مدة طويلة ودرس الإسلام بقلته وألف كتباً منها « الإسلام على مفترق الطرق » و « الطريق إلى مكة » .

أحوج ما يكون إليه ، كل ذلك ولا قانون يلزمه ، ولا حكومة تطالبه ، ولا أجهزة راقبه ، ولا عقوبة تسلط عليه ، إنما هو دافع الإيمان بين جنبيه ، يحفز به على عمل الخير ، والتطوع بالبر ، ابتغاء ما عند الله ، وما عنده خير وأبقى .

روى مالك في موطئه أنه بلغه عن عائشة رضى الله عنها أن مسكيناً سألها وهى صائمة ، وليس فى بيتها إلا رغيف ، فأمرت جارية لها أن تعطيه الرغيف ، فقالت الجارية : ليس لك ما تفطرين عليه ! فقالت : « أعطه إياه » ففعلت ، وربما يظن بعض الناس أنها إنما آثرت بالرغيف لهوانه عليها ، فليسمعوا هذه القصة التى رواها المؤرخون والمحدثون :

بعث معاوية بن أبى سفيان بثمانين ألف درهم إلى عائشة ، وكانت صائمة ، وعليها ثوب خلق ، فوزعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين ولم تبق منه شيئاً . فقالت لها خادماتها : يا أم المؤمنين ما استطعت أن تشتري لنا لحماً بدرهم تفطرين عليه ؟ فقالت : يا بنية لو ذكرتنى لفعلت (١) ! .

إن الصائمة التى آثرت المسكين بالرغيف وليس فى بيتها ما تفطر عليه غيره ، آثرت بمئات الألوف من الدراهم دون أن تذكر بطنها الجائع ، ولا ثوبها الخلق .

ومثل عائشة زينب بنت جحش أم المؤمنين ، التى كانوا يلقبونها : « أم المساكين » حدثت برزة بنت بائع أنه لما خرج العطاء أرسل إليها عمر نصيبها منه ، فلما دخل عليها حامل المال ، قالت : غفر الله لعمر ! غيرى من أخوانى كان أفقرى على قسم هذا منى ، فقالوا : هذا كله لك . قالت : سبحان الله . واستترت منه بثوب ثم قالت : صبوه واطرحوا عليه ثوباً .

قالت راوية القصة : ثم قالت لي : أدخل يدك فاقبض منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان ، من أهل رحها وأيتامها ، فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب . فقالت لها برزة بنت باع : غفر الله لك يا أم المؤمنين . والله لقد كان لنا في هذا حق ، فقالت : فلكم ما تحت الثوب .. قالت : فكشفنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهما^(١) .

وأخذ عمر بن الخطاب أربعمائة دينار ، فجعلها في صرة ، ثم قال لغلامه : اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ثم تله « تشاغل » في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب بها الغلام إليه ... فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك . فقال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالى يا جارية ، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفدها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره ، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال : اذهب بها إلى معاذ وتله (تشاغل) في البيت حتى تنظر ما يصنع ، فذهب بها إليه ، فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك . فقال : رحمه الله ووصله . تعالى يا جارية ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا فاطلعت امرأة هي امرأة معاذ وقالت : نحن والله مساكين ، فأعطينا ، فلم يبق في الخزقة إلا ديناران فرمى بهما إليها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره ، فسر بذلك فقال : إنهم إخوة ، بعضهم من بعض^(٢) !!
وروى ابن سعد أن عبد الرحمن بن عوف باع لعتان بن عفان أرضاً له بأربعين ألف دينار ، فقسم ذلك في الفقراء من أقاربه ، وفي ذى الحاجة من الناس ، وفي أمهات المؤمنين^(٣) .

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٢٠١

(٢) رواه الطبراني في الكبير .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٢ ، ١٣ .

وروى أن عيراً (قافلة تجارية) قدمت لعبد الرحمن ، فكان لأهل المدينة يومئذ رجلة ، فنالت عائشة : ما هذا ؟ قيل لها : هذه عير عبد الرحمن بن عوف قدمت ، ففالت عائشة : أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كأنني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط ، يميل به مرة ويستقيم أخرى ، حتى يفلت ولم يسكده . . . فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال : هي وما عليها صدقة ، قال راوى القصة : « وكان عليها أفضل منها ، قال وهي يومئذ خمسمائة راحلة » . بهذه السهولة جاد الرجل بكل هذا المال وكل هذه التجارة التي ارتجت لها المدينة وقال كلمته : هي وما عليها صدقة !

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل . وكان أحب أمواله إليه بَيْرَ حَا (اسم حديقة له) وكانت مستقبله المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قام أبو طلحة إلى رسول الله « ﷺ » فقال : يا رسول الله ، إن الله تبارك وتعالى يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالى إلى بيرحاء ، وإنها صدقة . أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَحْ ذَاكَ مال رابح ! ذاك مال رابح » .

وذكر الغزالي في الإحياء عن ابن عمر قال : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : فلان أحوج إليه منى ، فبعث به إليه . فبعث به هو أيضاً إلى آخر براه أحوج منه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول ، بعد أن تداوله سبعة !

ولا يحسبن القارىء أن هذه كانت حوادث فردية ، لاتصور حقيقة المجتمع كله ، فإن أمثال هذه المواقف كثيرة جداً ، وهي تصور بحق روح المجتمع واتجاهه ، وفلسفته ونظرته إلى المال والحياة .

روى البخارى في الأدب المفرد عن ابن عمر قال : « لقد أتى علينا زمان — أو قال

حين - وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم » .

وحسبنا أن القرآن الكريم سجل الانتصار في المدينة - وهم جمهور المجتمع الإسلامي بها - هذه الصورة الراقية من صور الإخاء والمواساة والإيثار فقال :
« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ^(١) » .

اعتراضات وشبهات :

لقد تبين لنا - فيما سبق - أثر الدين والإيمان في تكوين الأخلاق الفاضلة وتربية الضمائر اليقظة ، وضربنا لذلك أمثلة من نماذج بشرية صنعها الإيمان . فإذا هي فضائل مجسدة ، تمشي على الأرض .

والأمر لا يحتاج إلى أمثلة ، فأثر الدين في هداية الإنسان وصنع الحضارة أثر لا ينكر ، وبحق ما قاله أحد المؤرخين : لا ريب أن الدين كان أعظم قوة في التاريخ هذبت توحش الإنسان .

وذهب بنيامين كيد kad إلى أن جميع الحضارات قامت على أساس الجزاءات الأخروية التي قدمها الدين للأخلاق .

وربما اعترض بعض الناس على صلة الدين بالأخلاق أن هناك بعض الملحدين يتقيدون بالفضيلة والخلق وهم لا يؤمنون بالدين ، ويرد على ذلك « تلرد » أنه يعتقد أن الحياة الشريفة عند بعض الملحدين ترجع إلى الأثر المستمر لتربيتهم الدينية ، وهو ماسماه كارليل « النور اللاحق » للمسيحية - إذ هو يتحدث عن ملحدى الغرب

من المسيحيين - وهذا هو الذى أشار إليه «رينان» حين كتب عبارته المشهورة :
« إننا نعيش على ظلال لظل - يقصد ظل الدين - فعلى أى شيء سيعيش الناس
بعدنا ؟ » - كيف يتحكمون فى شهواتهم ودوافعهم إلى الكذب والسرقة والقتل
حين يختفى حتى هذا «النور اللاحق» للعقيدة على فراش الموت ؟

وقد كتب دستوفسكى أعظم قصصى فى العالم ، ليبين كيف أصبح الإنسان
« متلبساً » بالشياطين حين هجر الله ^(١) .

وليس هذا ما يقرره المؤمنون بالدين فحسب ، بل هذا ما يعترف به المنصفون
من المتدينين والمنكرين على السواء .

فن الملحد من يرى الدين خرافة ، ولكن الحياة لا تستقيم بدونه ، ويرى
الأخلاق لاغى لما عن هذا الوهم فى رأيه ، ويقول آخر : « لو لم يكن الله موجوداً
لوجب علينا أن نختاره » وذلك لما يرى من أثر الإيمان بهذا الإله فى النفس وفى
الحياة . ويقول الأديب الفرنسى الشهير « فولتير » ساخراً : لم تشككون فى الله
ولولاه لخانتنى زوجتى ، وسرقنى خادمى ؟

ويقول ثالث : إنى لا أعتقد فى وجود جهنم ، ولكن أعتقد أن الفكرة عنها قد
باعدت بين كثير من الناس وبين ارتكاب الشر . والذى أراه أن الشاب حين
يكشف أن جهنم لا وجود لها فإنه لا يحفل بشيء ، ووظيفة الأخلاق أن تمثل الكل
فى مقابل الجزء ، والمستقبل فى مقابل الحاضر ، وهذا بالضبط ما يسعى الدين إلى عمله ،
الدين - كما يقول هوفدنج - « هو الاحتفاظ بالقيم ، وبغير الجزاءات الدينية تصبح
الأخلاق مجرد تقدير ، فيختفى الإحساس بالواجب ، ويقف كل شاب جميع ذكائه
وعلمه على التحايل على الوصايا » .

(١) من كتاب (مباحج الفلسفة) لول ديوارنت ج ٢ ص ٢٧٦

الخوف من الله واليوم الآخر وأثره في التربية :

هذه بعض شهادات الملتحقين في أثر الدين في الخلق والسلوك .. ولكن قوماً مع هذا يشعرون أن طريقة الدين في التخويف من الله ومن الحساب في الآخرة تنافي تربية الشخصية الحرة النامية المستقلة !

ونقول لهؤلاء — فضلاً عما تقدم — إن تجريد التربية من عنصر الخوف تجريداً تاماً مطلقاً ، إنما هو ادعاء مزعوم ، وخيال موهوم ، وإنكار لواقع الإنسان الذي خلقه الله يرجو ويخاف ، ويأمل ويخشى ، وإذا كان الخوف أمراً لا بد منه فليكن من مالك الملك وخالق الخلق وصاحب الأمر كله ، ولتغلق منافذ الخوف جميعها بعد ذلك ، فلا خوف من مخلوق صغراً أو كبيراً ، إلا ما اقتضته الجبلة . وذلك في الحق هو منبع الشجاعة ، ومصدر القوة ، وهوشأن المؤمنين « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله » « يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » « فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً » .

وفي الآثار : « من خاف الله خوف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء » .

على أن خوف المؤمن من ربه إنما هو خوف من قاض عادل أن ينزل به العقوبة على جرمه ، لا خوف من ملك غشوم يأخذ البريء بذنب المسيء . إنه أشبه بخوف الابن من غضبة أبيه عليه إذا انحرف عن سواء الطريق ، وهو مع هذا خوف مشوب بالرجاء في عفوا الله ، والأمل في سعة رحمته . على سنة أولئك الذين وصفهم القرآن بقوله : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه » « أم من هو قانت آتاء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » .

والقرآن يرشد دائماً إلى الحد الوسط بين الخوف والرجاء ، فلا ينبغي أن ينتهي الخوف إلى اليأس من روح الله ، كما لا ينبغي أن يصل به الرجاء إلى الأمن من مكر الله « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ، كما « لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

وصفات الله تعالى في القرآن من شأنها أن تؤدي إلى هذا التوازن في نفس المؤمن « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » . « اعلّموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » « نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم » .

فكيف يعد مثل هذا الخوف منافياً للتربية المثالية ، ومعوقاً لنمو الشخصية ؟ .

الدكتور (هنرى لنك) يرد على خصوم التربية الدينية :

إننا نكل تفصيل الرد على هؤلاء المشنعين على الدين وطريقته في التربية ، إلى الدكتور « هنرى لنك » الطبيب النفسى الأميركى ، صاحب كتاب « العودة إلى الإيمان » إنه يخطئ النظريات التى أشاعتها بعض المدارس النفسية الحديثة .
فيقول :

« إن تربية الأطفال لمن أشق الواجبات وأخطرها وأدقها ، ومشاكلها شديدة التعقيد والعسر ، وهى بعد ذلك ذات أوجه متناقضة عند حلها يكون معها الآباء فى سبيل الحاجة إلى أية معونة خارجية ، مهما بلغت درجة تواضعها وبساطتها . .

وقد كان طبيعياً ، بعد أن استغنى الآباء المستنيرون عن المعتقدات الدينية ، وضربوا بها عرض الحائط ، أن يولوا وجوههم شطر مصدر جديد من مصادر المعونة . فلم يجدوا أمامهم سوى علم النفس الخاص بالأطفال ، ولكن علم نفس

الأطفال لم يكن بعد ، على استعداد لتقديم المعونة لهم ، لأن الثقة بهذا العلم لم تكن قد تعدت الثقة النظرية حتى ذلك الوقت . وكان البرهان العلمى حينذاك فى مهبه صغيراً برغم تعدد نظرياته .

ومن هنا بدأ الآباء يعتقدون هذه النظريات التى كان أبرزها أن العقوبة البدنية ضارة من الوجهة النفسية ، وأنه من الأفضل إقناع الطفل بعمل شىء ما ، لا إرغامه بالقوة والعنف عليه ، وأنه لا يجوز كبت الطفل بل على العكس يجب منحه الفرصة كي يعبر عن ذاته .. وأنه يجب منح الأطفال علاوة منتظمة حتى يمكنهم إدراك قيمة المال ، وأن بعض الأطفال يولدون بطبيعتهم عصبيين أو ذوى حساسية مرهفة ، وعليه فلا يجوز إرغامهم على أن يفعلوا ، وبعملوا ما يفعله ، ويعمله غيرهم .

وللأسف . لم يظهر أى برهان علمى أو نفسى يؤيد هذه النظريات ، بل بالعكس ثبت أن كل هذه النظريات خاطئة ^(١) .

وهو إذ يهدم هذه الأفكار التى راجت باسم العلم يوماً ما ، يرى ضرورة العودة إلى الدين ، واتباع منهجه فى تربية الأطفال وتهذيب سلوكهم ، وتقويم أخلاقهم فليس أصلح للطفل من أن تقول له : هذا حسن ، لأن الله أمر به ، وأنه يحب ويرضاه ويشيب عليه بالجنة ، وبأن هذا قبيح لأن الله نهى عنه وأنه ينفذه ويسخطه ، ويعاقب عليه بالنار .

ولهذا ينكر على الآباء الذين يتخلون عن هذه الطريقة المقبولة إلى طرائق لم يثبت صحتها ولا نفعها فيقول ^(٢) :

« فقد سمعنا الكثيرين من الآباء يرددون : أنهم لا يبعثون بأولادهم إلى الدروس الدينية أو إلى محلات العبادة ، حتى يصلوا إلى السن التى يدركون عندها ما يحرى . غير أن ما يضايقهم ، ويقض مضجعهم هو هذا السؤال :

(٢) العودة إلى الإيمان ص ٢٢٠

(١) العودة إلى الإيمان ص ١١٢

ترى هل يكتسب هؤلاء الأولاد ذلك الشعور القوى الذى يمكنهم به أن يميزوا بين الخطأ والصواب ؟ هل يؤمنون بتلك المثل الخلقية الواضحة التى آمنابها منذ طفولتنا ؟

لقد قلنا فيما مضى إن بعض الأعمال خطأ والبعض الآخر صواب ، لأن الله سبحانه وتعالى قد بين ذلك ، أو لأن كتابه قد أورد ذلك بمعنى آخر . وقد تكون هذه الطريقة فطرية بدائية ، غير أنه مما لا شك فيه أن تأثيرها كان طيباً ، فقد عرفنا على الأقل الكثير من طيب الأفعال وخيئتها . أما الآن فإننا لا نقول لأولادنا إلا أن هذا التصرف خطأ ، وأن ذاك صواب ، لأننا نرى ذلك ؛ أو لأن المجتمع قد اتفق على ذلك . فهل لهذا الرد من القوة والبيان ما سبقه ؟ وهل له مثل أثره ؟ وهل يكتسب أطفالنا القيم الخلقية الأساسية للحياة دون الحاجة إلى ضغط العقائد الدينية ، تلك القيم التى نقبلها ونسلم بها حتى بعد أن أصبحنا لا نسلم بمصدرها الإلهى ؟ « ص ١١٠

ويعود إلى ذلك حين يتحدث عن مقدار ما يسديه الدين من عون للآباء فى تربية أبنائهم وتهذيبهم ، وتسكوين شخصياتهم الفاضلة فيقول^(١) :

وبدهى أن الأطفال يختلفون ، سواء بطبيعتهم أم بحسب وراثتهم ، ولكن مهما كانت هذه الطبيعة أو الوراثة طيبة جيدة ، فإنه لا يمكن غرس العادات الأساسية بغير « النظام » ولما كان استياء الطفل من النظام واتجاهه عكسياً ، كلما حاولت إنماء العادات الطيبة فيه ، أمراً لا مفر منه ، كان من الواجب استخدام كل وسيلة ذات تأثير أو ذات صفة إرغامية ، تساعد على الإصرار فى اكتساب هذه العادات . والواقع أن معظم الآباء يكونون فى أشد الحاجة إلى الاستعانة بنصائح غيرهم ، فى أثناء عملية غرس العادات المرغوبة فى أطفالهم .

وإذا بحثنا من الناحيتين : العقلية والنفسية ، وجدنا أن أعظم مصادر هذا العون هو الدين . فالإيمان بوجود الله ورساله وكتبه يهيء للأبرار ملجأ أميناً موثقاً به يلجأون إليه ، ويضع بين أيديهم ساطعة كبرى على أطفالهم كانوا يفتقرون إليها حتى لو لم يؤمنوا بها .

فإن هؤلاء الآباء الذين كانوا يتساءلون كيف ينمون عادات أولادهم الخلقية ويشكلونها ، في حين تنقصهم هم أنفسهم تلك التأثيرات الدينية التي كانت قد شكلت أخلاقهم من قبل ، كانوا في الحقيقة يجابهون مشكلة لاهل لها ، فلم يوجد بعد ذلك البديل الكامل الذي يحل محل تلك القوة الهائلة التي يخلقها الإيمان بالخالق وبناموسه الخلقى الإلهي في قلوب الناس .

فتجد الآباء الذين تحرروا من الإيمان عن طريق وثاقهم وإعمال فكرهم خيارى متسائلين على الدوام .

إذن كيف يتسنى لأولئك الخيارى أن يكونوا أنفسهم ملجأ لأولادهم ؟
ففي حالة عدم وجود مثل هذا الملجأ الدينى الموثوق به ، لا يسع كل أب إلا أن يفكر ويمعن في التفكير ، ويبحث ويطيل البحث قبل أن يبين لطفه مدى الخطأ والصواب ، والخير والشر ، في كل حالة من الحالات العديدة التي تصادفه يومياً ، وفي كل عادة من العادات المختلفة مما يود غرسها في طفله .

وكلما كبر الطفل ونما ، وكلما أصبح واقعاً تحت تأثير سلطات المجتمع المتضاربة المقاصد ، المختلفة الميول والانجذابات — كاللدرسة والجيران وزملائه وبلدته — زاد الأمر صعوبة ، وأصبح أشد تعقداً ، فالتربية واجب شاق . كما أن هذا الارتباك الكائن في عتول معظم الآباء هذه الأيام خير شاهد على صدق هذه الحقيقة .

فالدين هو القوة الوحيدة، التي يمكنها أن تعين الإنسان على حل تلك المشكلات

الخلقية والمقايمة التي لا مفر منها ، والتي لا نفقا تقض مضاجع الآباء والأبناء
والمجتمع كله . وإن نجد في هذا العالم المضطرب ، الذي لا تنغفى فيه فترة حتى ينور
الناس دلي الساعة القائمة محاولين تغييرها ، خير الله وحده هو الحى الباقي الذى
لا يتغير ولا يتبدل .

فذلك الحافل الذى اعتنق منذ طفولته المبكرة فكرة وجود الله بصفته المشرع
الأعلى للخير والشر ، يكون قد اكتسب الحافز الجوهرى للذى سيدفعه حينئذ
نحو العادات الطيبة . فبدلاً من أن يقوم دمرح أعماله على ما يحبه وما لا يحبه ،
نراه يقوم على الصواب والخطأ . فهو قد يرى عدم إطاعة أمه يوماً ما ، ولكنه
يدرك جيداً أنه قد أخطأ ، وهو قد لا يجب أن يعيد لأمه ما تبقى معه من نقود
بعد أن اشترى لها مطالبها ، ولكنه يعلم تماماً أن ذلك ليس بصواب ، وهو
قد لا يجب أيضاً أن يتنازل عن أنانيته مع زملائه فى اللعب ، ولكنه يرغب نفسه
على أن يفعل ذلك .

وطبيعى أن مثل هذه الطريقة ليست من السهولة أو البساطة بكان ، ولكنها
مرعان ما تنمى فيهم عادة التمييز بين الدوافع الأنانية والشخصية ، وبين العادات
الطيبة ، أو الاختصار بين الالذة وبين الشعور بلواجب .

فما لا شك فيه أن تغلب المرء على كسله وبلاذته ، وقهره لدوافعه الطبيعية
الكامنة فيه ، هو الطريقة الصحيحة لاكتسابه العادات اللازمة للشخصية الناجحة .
فتقدر ما يفرضه الدين على الحافل من هذه الصفات الطيبة التي ينبغي له تعلمها ،
ينبغي الحافل حينئذ إلى اكتساب صفات الشخصية الفاضلة . « ص ١١٩ وما بعدها
ويؤكد الدكتور « لك » أن الدروس الدينية ، والتردد على بيوت العبادة
لها فى نفس الصبي أعماق الأثر ، وأطيب الثمرات ، كما أثبتت ذلك التجارب

والمقارنة بين الأطفال بعضهم وبعض . وفي ذلك يقول : (١)

« ومهما بلغت المساوىء التى نلسمها فى أماكن العبادة ، والاستماع إلى العظات الدينية ، فإن هذه البيوت تساعدنا على غرس الأسس السليمة للخطأ والصواب ، والأعمال الأنانية وغير الأنانية فى نفوس الأطفال . كما أنها تساعد على غرس الإيمان بالله والاعتقاد فى ناموسه الخلقى الإلهى كمصدر لتلك الأسس . ولذا فهى ذات فائدة عظمى للآباء والمجتمع ، كى يبنوا الأسس الضرورية لتكوين الخلق القويم والشخصية الناجحة . وبناء على ذلك ، ليس من المستغرب أن يدلنا الاختبار السابق الذكر على أن الطفل الذى يستمع إلى الدروس الدينية يتمتع بصفات شخصية أفضل ممن لا يحضرها ، وأن الطفل الذى يذهب والداه إلى المعبد ، ذو شخصية أحسن من الطفل الذى لا يذهب والداه إليه .

وقد اتضح لى بعد دراسة كاملة لعشرة آلاف شخص ، أن أولئك الذين يواظبون على الذهاب إلى دور العبادة ، كانوا ذوى صفات شخصية أفضل ممن لا يذهبون » ص ١٢٢ .

ولا يقتصر على ذلك ، بل يلح على التبكير بإعطاء هذه الدروس للأطفال وأعوادهم غضة ، ولو لم يفهموا كل ما يقال لهم ، ويرى من الخطأ والخطر تأخير هذه الدروس الدينية إلى السن التى يفهمون فيها . ص ١٣٠ .

يقول : « إن الوقت الأمثل لتعليم الطفل كيف يخضع دوافعه لقيم عليا ، هو السن التى يستطيع فيها أن يتقبل ما يقال له دون أن يفهمه .

فإذا استقر رأى الآباء على عدم إرسال أولادهم إلى الدروس الدينية ، حتى يبلغوا السن التى يفهمون عندها ما يستمعون إليه ، فهم فى الحقيقة يتبعون مبدأ

هاماً ، لأن الوقت يكون قد فات لإصلاح ما فسد إذا بلغ الطفل السن التي يفهم بها كل ما حوله ، فإنه حينئذ يكون قد أضاع من عمره سنين ثمينة . « ص ١٣٠

ويختتم حديثه عن التربية والتعليم بهذه الأسطر الناصحة :

« العودة إلى الإيمان » ص ١٨١ .

« إن ميدان التعليم انى ميسر الحاجة إلى جمع القيم والحقائق الأساسية التي تبحث في الطبيعة البشرية وتصنيفها ، حتى يمكن المحافظة على تلك التقاليد النبيلة التي اكتسبها الجنس البشري ، ووضعها في المكان اللائق بها ، وحتى يمكن إخضاع الفطرية الفسكورية لنظام الحياة غير الأنانية . وإن تجد ما يجمع بين تلك القيم الماضية القديمة والمثل الحاضرة الحديثة غير الدين » . ص ١٨١

خرافة « الضمير بلا إيمان »

ويزعم بعض الناس أنه يمكن الاستغناء عن الدين والإيمان بـ « الضمير » واتخاذها أساساً ومقياساً للأخلاق بدل الدين .

وهذا ما حاوله الفريون حينما أرادوا أن يتحرروا من سلطان الكنيسة ورجال كهنوتها وتدخلهم فيما ليس من شأنهم من أمور العلم المتغير والحياة المتجددة . ووقوفهم مع الأباطرة والأمراء الظلمة الجائرين . لقد ثاروا على كل ما يتصل بالكنيسة . حتى عقائدها وأخلاقها .

ورأى القائلون على الثورة العلمانية الجديدة أن يستعوضوا عن الدين بوحى « الضمير » وأن يتخذوا وحي الضمير الأساس الذى لا يخطئ ، والمقياس الذى لا ريب فيه ، بالنسبة للأخلاق .

ولم ينته الأمر عندهذا الحد ، فقد بدأ القوم يتراجعون عن تطرفهم شيئاً فشيئاً . يقول استاذنا الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه « الإسلام والعقل » :

« وحينما هدأت الأمور في الغرب ، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي ، بعد الصراع العنيف ، بين الكنيسة والثوار ، الذي دام فترة طويلة من الزمن ، أخذ العلماء يراجعون أنفسهم ، ويدرسون في هدوء ودعة المبادئ التي قامت عليها الثورة المنتصرة ، والأهداف التي حددت ، والغايات التي رسمت ، والقواعد التي خطت . ثم هذبوا في كل ذلك وغيروا وبدلوا . وكان مما راجعوا أنفسهم فيه : مسألة « الضمير » .

ولما استعرضوا التاريخ والوقائع والمشاهدات ، يستنيرون بها في أمر الضمير ، رأوا كما قال الأستاذ أندريه كريسون . « أن الناس في كل العصور ، وفي جميع الأقطار ، يستشيرون ضمائرهم ، ولكنهم لا تسمعهم جميعاً لحناً واحداً إذ أن ما يظهر عدلاً وخيراً لبعض النفوس المخلصة في عصر خاص ، لا يظهر عدلاً ولا خيراً لنفوس أخرى ، هي أيضاً مخلصه ، ولكنها عاشت في عصر آخر أو مكان آخر »^(١) أما إذا أردنا ، أمثلة على ذلك ، فإننا سنجد لها كثيرة ، عندما نوازن بين أحوال الضمير خلال مختلف العصور .

ويضرب لنا الأستاذ - أندريه كريسون - الأمثلة الكثيرة :

« ففي العصور القديمة اليونانية ، اللاتينية كان نظام الرق مشروعاً . إن أشرف القلوب ، إذ ذاك كانت تجدد من الطبيعي ، أن يباع الرجال والنساء والأطفال ، وأن يعاملوا معاملة السوانم .

وكانت القوانين الرومانية القديمة ، تجعل من المرأة والأطفال ملكاً للزوج ، كما لو كانوا أمتعة وأنعاماً . لهذا كان للأب ، من بين الحقوق الأخرى ، الحق في أن يعرض ابنته المولودة حديثاً ، في السوق العام ، إذا كانت له بنت أخرى .

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة للكاتب الفرنسي أندريه كريسون ص ٢٢ ، ٢٥ ط ثانية

واسننا بحاجة إلى أن نذهب بعيداً . فهام أولاء أسلافنا . كانوا يرون شرعية تطبيق العقوبة على مجرد ظن الجريمة ، وكانوا بلا أدنى قلق يشاهدون الفرد مشنوقاً من أجل اختلاس نافه « ولكننا عندما نوازن بين أحوال الضمير ، في العصر الواحد في أقطار مختلفة ، فإننا نجد أيضاً فروقا لا تكاد تحصى ولا تعد .

على أن الدلالة العميقة ، إنما هي مظاهر اختلاف الضمير في البيئة الواحدة وفي الجماعة الواحدة ، المتحضرة المتعدنة .

وبعد أن أورد الدكتور أمثلة شتى مما ساقه العالم الفرنسى الكبير « أندريه كرسون » قال :

هذه الأمثلة ، إنما هي قطرة من بحر ، مما يمكن أن يبرهن به ، على اختلاف الضمير ، بحسب اختلاف الزمن أو اختلاف الثقافات في البيئة الواحدة . وهناك أمثلة لا تحصى إذا قارنا ضمائر العرب في العصر الجاهلى بضمائرهم في العصر الإسلامى ، أو ضمائر الوثنيين في مكة بضمائر المسلمين فيها عند نشأة الإسلام .. الخ . والنتيجة لكل هذه المقارنات هي : أن اتخاذ الضمير كأساس للأخلاق أو كقياس لها ، إنما هو مجرد حماقة وعبث .

ومن الشبه التى جعلت الناس يؤمنون ؛ بمنزلة كبرى للضمير ، ويرفعونه ! أنه قد شاع بين بعض الطوائف ، أن الضمير قوة فطرية معصومة بطبيعتها ، ولكن هذه الدراسة السابقة تؤدى بنا لاحالة إلى أن الضمير قوة فطرية حقاً ، ولكنها قوة غير معصومة ، لأنها تربي وتكتسب فيما يتعلق باللون الذى تتخذه .

وهي وإن كانت قوة فطرية إلا أنها تتلون بحسب ما تغذى به من ثقافة ومن وراثه ، وهي تختلف في الفرد الواحد ، بحسب اختلاف سنه ، وبحسب تنقله من بيئة إلى بيئة ، وبحسب الكتب التى تلمه بالثقافة العقلية ، أو التهذيب الروحى ، وبحسب

اختلاف الأصدقاء ، الذين يلزمهم الإنسان في حياته الواحد تلو الآخر .
والضمير إذن متأرجح متقلب ، لا يستقر له قرار ، لأنه حتى لو مكث على حالة
واحدة تجاه مسألة معينة فإنه في هذه الحالة النادرة يتأرجح أيضاً قوة وضعفاً ،
واتزاناً وإسرافاً .

والوضع الصحيح إذن — بالنسبة لأساس الأخلاق — أن نلجأ إلى الدين
نستمد منه الهداية والإرشاد ، فانه وحده : المعصوم .
والدين الإسلامى قد أتى في الجانب الأخلاقى بكل ما تتطلبه النفوس
المرهفة ، والأفئدة المتعطشة للاستقامة . لقد أقر بذلك كبار الفلاسفة الإسلاميين
« كابن سينا » وغيره .

لقد رأى ابن سينا ، أن الدين الإسلامى ، أتى بأكمل نظام أخلاقى تشريعى
بالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للأسرة ، وبالنسبة للفرد ، وتحدث ابن سينا عن ذلك
غير مرة في مختلف كتبه .

أما صلة الدين بالضمير ، فإنها صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد وسيطرة . إنها صلة
هيمنة تستمر مدى الحياة ، وإذا ما زالت هذه الهيمنة فى أى فترة من فترات الحياة ،
فإن الضمير يختل اتزانه وتوازنه ، ويتأرجح ويتذبذب ، لأنه يحتاج باستمرار إلى
القائد المربى ، وليس هذا القائد المربى إلا الدين . » اهـ

البذل والنضحية

مهما يكن الخلاف بين المثاليين والواقعيين من فلاسفة الأخلاق فإن «الفردية» ، وبعبارة أوضح « الأنانية » جزء من الكيان الفطرى للإنسان ، فهو - بما ركب فيه من دوافع نفسية - « أنانى » يحب الخير لنفسه ، والمنفعة لذاته ، قبل كل شيء ، وهذا أمر اقتضته الحكمة الإلهية لعبارة الأرض ، واستمرار الحياة وازدهارها ، ثم هو من مقتضيات الابتلاء الذى بنى عليه تكليف الإنسان واستخلافه فى هذه الأرض .

وفى الإنسان بلا شك نزعة اجتماعية غيرية ، فطرية كذلك ، ولكنها لا تقاوم نزعته الذاتية لو خليت وشأنها . ومن هنا ترى الإنسان - كل إنسان - حريصاً على أن يجمع لنفسه من أسباب النعمة ما استطاع ، حريصاً على الاستئثار به دون غيره ، حتى إنه ليشيب ويهرم ، ويشب معه الحرص والشح ، ولذا وصفه خالقه بقوله « وكان الإنسان قتوراً » « وأحضرت الانفس الشح » وصور رسول الله ﷺ مبلغ حرص الإنسان على الدنيا وطمعه فى متاعها فقال : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً » .

وإذا ترك الإنسان لهذه الأنانية تسيطر على نفسه ، وتحكم سلوكه وتوجه علاقاته بالناس ، فإن نجد فيه إلا إنساناً جشعاً شحيحاً ، كل همه أن ينتفع ولا ينفع ، وأن يأخذ ولا يعطى ، يريد أن يربح ، ولا يريد أن يعمل ، يقول دائماً : لى ولا يقول يوماً : على ، ضنين بكل ما عنده ، شره إلى ما عند غيره .

والبلية كل البلية أن تشيع هذه الروح الخبيثة فى مجتمع ، فيقول كل امرئ - فيه : نفسى ، نفسى ، ولا يقول : أمتى أمتى .

والانسان إذا ترك وزعته الفردية ، فإنه يؤثر - غالباً - السلامة ، ولا يرضى بتعريض نفسه لخطر أو أذى . . من أجل فكرة أو رسالة أو مصلحة كبرى ، ولو سرت هذه الروح ، روح طلب السلامة ، لوقفت عجلة الرقى ، وأفلت شمس الحضارة ، وانطمست معالم الحق ، وغاضت ينابيع الخير . فإن رسائل النبيين ، وأفكار المصالحين ، لم تعل كلمتها إلا ببذل النفس والمال ، والتضحية بكل غال وعزيز ، من وطن وأهل وعشيرة . وليس هذا في علم المعاني والأفكار فحسب ، بل نجد الأعمال العظيمة ، والمشروعات الضخمة ، والاضرابات الكبيرة في علم الإنتاج والعمران والاقتصاد والصناعة والتجارة ، إنما جاءت نتيجة مخاطرات ومغامرات وتضحيات في مبدأ الأمر . إن الذي يجعل كل هم في طلب السلامة لا يصنع شيئاً ذا بال ، ومن قبل قال الطغرائي في لاميته :

حب السلامة يثنى هم صاحبه عن المعالي ويفرى المرء بالسكسل
فإن جنحت إليه فأتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في الجوفاعتزل

وقال أبو الطيب :

ذريني أنل ما لا ينال من العلى فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إمر السهل
والمجتمع الذي يريد أن يبني مجدداً . وبشيد حضارة ، وبهمض برسالة ، في حاجة إلى جهود مضاعفة للبناء والرقى والهوض ، في حاجة إلى عقول لا تسأم التفكير ، وإلى سواعد لا تشكو التعب ، وإلى عزائم لا تشكو الملل والفقر ، في حاجة إلى الإنسان الذي يعطى قبل أن يأخذ ، ويؤدي الواجب قبل أن يطلب الحق ، والإنسان الذي تفر عينه بفراق الأهل من أجل الأمة ، والغربة عن البيت من أجل الوطن ، ويطيّب نفساً ببذل المال عند الحاجة ، وبذل الروح عند الضرورة ، ويضحى بمصلحته الخاصة في سبيل المصلحة العامة . ويرضى بالتقصير

والشظف والحرمان ، إذا كان فيه إنتصار لحق أو خير ، بل يستمرى المر ويستعذب العذاب ، ويرحب بالموت الزؤام فى سبيل ما يؤمن به من الهدى والحق .

فليت شعرى أين يوجد هذا الإنسان ؟ ومن أى مدرسة يتخرج ؟
لعمري إن المدرسة الفذة التى تخرج هذا الصنف من الناس هى مدرسة الإيمان .
الإيمان هو الذى يهون على الإنسان شهواته ومطالب دنياه ، فإذا هو يكتفى بما يسد الجوعة من الطعام . وما يستر العورة من اللباس . وإذا هو يرضى بالقليل من المال ، والمتواضع من المسكن ، بل يهون على الإنسان ماله فينفقه ، ومسكنه فيمجره ، وأهله فيرحل عنهم ، بل يهون عليه حياته نفسها ، فإذا هو يضع رأسه على كفه ، يخوض المعامع ، رابط الجأش راضى النفس ، مطمئن الضمير . فإذا أدركه الموت فى ميدان الجهاد ، استقبله بارتياح وسرور ، لأنه يوقن أن وراءه الجنة . « ورضوان من الله أكبر » .

ذلك أن الإنسان يكاد لا يعطى شيئاً إلا ليأخذ فى مقابله شيئاً ، نقداً أو نسيئة ، نفسه تتطلع دائماً إلى الجزاء العادل على ما قدم ، وقد حاول الفلاسفة الماديون أن يشبعوا هذا الجانب بالأجزاء الأخلاقية المجردة عن الدين ، وعن طريق ما أسموه « الضمير » الذى يجزى فاعل الخير ، ومؤدى الواجب ، بالسرور والرضا والارتياح الذى يحسه الإنسان بين جنبيه ...

ولكنهم حاروا كيف يجزى من يضجى بنفسه ويبدل روحه ويموت شهيداً فى سبيل الحق ؟ إنه لا مجال لرضا النفس وراحتها بعد الموت عند هؤلاء الماديين ، والموت عندهم فناء محض . إن الإيمان بالله وبجزاء الآخرة هو الذى يحمل هذه العقدة . وفى البذل والضحية باسم الدين إرضاء لهذا الجانب فى نفس الإنسان ، فإن ما أعطاه المؤمن يعود عليه أضمافاً مضاعفة ، وما أنفقه من مال فأنفقه بخلفه ،

وما أصابه من أذى في نفسه أو بدنه فالله معوضه عنه ، وإذا قدم روحه في سبيل الله فمات أو قتل فلم يمت في الحقيقة ، وإنما هو حي عند ربه يرزق . . . وفي هذا كله يقول القرآن : « وما تنفقوا من شيء يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » و « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » « ولئن قتلتم في سبيل الله أو ممتلئون من الله ورحمة خير مما يجمعون » « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يغفل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

إن كل جهد — مادي أو أدبي ، نفسي أو بدني — يبذله المؤمن في سبيل الله — مهما يبلغ من ضلالة حجه فهو محسوب له في « رصيد » حسناته عند الله ، لا يضع منه مثقال ذرة ، حتى الخطوة التي تمشيها قدمه ، وحتى الفلوس ينفقه ، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو التعب . « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » .

فلا عجب أن نرى ديننا كالإسلام يقدم لنا — في مرحلة قوته وازدهاره — نماذج رائعة للتضحية والبذل والسكاح والجهاد ، وبأعداد هائلة ، تقدم ما نملك من نفس ومال في سبيل الله وهي قريرة العين .

نماذج مؤمنة للبذل والتضحية :

وحسب المرء منهم أن يسمع أو يقرأ آية من كتاب الله تدعوه إلى الإتفاق والجهاد ، فإذا هو يسارع إلى تنفيذها ولا يحجم ولا يتردد مقدما النفس والنفس . ابتغاء رضوان الله .

قرأ أبو طلحة الأصبهاني سورة « براءة » ، حتى بلغ هذه الآية « انفروا خفافا

وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » فقال : خفافا وثقالا : شبانا
وكهولا ، ما سمع الله عذر أحد ، وقال لبنيه : أي بني جهزوني .. جهزوني ..
جهزوني (يعني للجهاد) فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع النبي ﷺ حتى
مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات . فنحن نغزو عنك ! قال :
لا جهزوني .. فجهزوه بجهاز الحرب ، فغزا في البحر ، فمات في البحر ، فلم يجدوا
له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها رضى الله عنه .

وخرج سعيد بن المسيب إلى الغزو ، وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له :
إنك عليل ! فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكني الحرب كثرت
السواد وحفظت المتاع .

ورأى بعضهم في غزوات الشام رجلا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر
فقال له : يا عم ! إن الله قد عذرك ! فقال : يا بن أخي قد أمرنا بالنفير خفافا
وثقالا^(١) .

ولقد روى في بعض الغزوات أن الابن وأباه كانا يتسابقان إلى الجهاد ،
فخبر عان بينهما فتخرج القرعة للابن ، فيقول الأب : آثرني يا بني ، أنا أبوك !
فيقول الابن : إنها الجنة يا أبت ! ولو كان شيء غيرها لآثرتك والله .

وعمر بن الجموح الأنصاري أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين
شباب ، يغزون مع الرسول صلى الله عليه وسلم . فلما كان يوم أحد ، طلب
إلى بنيه أن يمدوا له عدة الجهاد ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة
فلو قدمت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد ؟ فأتى عمرو رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : إن بني هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك ، ووالله إني

(١) ذكر هذه الوقائع الامام القرطبي في تفسيره (خفافا وثقالا) .

لأرجو أن أشتهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ! ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه ، لعل الله عز وجل يرزقه الشهادة . . فخرج مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقتل يوم أحد شهيداً - وفيه قال النبي ﷺ للأَنْصار : إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره ، منهم عمرو بن الجموح !

وهذا نموذج آخر من نماذج التضحية : نموذج التضحية بالراحة والثروة ، والاستمتاع بالحياة الرضية الناعمة ، وارتضاء الحرمان والمشقة والبلاء والأذى في سبيل الله .

فتى كمصعب بن عمير ، نشأ في الحلية ، وربى في الرفاهية والنعمة ، بين أبيين يحبانه أشد الحب ، ويحنوان عليه أعظم الحنو ، يغذوانه بأطيب الطعام ، ويكسوانه بأحسن اللباس ، وينشران عليه أجنحة العطف والإيثار والرعاية والتدليل ، فتى منعم مدلل كهذا ، ما الذى يجعله يدع هذه الحياة اللذيذة الهادئة الهانية ، إلى حياة خشونة وبأساء ، وزلزلة وجهاد وغربة وهجرة ؟؟ ما الذى جعله يرضى بمفارقة الأهل والوطن ، ويرغب عن الثروة والجاه ويفر بدينه مهاجراً إلى الحبشة ثم إلى المدينة حتى يموت في دار الهجرة شهيداً في غزوة أحد ، فلا يجد المسلمون له ثوباً يكفى لغطاء جسده ، كل الذى وجدوه ثوب قصير ، إذا غطى رأسه بانت رجلاه ، وإذا غطى به رجلاه بانت رأسه ؟؟ لا شيء إلا الإيمان .

يروى « ابن سعد » عن محمد بن شرحبيل العبددى ، أحد أقرباء مصعب هذه الكلمات في وصفه . يقول : كان مصعب بن عمير فتى مكة شاباً وجالاً وسيبياً ، وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه مليئة كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة يلبس الحضرمي من النعال ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى الإسلام في دار أرقم بن

أبى الأرقم فدخل عليه فأسلم وصدق به وخرج فكنتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه
فأخذوه فحبسوه ، فلم يزل محبوباً حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى ،
ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا ، فرجع متغير الحال قد حرج يعني غلظ .
ويقول خباب بن الارت :

هاجرنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم نبتغي وجه الله فوجب أمرنا
على الله ، فمنا من مضى ، ولم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير ، قتل
يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفيه يكفن فيه إلا نمره ، قال : فكنا إذا وضعناها
على رأسه خرجت رجلاه ، وإذا وضعناه على رجله خرج رأسه ، فقال لنا
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اجعلوها مما يلي رأسه ، واجعلوا على رجله
من الإذخر .

ولقد وقف الرسول — صلى الله عليه وسلم — على هذا الفتى ، وهو مقتول
مسجى في برده ، فقال والدموع تزدحم في عينيه : لقد رأيتك بمكة وما بها أحد
أرق حلة ، ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت شعث الرأس في بردة .

وعن عبيد بن عمير أن النبی — صلى الله عليه وسلم — وقف على مصعب
وهو منجصف على وجهه ، فقرأ هذه الآية « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا
الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » .

وهذا نموذج آخر من نماذج التضحية : هي التضحية بالمال ، يرويه لنا زيد بن
أسلم رضى الله عنه قال : لما نزل « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » قال
أبو الدحداح : فداك أبى وأمى يا رسول الله ! إن الله يستقرضنا وهو غنى عن
القرض ؟ قال : « نعم يريد أن يدخلكم الجنة به » قال : فإنى قد أقرضت ربى
قرضاً يضمن لى به ولصيتى الدحداحة معى الجنة ؟ قل « نعم » قال : تاولى يدك ،
فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده . فقال : إن لى حديقتين إحداهما

بالسافلة والأخرى بالعالية ، والله لا أملك غيرهما قد جعلاهما قرضاً لله تعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعل إحداهما لله والأخرى دعماً لمعيشة لك ولعِيالك » . قال : فأشهدك يا رسول الله أنى قد جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخلة : قال : « إذا يجزيك الله به الجنة » . فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أم الدحداح وهى مع صبياتها فى الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول :

هداك رى سبل الرشاد إلى سبيل الخير والسداد
بنى من الحائط بالوداد فقد مضى قرضاً إلى التناد
أقرضته الله على اعتمادى بالطوع لا من ولا ارتداد
إلا رجاء الضعف فى المعاد فارتحلى بالنفس والأولاد
والبر لا شك فخير زاد قدمه المرء إلى المعاد

فناالت أم الدحداح : ربح بيعك ! بارك الله لك فيما اشتريت ! وأجابته أم الدحداح وأنشأت تقول :

بشرك الله بخير وفرح مثلك أدى ما لديه ونصح
قد متع الله عيالى ومنح بالمعجوة السوداء والزهو البلح
والعبد يسعى وله ما قد كدح طول الليالى وعليه ما اجترح

ثم أقبلت أم الدحداح على صبياتها تخرج ما فى أفواههم وتنفض ما فى أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كم من عذق رداح ودار فياح لأبى الدحداح » . أى فى الجنة .

إن تاريخ الإسلام وتاريخ الأنبياء وأتباعهم فى كل عصر ، حافل بالصور الحية . والنماذج الرائعة للبذل والتضحية فى سبيل الحق . وهى صور ونماذج لم يصنعها غير الإيمان . ولن يصنع أمثالها — إذا أردنا لها أمثالا — إلا الإيمان !
(م ١٨ — الإيمان)

القوة

للإنسان في الحياة آمال عريضة ، وأهداف قريبة وبعيدة ، ولكن الطريق إليها شائك وطويل ، والعقبات متنوعة ، والمعوقات كثيرة ، بعضها من الطبيعة وسمن الله فيها ، وبعضها من البشر أنفسهم ؛ فلا غرو أن يظل الإنسان في جهاد دائم ، وعمل متواصل ، ليتغلب على الآلام والمعوقات ، ويحقق الأهداف والآمال .

وما أشد حاجة الإنسان إلى قوة تسند ظهره ، وتشد أزره ، وتأخذ بيده ، وتذلل له العقبات ، وتقهر أمامه الصعاب ، وتنير له الطريق . .

وليست هذه القوة المنشودة إلا في ظلال العقيدة ، ورحاب الإيمان بالله .

الإيمان بالله هو الذي يمدنا بروح القوة ، وقوة الروح ، فالؤمن لا يرجو إلا فضل الله ، ولا يخشى إلا عذاب الله ، ولا يبالي بشيء في جنب الله . إنه قوى ، وإن لم يكن في يديه سلاح ، غنى وإن لم تهب خزائنه بالفضة والذهب ، عزيز وإن لم يكن وراءه عشيرة وأتباع ، راسخ وإن اضطربت سفينة الحياة ، وأحاط بها الموج من كل مكان .

فهو بإيمانه أقوى من البحر والموج والرياح ، وفي الحديث « لو عرفتم الله حق معرفته لزالتم بدعاتكم الجبال » .

وهذه القوة في الفرد مصدر لقوة المجتمع كله ، وما أسعد المجتمع بالأقوياء الراسخين من أبنائه ، وما أشقاء بالضعفاء الهازيل ، الذين لا ينصرون صديقاً ، ولا يخيفون عدواً ، ولا تقوم بهم نهضة ، أو ترتفع بهم راية .

مصادر القوة عند المؤمن — الايمان بالله

المؤمن قوى ، لأنه يستمد قوته من الله العلي الكبير ، الذي يؤمن به . ويتوكل عليه ، ويعتقد أنه معه حيث كان ، وأنه ناصر المؤمنين ، وخاذل المبطلين ، « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » عزيز لا يذل من توكل عليه ، حكيم لا يضيع من اعتصم بحكمته وتدبيره .

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والتوكل على الله — وهو من ثمار الايمان — ليس استسلام متبطل ، أو استرخاء كسول ، إنه معنى حافز ، وشحنة نفسية ، تغمر المؤمن بقوة المقاومة ، وتملؤه بروح التحدى والإصرار ، وتشجذ فيه العزم الصارم ، والإرادة الشماء ، والفرآن يقص علينا كثيراً آثار هذا التوكل في أنفس رسل الله ، إزاء أعداء الله .

فهذا نبي الله هود في صراعه مع قومه « عاد » يجد من هذا التوكل حصناً حصيناً يلجأ إليه « قالوا : يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال : إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فسكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » .

وهذا شعيب وقومه يساومون ويهددون « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لنعودن فى ملتنا ، قال : أو لو كنا كارهين ؟ . قد اقتربنا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ... وسع ربنا كل شئ علماً ، على الله توكلنا » .

وهذا موسى بعد أن تميز بقومه عن مسكر القراعنة يقول لهم : « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقلوا : على الله توكلنا ، ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » .

وهام الرسل جميعاً يعتمدون بالتوكل على الله أمام عناد أقوامهم وإيذائهم : « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .

الإيمان بالحق :

يستمد المؤمن قوته من الحق الذي يعتقه ، فهو لا يعمل لشهوة عارضة ، ولا لفزوة طارئة ولا لمنفعة شخصية ، ولا لمصيبة جاهلية ، ولا للبغي على أحد من البشر ، ولكنه يعمل للحق الذي قامت عليه السموات والأرض ، والحق أحق أن ينتصر ، والباطل أولى أن يندثر « بل نذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .

دخل - ربيع بن عامر - مبعوث سعد بن أبي وقاص في حرب القادسية - على رستم قائد جيوش الفرس ، وحوله الأتباع والجنود ، والفضة والذهب . فلم يبال بشيء منها ، ودخل عليهم بفرسه الصغيرة ، وترسه الفايلة . وثيابه الخشنة ، فقال له رستم : من أنت ... وما أنت ؟

فقال له : نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

المؤمن بإيمانه بالله وبالحق يتف على أرض صلبة غير خائز ولا مضطرب ، لأنه يصمم بالعروة الوثقى ويأوى إلى ركن شديد « فمن يكفر بالطغوت ، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » .

فليس هو مخلوقاً ضائعاً ، ولا كذا مهمل ، إنه خليفة الله في الأرض ، إن تظاهر عليه أهل الباطل ، فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . فكيف يضعف المؤمن أمام البشر ومن ورائه الملائكة ؟ بل كيف ينحنى للخلق ومعه الخالق ؟ « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فاقبلوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء . »

هذا الإيمان هو الذي جعل بضمة شبان كأهل الكهف . يواجهون بعقيدتهم ملكاً جباراً ، وقوماً شديدي التعصب ، غلاظ القلوب ، مع قلة العدد ، وانعدام الحول والطول المادي ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهاة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً .

الإيمان بالخلود !

ويستمد المؤمن قوته من الخلود الذي يوقن به ، فحياته ليست هذه الأيام المحدودة في الأماكن المحدودة ، إنها حياة الأبد ، وإنما ينتقل من دار إلى دار .

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الثاني إلى المنزل الباقي

هذا عمير بن الحمام الأنصاري في غزوة بدر يسمع النبي يقول لأصحابه « والذي نفسي بيده ما من رجل يقاتلهم اليوم — المشركين — فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » فيقول عمير : بخ بخ — كلمة تعجب — فيقول : ثم تبخبخ يا ابن الحمام ؟ فيقول : أليس بيني وبين الجنة إلا أن أتقدم فأقاتل هؤلاء ، فأقتل ؟ فيقول الرسول : بلى ، وكان في يد عمير تمرات يأكل منها فقال : أأعيش حتى أكمل هذه التمرات ؟ إنها حياة طويلة ! وألقى التمرات من يده وأقبل يقاتل ويقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النقاد
غير التقى والبر والرشاد

وهذا أنس بن النضر يقاتل قتال الأبطال في أحد ، وياقناه سعد بن معاذ فيقول له :
يا سعد ، الجنة ورب النضر . أجد ريحها من وراء أحد !!
الايهان بالقصر :

ويستمد المؤمن قوته من القدر الذي يؤمن به ، فهو يعلم أن ما أصابه من
مصيبة فيأذن الله ، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء ، لم
ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء ، لم يضروه
إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى
الله فليتوكل المؤمنون » ..

المؤمن يعتقد أن رزقه مقسوم ، وأجله محدود ، لا يستطيع أحد أن يحول بينه
وبين ما قسم الله له من رزق ، ولا أن ينتقص ما كتب الله له من أجل ،
وهذه العقيدة تعطيه ثقة لا حدود لها ، وقوة لا تقهرها قوة بشر . وقد كان الرجل
يذهب إلى الميدان مجاهداً في سبيل الله فيعرض مسيله المثبطون ، ويخوفونه
من ترك أولاده . فيقول : علينا أن نطيعه تعالى كما أمرنا ، وعليه أن يرزقنا
كما وعدنا .

وكان الموقون والمخذلون يذهبون إلى المرأة فيثيرون مخاوفها على رزقها
ورزق عيالها إذا ذهب زوجها إلى الجهاد ، فتجيبهم في ثقة واطمئنان : زوجي عرفته
أكلًا ولم أعرفه رزاقاً ، فإن ذهب الأكل فقد بقي الرزق !!

وكان على بن أبي طالب يخوض المعامع وهو يقول :

أي يومى من الموت أفر ؟ يوم لا يقدر أم يوم قدر ؟

يوم لا يقدر لا أحذره ومن المقدور لا ينجى الحذر

قال السيد جمال الدين الأفغانى : (الاعتقاد بالقضاء والقدر — إذا تجرد عن شناعة الجبر — يتبعه صفة الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، يبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود ، وتنشق منها مرائر النور ، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال ، ويحلبها بحلل الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج عن كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلى عن نضرة الحياة .. كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله ، يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟

اندفع المسلمون فى أول نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول ، وحيدروا الألباب بما دوخوا الأمم ، وقهروا الدول ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينيه — الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا — إلى جدار الصين ، مع قلة عدتهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الأقطار المتنوعة . أرغموا الملوك ، وأذلوا القياصرة والأكاسرة ، فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة ، إن هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات .

دمروا بلاداً ، ودكوا أطواداً ، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسط ، وطبقة أخرى من النفع ؛ وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم ؛ وأقاموا بدلها جبالاً ، وتللاً من رؤوس النابذيين لسلطانهم ؛ وأرجفوا كل قلب ، وأرعدوا كل فريضة ، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدم بعض الأعداد القليلة منهم أمام
جيوش يفتس بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم ،
وردوهم على أعقابهم ^(١) .

الايمن بالاخوة :

ويستمد المؤمن قوته من إخوانه المؤمنين ، فهو يشعر بأنهم له وهو لهم .
يعينونه إذا شهد ، ويحفظونه إذا غاب ، ويواسونه عند الشدة ، ويؤنسونه عند
الوحشة ، ويأخذون بيده إذا عثر ، ويسندونه إذا خارت قواه ، فهو حين يعمل
يحمس بمشاركتهم ، وحين يجاهد يضرب بقوتهم ، إذا حارب جيش من ألف
مؤمن شعر كل فرد منهم أنه يقاتل بقوة ألف لا بشخصه وحده ، وشعر أن
هؤلاء الألف يعيشون فى نفسه — كما يعيش هو فى أنفسهم — حباً لهم ، وحرصاً
عليهم ، وضناً بهم ، فإذا ضربت الألف . فى ألف كان المجموع المعنوى ألف
ألف رجل فى الحقيقة وإن كانوا ألفاً واحدة فى لغة الإحصاء والتعداد ^(٢) .

حدثوا أن جيشاً من المسلمين كان بينه وبين عدوه نهر فأمرهم القائد أن
ينخوضوه ، ولبوا الأمر ، وخاضوا النهر ، والعدو يشهدهم من بعيد دهشاً مرتاعاً .
وفى وسط النهر شهدهم العدو يغوصون فى جوف الماء مرة واحدة كأنما غرقوا ،
ثم ظهروا فجأة . . فسأل العدو ما شأنهم ؟ فعرفوا أن رجلاً منهم سقط منه
قعبه — إناؤه — فصاح : قعبى .. قعبى .. فناصروا جميعاً يبحثون عن قعب أخيههم ..

(١) البروة الوثقى . نشر دار العرب البستاني ص ٥٣

(٢) وقد شبه النبوة للمؤمن بإخوانه المؤمنين باللينة فى البناء المتين فقال : (المؤمن
للمؤمن كاللينة يشد بعضه بعضاً) .

اللينة وحدها ضعيفة مقدور عليها ، ولكنها داخل البناء أصبحت مرتبطة به ارتباطاً
لا يفصل ، أصبحت جزءاً من (الكل) الكبير ، لا يسهل كسرها ، أو زحزحتها عن موضعها
فإن قوتها هى قوة البناء كله الذى يشدها إليه .

فقال الأعداء في ذهول : إذا كانوا يصنعون مثل هذا في قعب سقط من أحدهم .
فماذا يصنعون بنا إذا قتلنا بعضاً منهم ؟؟ وفـت ذلك في عضدهم ، وكانت العاقبة
التسليم للمؤمنين .

على قدر الإيمان تكون القوة :

إن إيمان المسلم بالله الذي لا يغلب ، وبالحق الذي لا يخذل ، وبالخلود الذي
لا ينقطع ، وبالتدبر الذي لا يتحول ، وبالأخوة الصادقة التي لا تن — مصادر
فياضة بالقوة المعنوية التي لا يقاس إليها قوة المادة أو السلاح .

وعلى قدر نصيب المرء من الإيمان يكون نصيبه من تلك القوة ، نرى ذلك
بارزاً في أرجح المؤمنين ميزاناً بعد رسول الله ، فقد تمثلت قوته في مواقف
جعلت عمر الجبار الشديد يقول : « والله لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه
الامة لرجح ... »

موقفه يوم توفي الرسول فذهل المسلمون ، وأخرجتهم الفجعة عن وعيهم ،
حتى روى أن عمر قال : من قال إن محمداً مات ضربت عنقه بسيفي هذا ! هنالك
وقف أبو بكر يؤذن في الناس بصوت جهوري : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً
قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ... » ، « وما محمد إلا رسول
قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب
على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » وموقفه بعد ذلك يوم تردد المسلمون في إنفاذ
جيش أسامة الذي جهزه النبي إلى الشام قبل مرض موته ، فقد طلبوا من
أبي بكر أن يوقف مسير هذا الجيش ، فإن الغد ملئ بالطواريء والاحتمالات ،
ولا يدري أحدهماذا يفعل العرب في القبائل والقرى إذا علموا أن النبي قد مات ...
ولكن أبا بكر أجابهم في حزم عازم وقال : « والذي نفس أبي بكر بيده ..

لو ظننت أن السباع تحتطفي لأفدت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ، ولو لم يبق في القرى غيري لأفدته .

وموقفه في حرب المرتدين وما نعى الزكاة في الوقت الذي برزت فيه قرون العصبية الجاهلية كأنها قرون الشياطين ، وكان المسلمون - بعد موت رسولهم - كالنعم في الليلة المطيرة ، كما وصفتهم عائشة - وحتى قال بعض المسلمين لأبي بكر يا خليفة رسول الله ، لاطاقة لك بحرب العرب جميعا .. إلزم بيتك ، واغلق بابك ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين . . . ولكن هذا الرجل الخاشع البكاء ، الرقيق كالنسيم ، اللين كالحرير ، الرحيم كقلب الأم ، ينقلب في لحظات إلى رجل ثائر كالبحر ، زائر كالليث ، يصيح في وجه عمر : أجبـار في الجاهلية خوار في الإسلام يا ابن الخطاب ؟ لقد تم الوحي واكتمل ... أفينقص وأنا حي ؟ والله لو منعوني عقلا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ، ما استمسك السيف بيدي !!

من ثمار هذه القوة في نفس المؤمن و اخلاقه .

(١) التزام الحق مع القريب والبعيد

ومن ثمار هذه القوة النفسية ومظاهرها في المؤمن ، الصدق في كل حال ، والعدل في كل حين ، فهو يعترف بالخطأ إذا زلت به قدمه غير جاحد ولا مكابر . ولا مبرر لخطئه بخطأ آخر ، أو بإلقاء التهمة على غيره ، وهو يقول الحق ولو كان مرأ ، ويقوم لله شهيداً بالنقض ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين ، ويعدل مع العدو عدله مع الصديق ، لا يعرف التحيز ، ولا يعرف المحاباة .

أقام عمر بن الخطاب الحد على أحد أبنائه حتى قالوا ، إنه مات في يديه . وبث النبي ﷺ عبد الله بن رواحة إلى خيبر ، ليقوم بتقدير ثمر النخل فيها ، إذ كان لم نصفها ، والمسلمين نصفها ، وقام عبد الله بالمهمة فقال : في هذه كذا ، وفي هذه كذا ،

فجمع اليهود له حلياً من حلى نسأهم وقالوا له : هذا لك ، وخفف عنا في القسمة وتجاوز . فقال : يا معشر اليهود والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلى . وما ذاك بحاملي أن أحيف عليكم . أما الذي عرضتم له من الرشوة فإنها سحت ، وإنا لانا كلها . فلم يملك اليهود إلا أن قالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابناً له اشترى خاتماً فسه بألف درهم ، فبعث إليه يقول : أما بعد . . فقد بلغني أنك اشتريت خاتماً فسه بألف درهم . فإذا بملك كتابي هذا فبعه وأطعم بثمانه ألف جاع ! واشتر خاتماً فسه من حديد . . وآ كتب عليه : رحم الله امرأاً عرف قدر نفسه ...

(ب) الاستهانة بالقوة المادية :

ومن مظاهر هذه القوة شجاعته في مواطن البأس وثباته في موضع الشدة ، لا تنزل له قدم ، ولا يتزعزع له ركن ، لا يخشى الناس قلوباً أو كثروا . ولا يبالى بالأعداء وإن أرغوا وأزبدوا ، انسدت أبواب الخوف كلها في نفسه ، فلم يعد يخاف إلا من ذنبه ، ومن سحق ربه .

إذا قيل له : إن أعداءك أكثر عدداً تلاقول الله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

وإذا قيل : إنهم أكثر مالا . . قرأ عليهم « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تسكون عليهم حسرة ثم يطلبون » .

وإذا حذروه من مكرم وكيدهم أجابهم بما قال الله « ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » .

وإذا قيل إنهم أمتع حصوناً . . قرأ عليهم « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » .

إنه يسير بمعونة الله ، وينظر بنور الله ، ويقا تل بسيف الله ، ويرمى بقوة الله ،
« فلم تقتلهم ولكن الله قتلهم . وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

إن المؤمن لا يستعبد منطلق المادة ، ولا لغة الأرقام ، ولذا يقدم من ألوان
التضحيات وضروب البذل والفداء ما يعتبره بعض الناس تهوراً بل جنوناً .

روى ابن الأثير في تاريخه أن المسلمين في أثناء فتحهم لدير فارس حال نهر
دجلة بينهم وبين « المدائن » ، وكانت السنة كثيرة المدود ، ودجلة تقذف بالزبد ،
فجمع سعد بن أبي وقاص الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : « ألا إني قد
عزمت على قطع هذا البحر إياهم » فقالوا جميعاً : « عزم الله لنا ولك على
الرشد فافعل » .

فهب الناس إلى العبور ، وأذن لهم في الافتحام وقال : قولوا نستعين بالله ،
وتوكل عليه . حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ،
وليهزم من عدوه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وتلاحق الناس في دجلة ، وهم يتحدثون كما يتحدثون في البر ، وطبقوا
دجلة حتى ما يرى من الشاطئ شيء .

ولقد كان الكافرون والمناقون ينظرون إلى هذه الروح العالية التي يديها
للمسلمون ، فينازلون العدد الكثير وهم قليل ؛ ويحدثون السلاح والاستعداد ،
والقوى غير متكافئة ، بل غير متقاربة ، فيظنون هذا غروراً ، وما هو بالغرور وإنما
هي قوة الإيمان بالله والتوكل عليه « إذ يقول المناقون والذين في قلوبهم مرض :
غر هؤلاء دينهم ! ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » (١) .

(ج) الاخلاص في القول والعمل :

ومن مظاهر هذه القوة .. إخلاصه القول والعمل والنية لوجه ربه ، فتراه

يعمل الخير ، ويحارب الشر ، وإن لم يكن له فيه نفع مادي ، ولا هوى شخصي ، لا يهيمه الشهوة ولا الحمدة ولا رضى الناس ، بل يؤثر الخفاء على الشهرة ، وعمل السر على عمل العلانية ، تجنباً للرياء ، وبعداً بالنفس عن مزالقي الشرك الخفى ، متمنياً أن يكون ممن يحبهم الله ، من الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا محاولاً أن يكون كالجذع من الشجرة يمدّها بالغذاء وهو فى باطن الأرض لا تراه العيون ، وكالأساس من البنيان ، يخفى فى الأعماق وهو الذى يمسك البناء أن يزول .

وفى بعض الآثار تصوير لطيف للقوة الروحية للإنسان حين يتجرد للحق ، ويخلص له ، تصوير يجعله أثقل فى ميزان الحق من الأرض والجبال ، والحديد والنار والماء ... يقول الأثر :

(لما خلق الله الأرض جعلت تيمد وتمكفاً ، فأرسلها بالجبال فاستقرت . فتعجب الملائكة من شدة الجبال فقالت : يا ربنا ، هل خلقت خلقاً أشد من الجبال ؟ قال : نعم . . . الحديد .. قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار .. قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء ... قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الماء ؟ قال نعم ، الريح ... قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم ... إذا تصدق صدقة يمينه فأخفاها عن شماله) .

الإنسان إذا أخلص لربه أشد قوة من الجبال المرصاة فى الأرض كالأوتاد ، ومن الحديد القوى الذى يقطع الجبال ، وتنحت به الصخور ، ومن النار المتأججة التى تذيب الحديد . ومن الماء المتدفق الذى يطفىء النار ، ومن الريح العاصف الذى يسوق المياه .

ومن مظاهر هذه القوة عند المؤمن وضوح خطته ، واستقامة طريقته ،

«وثباته عليها ، لا يفريه وعد ، ولا يثنيه وعيد ، ولا ينحرف به طمع متسلط ، أو
هوى جائر ، أو شهوة طاغية ، فهو دائماً داع إلى الخير ، ناثراً على الشر ، آمر
بالعرف ، ناه عن المنكر ، هاد إلى الحق والعدل ، مقاوم للباطل والظلم ،
يغير المنكر بيده ، فإن لم يستطع فبأسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك
أضعف الإيمان .

(د) التحرر من الخوف والحرص :

ومن تمار هذه القوة التحرر من الخوف والحرص .

فلقد رأينا الناس لا يضعف نفوسهم شيء كالحرص على الحياة وإن تكن
هذيلة ، ولهرب من الموت وإن كان كريماً ، ولا يغرس فيهم القوة شيء كالأستهانة
بالحياة ، والإقبال على الموت في سبيل الحق الذي يعتدونه . ولا شيء كالإيمان
بالله وبالخلود يهون على الإنسان لقاء الموت ، وفراق الحياة .

والمرء إذا هانت عليه الدنيا ، ولم يبال بالموت ... هان عليه جبابرة الأرض ،
وملوك الناس ، ونظر إلى الذهب كما ينظر إلى الحجر ، وإلى السيف كما ينظر إلى
العصا أو هو أدنى .

الحرص والخوف هما اللذان يضعفان النفوس ، ويخنيان الرؤوس ، وبذلان
الأعناق ، وإذا لم يكن حرص ولا خوف فلا سبيل إلى الضعف بحال .

وقد رأينا سحرة فرعون حين آمنوا بالله والآخرة استهانوا بالدنيا ولم
يجزعوا من الموت ، يقولون لفرعون وهم في ثبات الجبال « فاقض ما أنت قاض
إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » إنهم لا يحرصون على شيء عنده ، ولا يخافونه على
شيء عندهم ، فلماذا يهنون أو يضعفون ؟ كلا ... لقد انقلبوا من أتباع له إلى
دعاة له يبشرون وينذرون « إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه
من السحر والله خير وأبقى » .

(هـ) الاستخفاف بالجبايرة والطفاة :

ولقد برزت هذه القوة في مقاومة المؤمنين للطفاة في الداخل ، أو الغزاة من الخارج ، ورأينا ذلك بارزاً للعيان في أمثلة شتى ... في القديم والحديث ...

طلب الخليفة الأموي الشهير (هشام بن عبد الملك) طاوس اليماني يوماً إلى مجلسه ، فلما دخل عليه ، لم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ، ولكن قال « السلام عليك يا هشام » وجلس بإزائه ، وقال كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضباً شديداً حتى هم بقتله ، وقال له : يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ فازداد غضباً وغيظاً ، وقال : خلعت نعليك بحاشية بساطي . ولم تقبل يدي ، ولم تسلم على بإمرة المؤمنين ، ولم تكني وجلست بإزائي بغير إذني ، وقلت كيف أنت يا هشام ، قال : أما ما فعلت من وضع نعلي بحاشية بساطك فإني أضعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ، وأما قولك لم تقبل يدي فإني سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول « لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة ، أو ولده من رحمة » وأما قولك لم تسلم على بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب ، وأما قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين علياً يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال هشام : عظمي ... فقال : سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن في جهنم حيات كالقلال ، وعقارب كالبلغال ، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته — ثم قام .

وفي تاريخنا الحديث رأينا أبطالا في صور شتى ، وفي بلاد عديدة ، كلهم تحرروا من الخوف والطمع واستهانوا بالدنيا وما فيها ومن فيها ، رغبة فيما عند الله ، (وما عند الله خير للأبرار) .

وأينا البطل الليبي المسلم (عمر المختار) الذى حارب الاستعمار الإيطالى ، وجيوشه المجهزة بأحدث أسلحة عصره ، بالقلعة المؤمنة العزلاء ، أو شبه العزلاء من جنده : وقف يحارب الطائرة بالحصان ، والمدفع بالسيف . واستطاع أن ينزل بأعدائه ضربات موجعة ، ولم يرض بالتسليم ساعة ما ، رغم نفاد قوته المادية كلها ، ولكنه ظل يقول للطلليان « لئن كسر المدفع سيفى لن يكسر الباطل حقى » .

وكان مريضاً بالحمى ، تهرز رعدتها جسده ، وترتعد بها فرائضه ، ورغم هذا قال لجنوده ، « اربطونى على ظهر جوادى بالحبال حتى لا أتخلف عن القتال معكم » .

وحين ظفر به جيش المستعمر - وحكوا عليه بالإعدام ، تقبل الحكم برحابة صدر ، وابتسامة سخرية ، وقال له بعضهم - قبل تنفيذ الحكم - اطلب العفو ونحن نطلق سراحك ، فأجابهم بكل إباء وشمم : « لو أطلقتم سراحى لعدت لمحاربكم من جديد » .

ورأينا فى الهند عالماً جليلاً كمولانا أبى الكلام آزاد يقف أمام المحكمة الإنجليزية التى عقدت لمحاكمته على مقام به من إثارة وتحريض للشعب ضد الحكم البريطانى ، فيلقى على هيئة المحكمة خطاباً رائعاً فى نحو ٣٦ ست وثلاثين صفحة^(١) ، يعتبر آية من آيات العزة الإيمانية ، وكان مما قاله فى هذا الخطاب التاريخى العظيم : « نعم إنى قلت : إن الحكومة الحاضرة ظالمة ، وإن لم أقل هذا فاذا أقول يا ترى ؟ وايم الله إنى لأعجب كيف يطلب منى أن أسمى شيئاً بغير اسمه ، وأن أدعو الأسود بالأبيض ؟ ... »

إنى مسلم ، ولأنى مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وأقبحه ، وأشهر مساويه ..

(١) نشرته مجلة « ثقافة الهند » فى عدد مارس (يونيو) ١٩٥٨ م ص ٨٨ - ١٢٤ .

إن الاسلام أعلن « حقوق الإنسان » قبل انقلاب فرنسا بأحد عشر قرناً ،
وليس مجرد إعلان ، بل وضع نظاماً عملياً لجمهورية الحق بالغاً في الكمال منتهاه ..
ولعمري إن مطالبة مسلم بأن يسكت عن الحق ، ولا يسمى الظلم ظلماً ، مثل
مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإسلامية ، فإن كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا
أحداً بأن يرتد عن دينه ، فليس لكم أن تطالبوا مسلماً بأن يمتنع عن قوله للظلم ، إنه
ظلم ، لأن معنى كلتا المطابقتين واحد .

إن التصديق بالحق وإعلانه عنصر ضروري للحياة الإسلامية ، فإن فصل عنها
فقدت أكبر ما يمتاز به ، لأن الإسلام أسس قومية المسلم عليه ، وجعلهم شهداء
الحق على العالم كله ، فكما يجب على الشاهد ألا يتوانى في إبداء شهادته كذلك
يتحتم على المسلم ألا يقصر في إعلاء الحق ، ولا يبالي في أداء فرضه بمصيبه أو
بلاء ، بل يصدع به حيثما كان ، ولو لاقى دونه الحمام .

ولهذا نجد « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » من أكبر القرائض
الإسلامية ...

التوحيد أساس الإسلام وقطب رحاه ، وضده الشرك الذي أشرب المسلمون
بغضه في قلوبهم ...

والتوحيد يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون إلا لله الواحد العظيم ،
أما غيره فلا يخاف منه ولا يخشع له ، وإن من يخشى غير الله فهو مشرك به ،
وجاعل غيره أهلاً للخوف والطاعة ، وهذا ما لا يجتمع مع التوحيد أبداً .

الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة ، إلى البسالة والجرأة والتضحية ،
والاستهانة بالموت في سبيل الحق .

والقرآن يكرر مرة بعد أخرى « لا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً » .
« وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » ، « ولا يخافون لومة لائم »

«أليس الله بكاف عبده؟ ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فما له من هاد» .

والرسول ﷺ يقول : سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله « الحاكم على شرط الصحيحين » أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر « — أبو داود والترمذي وابن ماجة . وقد كان ﷺ يأخذ العهد من أصحابه أن يقولوا بالحق أينما كانوا — متفق عليه — .

وقد ابيضت عين الدهر ، ولم تر مثل هذه الضحايا الكثيرة العظيمة في إعلاء كلمة الحق ، التي تخدم منها الأمة الإسلامية في كل دور من حياتها . فتراجم علمائها ومشايخها وسادتها عبارة عن هذه الضحايا .

ألا فلتعلم الحكومة الإنجليزية أن المسلم الذي أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر ، ويتغلغل في لجج الدواهي والكوارث ، ولا يقبل السكوت عن الحق ، لا يخيفه قانون^(١) ١٢٤ من العقوبات الهندية ولا يردده عن دينه وأداء فريضته ... وظل أبو الكلام بهادر كالبهر ، ويرسل حججه وكلماته شواظاً من نار ، يمدد بالقوة لإيمانه بالله وبالحق . وبالقدر وبالخلود .. ثم التفت إلى القاضي وقال :

وأنت أيها القاضي ، ماذا عسى أن أقول لك إلا ما قاله المؤمنون قبلي في مثل موقفى هذا : « فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » .

شهادة التاريخ :

ذلك هو شأن الإيمان إذا عمقت جذوره ، وقوى سلطانه على النفس ، إنه يمد صاحبه بيقين لا يهين ، وهمة لا تنى ، وأمل لا يخبو ، ودافع لا يتوقف ، وعزم لا يخور . هو يملك الدنيا ولكنها لا تملكه ، ويجمع المال ولكنه لا يستعبده ، وتحيط به النعمة ولكنها لا تبطره ، وينزل به البلاء ولكنه لا يقهره ، لا تزيد

(١) الذى كان يحاكم على أساسه .

الشدائد إلا عزيمة مع عزيمته ، وقوة إلى قوته ، كالذهب الأصيل ، لا تزيد النار إلا نقاء وصفاء .

من كان يصدق أن مجموعة قليلة العدد ، ضئيلة العدد ، من جزيرة العرب ، لم يكن لهم فلسفة اليونان ، ولا مدنية الرومان ، ولا حكمة الهند ، ولا صنعة الصين ، تملك الدنيا بزمام ، وترث ملك الأكسرة ، وتحطم امبراطورية القياصرة ، وتنشر ديناً جديداً ، وحضارة جديدة في الآفاق ، وفي أقل من ربع قرن من الزمان ؟ أنيس سر هذا هو الإيمان ؟ الإيمان الذي جعل من بلال الحبشي قوة يتحدى « سيده » أمية بن خلف ويحارب أبا جهل بن هشام . . . الإيمان الذي جعل القلة تنتصر على الكثرة ، والأميين يغلبون المتحضرين ، ودفع العرب البداءة ، ويقينهم في قلوبهم ، ومصاحفهم في يد ، وسيوفهم في أخرى ، ومساكنهم على ظهور خيولهم يقولون لملوك الفرس وأباطرة الروم : نحن قوم بعثنا الله لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده

سر الوهن :

وإذا كان الزمن قد تغير على المسلمين ، فانسكبوا بعد امتداد ووهنوا بعد قوة ، فلأن الإيمان لم يعد هو المسيطر على أنفسهم ، والموجه لأخلاقهم وسلوكهم . لقد بات إيمانهم إيماناً « جغرافياً » بحكم ولادتهم في أرض المسلمين ، أو إيماناً « وراثياً » يأخذونه عن آبائهم كما يرثون الدور والعقارات ، بات إيماناً مخدراً نائماً لا تأثير له . ولا حيوية فيه ، فكيف يورث القوة ، ويهب للنفس العزيمة والمضاء ؟ لقد كشف الرسول ﷺ لأمته عن الأسباب العميقة لضعفها حين تضاف وهونها حين تهون على أعدائها ، فقال - وصدق الزمن ما قال - عليه السلام : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمي قللة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء

كشفاء السبل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن ؟ — أى ما سببه وما سره فإن معنى الوهن معروف وهو الضعف — قال : حب الدنيا وكرهية الموت .

هذا هو مبعث الوهن الحقيقى ، وسر الضعف الأصيل ، أن يخلد المرء إلى دنياه الخاصة ، فيعيش عبداً لها معاوئاً لأوضاعها الرتيبة ، أسيراً لقيودها الثقيلة ، تحركه الشهوات كالتائم فى الاصبع ، وتسيره الرغائب المادية كالثور فى الساقية ، يتحرك فى مدار محدود ، فاقد الهدف معصوب العينين .

حب الدنيا هو الذى يجعل الملك فى صولجانه عبداً ضعيفاً ، رخو العود ، أمام امرأة يشقتها ، أو شهوة يطامع فى نيلها ، أو نديم يخشى أن يفضحه ، أو حاشية تعينه على سرقاته ونزواته ...

وكرهية الموت هى التى تجعل الأفراد والجماعات يؤثرون حياة ذليلة على موت كريم ، يؤثرون حياة يموتون فيها كل يوم موتات ، على موت يحيون بعده حياة الخلود .

ومن لا يمت تحت السيوف مكرماً يعيش ويقامى الذل غير مكرماً

التماوت والضعف يناق الايمان :

وقد يرى المرء أناساً — ممن يتمسحون بالدين ، ويدعون الانقساب إليه ، بل إلى الله وحقيقته — يبدو عليهم الضعف والتماوت ، والتخضع والتذلل والذبول ، فيظن مخطئاً ومذوراً أن هؤلاء صورة صحيحة للمؤمنين .

والواقع أن الإيمان الحق برىء من هذه الصور الزائفة ، وتلك المظاهر الكاذبة . الإيمان قوة فى الباطن والظاهر ، فى الخلق والسلوك فى الخير والمظهر معاً .

وأى عمر رجلا تماوتا فى صلاته ، مطاطاً رقبته ، مبدياً التذلل والتخضع ،

كان منه إلا أن علاه بدرته وقال : لا تمت علينا ديننا ، أماتك الله . ارفع رأسك .
بخان الخشوع في القلوب ليس الخشوع في الرقاب .

وكان من كلماته المأثورة : اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق . فقيل له :
وما خشوع النفاق ؟

تقال : أن يرى البدن خاشعاً ، والقلب ليس بخاشع .
ورأت الشفا بنت عبد الله بعض الفتيان يمشون متماوتين ، فقالت في دهش :
ما هؤلاء ؟

فقيل لها : هؤلاء نساك — عباد —

فقالت : لقد كان عمر إذا مشى أسرع ، وإذا تكلم أسرع ، وإذا ضرب
أوجع ، وكان هو الناسك حقاً .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع وقاره وسمو هيئته — إذا مشى
أسرع في مشيته ، كأنما ينحدر من صلب .

ويقول أبو هريرة : « ما رأيت أحداً أحسن من رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
كان الشمس تجري في وجهه ، ولا رأيت أحداً أسرع في مشيته منه ،
كأنما الأرض تطوى له ، وأنا لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مكترث » .

الرحمة

الإنسان من غير قلب أشبه بالآلة العماء ، والحجر الصلد ، فإن حقيقة الإنسان ليست في هذا الغلاف العتيق من لحم ودم وعظم ، وإنما هي تلك اللطيفة الربانية ، والجوهرة الروحية ، التي بها يحس ويشعر ، وينفعل ويتأثر ، ويتألم ويرحم ، هي القلب الحى .

ومن أخص أوصاف المؤمن أنه يتميز بقلب حى مرهف لين رحيم ، يتجاوب به والأحداث والأشخاص ، فيرق للضعيف ، ويألم للحزين ، ويحنو على المسكين ، ويمد يده إلى الملهوف ، وبهذا القلب الحى الرحيم ينفر من الإيذاء ، وينبو عن الجريمة ، ويصبح مصدر خير وبر وسلام لما حوله ومن حوله .

رحمة المؤمن من رحمة الله تعالى :

المؤمن إنسان ذو قاب رحيم ، لأن مثله الأعلى أن يتخلق بأخلاق الله تعالى ، وأن يكون له حظ من أسمائه الحسنى .

ومن أوضح الأخلاق الإلهية « الرحمة » التي وسعت كل شىء، وشملت المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، واستوعبت الدنيا والآخرة . وقد قرب الرسول لأصحابه هذا المعنى — على طريقته فى انتهاز الأحداث والمناسبات فرصاً لغرس المبادئ والمعاني التي يريد بها — حين قدموا عليه مرة بسبي . وإذا امرأة تسمى ، قد تحاب ثديها ، إذ وجدت صبيّاً فى السبي ، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ » قالوا : لا — وهى تقدر على ألا تطرحه — قال : فإله أرحم بعباده من هذه بولدها . رواه البخارى .

من أبرز أسماء الله الحسنى اسماً « الرحمن الرحيم » وهما أشهر الأسماء بعد لفظ الجلالة « الله » والمؤمن بالقرآن كلما تلا كتاب الله أو بدأ سورة منه ، افتتحها بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » في مائة وثلاث عشرة سورة منه .

وحسبنا أن يردد هذين الاسمين في صلاته المكتوبة ما لا يقل عن أربع وثلاثين مرة في اليوم فهو كلما أدى ركعة قرأ فاتحة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » وهي سبع عشرة ركعة في الصلوات الخمس المفروضة على المسلم في يومه ، فإذا أدى السنن زاد ضعف ذلك ، فإذا رغب في النافلة ، زاد ما شاء الله أن يزيد .

ولهذين الاسمين الكريمين « الرحمن الرحيم » إيحاء قوى في نفس المؤمن ، فضلاً عما توجبه عليه عبوديته لله أن يكون له حظ من أسمائه تعالى .

وللإمام الغزالي كتاب سماه « المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » يشرح فيه الإسم الإلهي ثم يعقب بما يمكن أن يكون حظ الإنسان من هذا الإسم . وبعد أن شرح معنى الاسمين « الرحمن الرحيم » قل : وحظ العبد من اسم « الرحمن » أن يرحم عباد الله الغافلين ، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة ، لا بعين الإيذاء ، وأن يرى كل معصية تجرى في العالم كمعصية له في نفسه ، فلا يألو جهداً في إزالتها بقدر وسعه ، رحمة لذلك العاصي من أن يتعرض لسخط الله تعالى ، أو يستحق البعد عن جواره .

« وحظ العبد من اسم « الرحمن » : ألا يدع فاقة للحجاج إلا ويسدها بقدر طاقته ، ولا يترك فقيراً في جواره أو في بلده ، إلا ويقوم بتعمده ، ودفع فقره ، إما بماله أو جاهه ، أو بالشفاعة إلى غيره ، فإن عجز عن جميع ذلك ، فيعيّنه

بالدعاء ، وإظهار الحزن ، رقة عليه وعظفاً ، حتى كأنه مساهم له في ضرره وحاجته .

من لا يرحم لا يرحم :

والمؤمن يمتد أنه دائماً فقير إلى رحمة الله تعالى ، فبهذه الرحمة الإلهية يعيش في الدنيا ويفوز في الآخرة . ولكنه يوقن أن رحمة الله لا تنال إلا برحمة الناس « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، « ومن لا يرحم لا يرحم » ، « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

ورحمة المؤمن لا تقتصر على إخوانه المؤمنين — وإن كان دافع الإيمان المشترك يجعلهم أولى الناس بها — وإنما هو ينبوع يفيض بالرحمة على الناس جميعاً . وقد قال رسول الإسلام لأصحابه « لن تؤمنوا حتى ترحموا . قالوا : يا رسول الله ، كلنا رحيم . قال : إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة » الطبراني . ومن صفات المؤمنين في القرآن « وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة » .

بل هي رحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم ، فالؤمن يرحمه ويتقرب إلى الله فيه ، ويعلم أنه مسئول أمام ربه عن هذه العجاوات . وقد أعلن النبي لأصحابه أن الجنة فتحت أبوابها لبغى سقت كلباً فغفر الله لها ، وأن النار فتحت أبوابها لامرأة حبست هرة حتى ماتت فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض . فإذا كان هذا عقاب من حبس هرة بغير ذنب ، فماذا يكون عقاب الذين يحبسون عشرات الألوف من بني الإنسان بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ؟ !

وقال رجل : يا رسول الله ، إني لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : « إن رحمتها رحمتك الله » الحاكم . ورأى عمر رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها ، فقال له : « ويلك قدما إلى الموت قوداً جميلاً » .

ويروى المؤرخون أن عمرو بن العاص في فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه — خيمته — فالتحذت من أعلاه عشاً ، وحين أراد عمرو الرحيل رآها ، فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه ، فتركه وتكاثر العمران من حوله ، فكانت مدينة « الفسطاط » .

ويروى ابن الحكم في سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أنه نهى عن ركض الفرس إلا لحاجة . وأنه كتب إلى صاحب السكك : أن لا يحملوا أحداً بلجام ثقیل ، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة . وكتب إلى واليه بمصر : أنه بلغني أن بمصر إبلا نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل . فإذا أتاك كتابي هذا ، فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .

هذه الرحمة الدافقة الشاملة أثر من آثار الإيمان بالله والآخرة ، ذلك الإيمان الذي يرقق بنفحاته القلوب الغليظة ، ويلين الأفئدة القاسية .

أرأيت إلى عمر — وقد كان معروفاً بالشدّة والقسوة في جاهليته — كيف صنع الإيمان به ، ففجر ينابيع الرحمة والرفقة في قلبه . لقد قالوا : وأد بنتاً له في الجاهلية ، فلما ولي إمارة المؤمنين كان يرى نفسه مسئولاً أمام الله عن بغلة تعثر بأقصى البلدان .

ولقد غلبت هذه العقيدة وهذا الخلق على أعمال المسلمين الأولين ، ووضحت آثارها في سلوكهم حتى مع الأعداء المحاربين ، فنجد رسول الإسلام يغضب حين مر في إحدى غزواته ، فوجد امرأة مقتولة فقال : ما كانت هذه لتقاتل ، وينهى عن قتل النساء والشيوخ والصبيان ، ومن لا مشاركة له في القتال .

ويسير أصحابه على نفس النهج أبراراً رحماء لا فجاراً قساء . فهذا أبو بكر يودع جيش أسامة بن زيد ويوصيهم قائلاً : « لا تقتلوا امرأة ولا شيخاً ولا طفلاً

ولا تعقروا نخلا ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، وستجدون رجالا فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . ويقول عمر : « اتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب » .

ويحمل إلى أبي بكر رأس مقتول من كبراء الأعداء المحاربين . فيستنكر هذا العمل ، ويعلن سخطه عليه ويقول لمن جاءه بالرأس : لا يحمل إلى رأس بعد اليوم . فقيل له : إنهم يفعلون بنا ذلك . فقال : فاستنان (أى اقتداء) بفارس والروم ؟! إنما يكفي الكتاب والخبر .

وهكذا كانت الحرب الإسلامية حرباً رحيمة رفيقة ، لا يراق فيها الدم إلا ما تدعو الضرورة القاهرة إليه ، وقد لاحظ ذلك الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون قتل : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب !

من آثار الرحمة في المجتمع الاسلامي

كما برز أثر ذلك الخلق العظيم في العلاقات الاجتماعية الداخلية — فرأينا المجتمع المسلم تسوده عواطف كريمة ، ومشاعر نبيلة ، كلها تفيض بالرفق والرحمة ، وتتدفق بالبر والخير ، وتجلت هذه المشاعر والعواطف فيما عرف بنظام « الوقف الخيري » عند المسلمين .

فقد مضى المواسون من المؤمنين — بدافع الرحمة التي قذفها الإيمان في قلوبهم والرغبة في مشوبة الله لهم ، وألا ينقطع عملهم بعد موتهم — أموالهم كلها أو بعضها على إطعام الجائع ، وسقاية الظمآن ، وكسوة العريان ، وإيواء الغريب ، وعلاج المريض ، وتعليم الجاهل . ودفن الميت ، وكفالة اليتيم ، وإعانة المحروم ، وعلى كل غرض إنساني شريف ، بل لقد أشر كوا في برهم أخوان مع الإنسان .

ولقد تأخذ أحدنا الدهشة وهو يستعرض حجج الواقفين ليرى القوم في نبل

نفوسهم ، ويقظة ضمائرهم . وعلو إنسانيتهم ، بل سلطان دينهم عليهم ، وهم يتخيرون الأغراض الشريفة التي يقفون لها أموالهم ، ويرجون أن تنفق في سبيل تحقيقها هذه الأموال .

وربما استشرفت النفوس إلى أمثلة من هذا البر بهين ذكرها على تفصيل هذا الإجمال . وإلى هذه النفوس المستشرقة أسوق هذه الأمثلة :

وقف الزبادى :

وقف تشتري منه صحاف الخزف الصينى ، فكل خادم كسرت آتيته ، وتعرض لنضب مخدمه ، له أن يذهب إلى إدارة الوقف فيترك الإناء المكسور ، ويأخذ إناء صحيحاً بدلاً منه ، وبهذا ينجو من غضب مخدمه عليه .

وقف الكلاب الضالة :

وقف فى عدة جهات ينفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب استنقاذاً لها من عذاب الجوع ، حتى تستريح بالموت أو الاقتناء .

وقف الاعراس :

وقف لإعارة الحلى والزينة فى الأعراس والأفراح ، يستعير الفقراء منه ما يلزمهم فى أفراسهم وأعراسهم ، ثم يعيدون ما استعاروه إلى مكانه . وبهذا ييسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة ولعروسه أن تجلى فى حلة رائقة ، حتى يكتمل الشعور بالفرح ، وتنجر الخواطر المكسورة .

وقف الغاضبات

وقف يؤسس من ريعه بيت . ويعد فيه الطعام والشراب ، وما يحتاج إليه الساكنون ، تذهب إليه الزوجة التي يقع بينها وبين زوجها نقور ، وتظل آكلة شاربة إلى أن يذهب ما بينها وبين زوجها من الجفاء وتصفو النفوس ، تعود إلى بيت الزوجية من جديد .

وقف مؤنس المرضى والغرباء .

وقف ينفق منه على عدة مؤذنين ، من كل رخييم الصوت حسن الأداء ،

فیرتلون القصائد الدينية طول الليل بحيث یرتل كل منهم ساعة ، حتى مطلع
الفجر ، سعياً وراء التخفيف عن المريض الذى ليس له من يخفف عنه ، وإيناس
الغريب الذى ليس له من يؤنسه .

وقف خداع المريض :

وقف فيه وظيفة من جملة وظائف المعالجة فى المستشفيات ، وهى تكليف اثنين
من المرضى أن یبقوا قريباً من المريض ، بحيث یسمعهما ولا یراهما ، فيقول أحدهما
لصاحبه : ماذا قال الطبيب عن هذا المريض؟ فیرد عليه الآخر : إن الطبيب یقول :
أنه لا بأس فهو مرجو البرء ، ولا یوجد فى علته ما یشفل البال وربما نهض من
فراش مرضه بعد یومین أو ثلاثة أيام .

وهكذا سلك الواقفون كل ماسالك الخیر ، فلم یدعوا جانباً من جوانب الحياة
دون أن یكون لآخر نصیب فيه .

وبهذا إنما یصدرون عن إحساسات إنسانية عميقة ، تنفذ إلى موطن الحاجة
التي تعرض للناس فى كل زمان ومكان .

ولاشك أن العقيدة هی صاحبة الفضل فى خلق هذه الأحاسيس الرقيقة ،
وإيقاظ تلك المشاعر السامية التي تنبّهت لتلك الدقائق ، فى كل زاوية من زوايا
المجتمع وكل منحى من مناحى الحياة ، ولم یكفهم أن یكون برهم مقصوراً على
حياتهم القصيرة ، فأرادوا صدقة جارية ، وحسنة دائمة ، یكتب لهم أجرها ما بقيت
الحياة ، وبقي الإنسان .

الجرائم البشعة ولیدة الكفر والقسوة .

إن القلوب المؤمنة لا تخلو من رحمة ، والكفر بالله والآخرة یتبعه قلب
غلیظ قاس : والقلوب القاسية هی التي ترتكب عادة أشنع الجرائم التي تقشع
لهولها الأبدان .

ولو قلبنا صفحات التاريخ لوجدنا الجرائم المروعة فيه إنما اقترفها أناس لا يرجون الله وقاراً ، ولا يحسبون للآخرة حساباً . فرعون الطاغية المتكبر الجبار الذى ذبح الأبناء ، واستحيا النساء ، لم يكن يؤمن بالرجوع إلى الله فى الآخرة ، فصنع ما صنع « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » (١) .

« وقال موسى إني عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

و « نيرون » الذى أحرق روما ، و « لينين » الذى قال فى بعض رسائله إلى مكسيم جوركى : إن قتل ثلاثة أرباع العالم يهون فى سبيل أن يصبح الربع الباقي شيوعياً .

والمذابح التى صنعها الماديون الشيوعيون فى الموصل وكر كوك والعراق من دفن الناس أحياء ، وجر الجثث فى الشوارع (السحل) أوضح شاهد على جهود القلوب عند الماديين .

وكتب صحفى معروف (٢) : فى كتاب « ماذا يحدث للشيوعيين » الذى ألفه الكاتب الرومى « ميشيل باديف » إحصاء غريب عن عدد الذين أعدمهم ستالين من أنصاره بعد وفاة لينين .

فقد أعدم ستالين جميع أعضاء أول مجلس إدارة للحزب اجتمع بعد وفاة لينين ، وأجمع على انتخاب ستالين .

وأعدم كل وزراء لينين وأتهمهم بالخيانة .

وأعدم ٨٠ بالمائة من سكرتيرى اتحادات العمال الذين اجتمعوا وباركوا انتخابه .

(١) سورة القصص ٢٨ .

(٢) كتاب « أفكار للبيع » ص ١٤١ تحت عنوان « أنصار الطغاة » .

وأعدم ١٥ عضواً من الـ ٢٧ عضواً الذين تألفت منهم اللجنة التي وضعت دستور ١٩٣٦ .

وأعدم ٤٣ سكرتيراً من ٥٣ سكرتيراً ، الذين يشرفون على تنظيمات الحزب الشيوعي .

وأعدم ٧٠ من ٨٠ عضواً من أعضاء مجلس الدفاع السوفيتي .
وأعدم (٣) ثلاثة مارشالات من (٥) خمسة مارشالات في الجيش الأحمر .

وأعدم ٩ وزراء من الـ ١١ وزيراً الذين كان يتألف منهم مجلس وزرائه عام ١٩٣٦ .

وأعدم ٦٠ بالمائة من قواد الجيش الأحمر و ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف موظف من موظفي الحكومة .

وهكذا عند غياب الحرية فالحال كما يستطيع أن يحكم على كل من يخالفه ، وأن نقضى عليه دون أن يقاضيه ، ودون أن يسمح لأى صوت حر أن يعترض ، ويقول له : « قف تعال نحتكم معاً إلى العدالة » .

ويقول : إن فقدان الحرية ليس وحده سر هذه الجرائم البشعة ، والمجازر المريعة ، فقد حكم شعوباً كثيرة مستبدون كثيرون ولكنهم لم يصنعوا بأعدائهم ما صنع هؤلاء بأنصارهم ، وذوى حزبتهم ، ولكنها قلوب أقفرت من الإيمان ، فأقفرت من الرحمة ورعاية الإنسان لأخيه الإنسان .

مثلان من أمثلة الرحمة المؤمنة :

أين هذه القسوة الرجيمة ، والقلوب الصخرية من تلك القلوب الرقيقة اللينة التي تخشى الله وترجو الآخرة ، وتؤمن أنها إن سلمت من حساب الدنيا فلن تسلم من حساب يوم القيامة . وإن أفلتت من يد الانتقام هنا ، فلن تغلب من يد

العدل هناك ؟ وأنها لا تكتفى أن تقف في مرتبة العدل ، والقصاص بالمثل ، ولكنها تتطلع إلى درجة الفضل والعفو . « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » !؟

وإذا كان لنا أن نضرب أمثلة من تاريخ العقيدة الزاهرة ، وعملها في الأنفس والقلوب فإننا نكتفى في هذا المقام بمثلين اثنين من خلفاء المسلمين .

المثل الاول :

ما صنعه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وقد حاصر داره الثائرون ، الذين عملت فيهم الدعاية اليهودية السبئية عملها ، ودفعتهم إلى الثورة المسلحة على الخليفة الشيخ ، ولكن الخليفة أبي أن يقابل القوة بالقوة ، والسلاح بالسلاح ، وإن أدى ذلك إلى إراقة دمه . ذكروا أن عبد الله بن عمر لبس درعه وتقلد سيفه « يوم الدار » وهو الاسم الذي أطلق على يوم محاصرة عثمان في داره لقتله — فعزم عثمان عليه أن يخرج ، ويضع سلاحه ، ويكف يده ، ففعل .

ودخل عليه زيد بن ثابت فقال : إن هذه الأنصار بالباب ، ونقول : إن شئت كنا أنصار الله مرتين . قال : لا حاجة لي ، كفوا .

وعن عامر بن ربيعة قال : كنت مع عثمان في الدار ، فقال : اعزم على كل من رأى أن لي عليه سمعاً وطاعة أن يكف يده ، ويلقى سلاحه ... فألقى القوم أسلحتهم .

وقال بعض أنصاره : نهانا عثمان عنهم (الثوار) ، ولو أذن لنا عثمان فيهم لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارنا .

وهكذا رفض الخليفة إراقة الدماء ، ولو كان ذلك في نصرته ،
والدفاع عنه ، وحاول أن يردم بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي
هي أحسن ..

أشرف عليهم يوماً وقال لهم : أنه لا يحل سفك دم امرئ مسلم إلا في إحدى
ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس . فهل أنا
في واحدة منهن ؟ فما وجد القوم له جواباً .

وقال لهم مرة : أيها الناس إن وجدتم في الحق أن تضعوا رجلي في القيد
فضعوهما ، فما وجد القوم له جواباً . ثم قال : أستغفر الله إن كنت ظلمت ، وقد
غفرت إن كنت ظلمت !! .

واعتصم الخليفة بالصبر ، وأبى أن تسل السيوف تأييداً له حتى خرج الثوار
الأرض بدمه ، كراهة أن يلقي الله بدم أحد في عنقه .

قال معبد الخزاعي لعلي بن أبي طالب : أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل
عثمان ولم تنصره ؟ قال : إن عثمان كان إماماً ، وإنه نهى عن القتال ، وقال : من مل
سيفه فليس مني ، فلو قاتلنا دونه عصينا .

قال : فأى منزلة وسعت عثمان ، إذ استسلم حتى قتل ؟ قال ، المنزلة التي وسعت
ابن آدم ، إذ قال لأخيه « لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بياسط يدي إليك
لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين » .

المثل الثاني :

وأما المثل الثاني فهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، إذ يتربص به اثنان من
طائفة الخوارج (شبيب الأشجعي ، وعبد الرحمن بن مجلم) وقد خرج قبيل
الفجر يوقظ الناس للصلاة ، فترقباه بباب المسجد حتى دخل فضر به شبيب فأخطأه ،

وضربه ابن ملجم على صلته ، فقال على كرم الله وجهه : « فزت ورب السكمة »
أى بالشهادة . وتجمع الناس بسرعة على الرجلين ، فأما شبيب فاستطاع أن يفسل
من بين الناس . وأما ابن ملجم فلم يكتف بجريمته الشنعاء حتى حمل بسيفه على الناس
فأفروا له ، وتلقاه المغيرة بن نوفل — أخو الهاشميين — بقطيفة فرمى بها عليه ،
واحتمله فضرب به الأرض وكان قوياً أيداً ، فقعده على صدره . ثم أقبل الناس على
على رضى الله عنه ، يسألونه ما يصنعونه به ؟ فماذا قال على فى شأن قاتله
البغيض وهو الخليفة الأمر المطاع ؟ .

قال : « إن أعش فالأمر إلى ، وإن أصبت فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن
تقتصوا فضربة بضربة ، وإن تعفوا أقرب للتقوى » .

هذا هو منطق الإيمان : ضربة بضربة ، وإن تعفوا أقرب للتقوى ، ألا
ما أروع وما أعظم ؟ ؟

ترى كم كان يذهب ضحية من قوم هذا القاتل وحزبه لو كان الأمر بيد الماديين
الذين لا يخشون الخالق ولا يرحمون الخلق !!؟

الإيمان والإنتاج

ونعني بالإنتاج هنا : الإنتاج الاقتصادي بخاصة ، والإنتاج المادى والمعنوى بجماعة ، ذلك أن بعض الناس يخيل إليه أن الإيمان بالدين وعقائده قد يؤخر عجلة الإنتاج أو يعوقها في سيرها وحركتها ، بما يبيت في النفوس من حب الحياة والرغبة في العمل المادى ، وبما يلقى في قلوب الناس أن الإنسان مسير لا مخير وأن الحياة الدنيا لا تستحق العمل والاهتمام ، لكم يخسر المجتمع ، وتتأخر الحياة ، إذا شاع فيها هذا اللون من الإيمان .

وهذه أوهام أشاعها الجهل عن الدين والإيمان ، والحقيقة أن الإيمان أعظم دافع للإنتاج لو تأمل الناس وأنصفوا ، فالإنتاج لا ينمى ويزداد إلا بما يبذل الناس من جهد وعمل ، وما يصحب هذا العمل من إحكام وإتقان . ولا يتحقق هذا وذاك إلا في جو من الأمانة والإخلاص للعمل ، وذلك لا يكون إلا بباعث قوى ، وحافز غلاب ، فهل هناك باعث أقوى تأثيراً من الإيمان ؟

الإيمان والعمل :

إن الإيمان الصادق ليس مجرد إدراك ذهنى أو تصديق قلبى غير متبوع بأثر عملى فى الحياة — . . كلا ، إنه اعتقاد وعمل وإخلاص .

ومهما اختلف علماء الكلام والجدل فى العقائد حول مفهوم الإيمان وصلة العمل به : فهو جزء من مفهومه أم شرط له أم ثمرة من ثمراته ، فإنهم متفقون على أن العمل جزء لا يتجزأ من الإيمان الكامل .

وقد روى فى الأثر ما يصور لنا حقيقة الإيمان : « ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » ^(١) .

(١) رواه ابن النجار والديلمى فى سند القردوس من حديث أنس ورمز له السيوطى فى الجامع بلامه الضعف .

وقد ذكر القرآن الكريم الإيمان مقروناً بالعمل في أكثر من سبعين آية من آياته ، ولم يكتف بمجرد العمل ولكنه يطلب عمل « الصالحات » وهي كلمة جامعة من جوامع القرآن تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين ، وما يصلح به الفرد والمجتمع ، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معاً .

دافع المؤمن الى العمل دافع ذاتي :

والمؤمن بالدين عامة وبعقيدة الإسلام خاصة ، لا يساق إلى العمل الدنيوي سوق القطعان . لا يدفعه إليه قهر حكومي أو ضغط خارجي ، أو رقابة من سلطة تنفيذية نشهر عليه سيف التهديد بالجوع والحرمان أو عذاب الهون . كما يعرف في الأنظمة الاشتراكية .

وإنما يندفع المؤمن إلى العمل بحافز من نفسه ، وباعث من ذاته ، بإيحاء ينبعث من داخله لا سوطاً يسرقه من الخارج . ذلك الباعث الذاتي هو الإيمان بالله وبرسالة السماء ، وبمهمته في عمارة الأرض والسيادة على الكون .

إن المؤمن يوقن أن السعادة في الآخرة والنجاح في الأولى موقوف على العمل . الجنة في الآخرة ليست جزاء لأهل البطالة والكسل والفراغ ، بل لأهل الجهد والعمل والإنفاق . « وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون » . « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

الفوز في الآخرة بالعمل لا بالاماني :

وقد هدمت عقيدة الإسلام ذلك الطمع الأشعبي ، والأمانى الفارغة التي جعلت صنفاً من الناس يحسبون الجنة حكرأ لهم ، أو عقاراً سيتوارثونه عن الآباء والأجداد ، يستحقونها بمجرد الانتساب إلى دين معين أو الدخول تحت عنوان خاص .

أبطل الإسلام هذه الدعاوى العريضة ، ورد الأمر كله إلى صدق الإيمان وحسن العمل « وقلوا : ان يدخل الجنة إلامن كان هودا أو نصارى ، تلك أمانيم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وبهذا رسم الطريق إلى الجنة : إسلام الوجه إلى الله وإحسان العمل .

ولم يكن هذا موقفه من اليهود والنصارى فحسب ، فلقد وقف نفس الموقف من الأشعيين ، من المسلمين أنفسهم ، أولئك الحق الذين يتبعون أنفسهم هواها ويتمنون على الله الأمانى ، ويظنون أن النطق بكلمة الإسلام ، أو التمسى بأسماء المسلمين يسفى إيفتح لهم أبواب الجنة ، فيدخلوها بسلام آمنين ، ولكن القرآن بين لهم بوضوح أن قانون الله فى الجزاء عام لعباده قاطبة ، لا محابة عنده ، ولا فرق بين طائفة وطائفة .

روى المفسرون للقرآن أن مجلساً ضم جماعة من اليهود والنصارى والمسلمين فزعمت كل طائفة منهم أنهم أولى الناس بدخول الجنة ، اليهود قالوا : نحن أتباع موسى الذى اصطفاه الله برسالاته وبكلامه . والنصارى قالوا : نحن أتباع عيسى روح الله وكلمته .

والمسلمون قالوا : نحن أتباع محمد خاتم النبیین وخير أمة أخرجت للناس ، ولم يدع القرآن هؤلاء وهؤلاء لدعاوهم وتنازعهم ، فنزات آياته حاكمة قاصلة ، قاضية عادلة ، تخاطب المسلمين فى صراحة وجلالة « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى — وهو مؤمن — فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً » .

النجاح في الدنيا بالعمل :

ولا يذهب الظن أو الوهم بأحد ، فيحسب أن ارتباط السعادة والفوز بالعمل مقصور على الآخرة وحدها ، فان قوانين الله في الجزاء واحدة ، ورب الدنيا والآخرة واحد ، فالله تعالى يقول : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » « فنعلم أجر العاملين » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

وسنة الله — التي أخبرنا القرآن أنها لا تتبدل ولا تتحول — لا تسمح لفارغ أو قاعد أو كسول أن يظفر بما يريد ، أو يحقق ما يأمل ، بل إن سنن الله في الدنيا لا تفرق في الجزاء على للعمل بين مؤمن وكافر . . . فمن عمل أجر ، ومن قعد حرم ، مهما كان دينه أو اعتقاده .

وبهذا يندفع المؤمن إلى العمل دائما ، حتى لا يصادم سنن الله في الكون فتصدمه ، فيكون من المهالكين .

المؤمن يغشى الله في عمله فيثبته :

والمؤمن لا يكتفى بالاندفاع الذاتي إلى العمل ، بل يهيمه أن يجوده ، ويتقنه ويبيذل جهده لإحسانه وإحكامه ، لشعوره العميق ، واعداده الجازم أن الله يرقبه في عمله ، ويراه في مصنعه أو في مزرعته أو في أى حال من أحواله ، وأنه تعالى « كتب الإحسان على كل شيء » ^(١) وقد فسر نبي الإسلام هذا الإحسان في جانب العبادة ، فقال : « الإحسان ، أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(٢) .

وهذا هو شعور المؤمن في كل عمل من الأعمال — لا في العبادة وحدها — أن يؤدي العمل كأنه يرى الله ، فإن لم يبلغ هذه المرتبة فأقل ما عليه أن يشعر أن الله يراه ، وشعار المؤمن دائما في أدائه لعمله : إني أرضى ربي .

(١) حديث صحيح رواه مسلم . (٢) جزء من حديث جبريل المشهور .

وربه لا يرضيه منه إلا أن يقوم بعمله في صورة كاملة متقنة ، وهذا ما علّمه نبي الإسلام للمؤمنين « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » ^(١) عملاً أى عمل من أعمال الدنيا أو من أعمال الآخرة .

وهناك خلقان أصيلان يتوقف عليهما جودة العمل ، وحسن الانتاج ، وهما :
الامانة ، والاخلاص ، وهما في المؤمن على أكمل صورة وأروع مثال .

فالمصانع المؤمن مثلاً ليس هم مجرد الكسب المادى من صنعه ، أو إرضاء صاحب المصنع إن كن يعمل عنده بأجر . والى كنه أمين على صنعه يخلص فيها جهده ، ويرقب فيها ربه ، ويرعى حق إخوته المؤمنين وهم له أولياء ، وعليه رقباء ، ويرجو بعد ذلك جزاء الله في الآخرة ، « وفل اعلموا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » ^(٢) .

إننا كثيراً ما نقرأ في الصحف ، وما نسمع من الناس ، كما نشاهد نحن بأعيننا ، ما تعانيه المؤسسات الامانة من أجهزة تتوقف — على جذنها — وأدوات تمخرّب على متانتها ، ومصالح تعطل ، مع حاجة الجمهور إليها ، وأعمال يكفئها يوم تستغرق أياماً . ونتيجة ذلك أن مذكروعات ناهمة تنشل ، وجهوداً مخصصة تبعثر ، وأموالاً طائلة تضيع ، وأن الإنتاج الامام بعد ذلك كله يتدهور أيما تدهور . وما ذلك إلا لفقْدان الأمانة والاخلاص ، وخراب الضمائر ، عند أولئك الذين لا يرجون الله وقاراً ، ولا يحسبون الآخرة حساباً .

اثر السكينة النفسية في الانتاج :

والمؤمن — كما عرفنا — يتمتع في حياته بسكينة النفس ، وطمأنينة القلب وانشراح الصدر ، وبسمة الأمل ، ونعمة الرضى والأمن ، وروح الحب والصفاء ، ولا ريب أن لهذه الحالة النفسية أثرها في الإنتاج ، فإن الإنسان الشارد أو المضطرب

أو القلق أو اليأس أو الحاقد على الناس والحياة ، قلما يحسن عملا يوكل اليه ،
أو ينتج إنتاجا يقنع ويرضى .

هذا أمر يعرف بأدنى ملاحظة ، لا يحتاج إلى إحصاء العالم ، ولا برهنة الفيلسوف

أثر الاستقامة في الإنتاج :

والمؤمن الصادق الإيمان يقف عند حدود الله ، وينتهى عما نهاه ، وينأى بنفسه
عن ارتكاب الموبقات ، والانغماس في أحوال المحرمات ، وإرسال العنان للشهوات ،
إن إيمانه يأبى عليه أن يفرغ طاقته في سهر عابث ، وهو حرام ، يأبى عليه أن يجرى
وراء قدح يفور بالخم ، أو مائدة تدور بالقمار أو جسد يمحور بالفتنة .

وبذلك يظل محتفظاً بحيويته وطاقته الجسدية والعصبية والعقلية والنفسية ، فلا
يصرفها إلا في العمل الصالح أو ما يعين عليه من لهو برى .

وهذا كسب كبير للفرد نفسه ، ولأسرته وأولاده ، وللمجتمع الذى يعيش
فيه ، وللحياة الإنسانية عامة .

إننا لو أحصينا ما تسهلكه الشهوات المحرمة ، والموبقات المحظورة ، والملاهي
الآثمة — التى يجتنبها المؤمنون الصادقون — من الطاقات الإنسانية والمادية —
لبلغت حداً هائلاً يفوق ما تبتلعه الحروب المدمرة ، والأوبئة الفتاكة ، والكوارث
المخربة ، ولكن الإلف والعادة هما اللذان هوّنا على الناس هذه الخسائر الفادحة ،
التي تصاب بها الإنسانية كل يوم ، بل كل ساعة . وقد نشرت الصحف أن فى
أمريكا ٧٢ مليوناً يتعاطون الخمر ، منهم ٢٠ مليوناً يكلفون الدولة بليونى دولار
كل سنة ، بسبب تخلفهم عن العمل . فإذا كانت هذه مغارم الخمر وحدها فكم تبلغ
مغارم سائر الموبقات وسوء أثرها على الإنتاج ؟ !

إحساس المؤمن بقيمة الوقت :

والمؤمن أعمق الناس إحساساً بقيمة الوقت . إن الله سائله يوم الجزاء عن

عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ فهو لهذا يضمن بوقته أن يضع في عبث، أو يبعثر في مهب الرياح الهوج. إنه رأس ماله الوحيد، فكيف يضيعه ويبقى صفر اليدين؟ إن الوقت نعمة يجب أن تشكر بالانتفاع بها، ولا تكفر بالتفريط فيها. وقد قال عمر بن عبد العزيز: «إن الليل والنهار يعملان فيك فأعمل فيهما».

المؤمن يشعر كأن كل يوم تبزغ شمس أو ينشق فجر، يناديه بصوت جدير: أيها الإنسان أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزود مني واغتنمني بعمل الصالحات فإنني إذا مضيت لا أعود أبداً.

وهو الذي يخشى أن تنفست الأيام من يديه خاوية من العمل والإنتاج، فلا يؤخر عمل اليوم إلى غد، لأن للغد عمله الذي يزحمه، فلا يتسع لعمل غيره من الأيام.

وهو كذلك حريص على أن يكون يومه خيراً من أمسه، وغده خيراً من يومه، وأن يظيل حياته — بدموته — بطول أعماله، ويمد عمره بامتداد الجليل من آثاره، إنه يحرص أن يخلف وراءه علماً نافعا، أو عملاً طيباً، أو مشروعاً مثمراً، أو صدقة جارية أو ذرية صالحة، وعلى قدر ما يمتد ويبقى الأثر الذي يخلفه وعلى قدر ما ينتفع الناس به تكون مثوبته عند الله. هذه الروح هي التي جعلت رجلاً كأبي الدرداء — صاحب رسول الله — يفرس شجرة الجوز وهو في الشوط الأخير من رحلة الحياة فيقول له بعض الناس: أتعرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير، وهي لا تثمر إلا بعد كذا وكذا من السنين؟ فيقول له أبو الدرداء: وماذا علي أن يكون لي ثوابها ولغيري ثمرتها؟

وهي التي جعلت آخر يفرس شجرة الزيتون ويقول: غرس لنا من قبلنا فأكلنا ونعرس لياكل من بعدنا.

العبادات والانتاج :

ولقد يقول بعض الناس : إن كل عقيدة دينية تفرض على المؤمنين بها ألواناً من العبادات وضروباً من القربات والمراسيم ، تأخذ من أوقات الناس شيئاً يضيق ويتسع باختلاف الأديان وصنوف عباداتها . وخذ مثلاً الصلاة الإسلامية التي تؤدى كل يوم خمس مرات : أليس في ذلك تعطيل للعمل ، وتعويق للعمل ، في عصر الآلة والسرعة والمنافسة الجبارة ؟

والحق أن العبادات في لأديان عامة لا تأخذ من وقت الناس إلا القليل ، ما لم يشرع الناس لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فيشقوا على أنفسهم ويرهقوها عسراً .

على أن القليل الذي ينفق في العبادة ، ليس وقتاً ضائعاً على الحياة والانتاج . كلا . إنه شحن للطاقة وشحن للهمة ، وتوايد للقوة ، وصقل لمعدن النفس ، تعود إلى معركة الحياة أقوى وأمضى .

وإنه لمن الظلم للواقع أن يقاس الشيء بآثره المادى المباشر المنظور وينقل عن أثره الفعال الخفى المادى فى النفس وفى المادة أيضاً .

ما أصدق ما قال الدكتور الكسيس كادليل مؤلف كتاب « الإنسان ذلك المجهول » وأحد الحائزين على جائزة « نوبل » .

« لعل الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا ، وقد رأيت — بوصفى طبيباً — كثيراً من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم ، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليماً تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عليهم » .

« إن الصلاة كمعدن « الراديو » مصدر للاشعاع . ومولد ذاتى للنشاط ، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود ، حين يخاطبون القوة التي لا ينفى نشاطها » .

«إننا نربط أنفسنا - حين نصلي - بالقوة العظمى التي تهيم على الكون . ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها، نستعين به على معاناة الحياة . بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا . ولن نجد أحداً ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه هذه الضراعة بأحسن النتائج » .

وإذا كان هذا أثر الصلاة بعامة فإن الصلاة الإسلامية بخاصة أبعد أغواراً وأعق آثاراً ، إنها ليست تعبداً محضاً ، ولا ضراعة خالية من معاني الحياة ، إنها - مع الضراعة والتعبد - نظافة ، وثقافة ، ورياضة ، وتربية خلقية ، وهي - بما سنه الإسلام من نظام الجماعة - مدرسة لتعليم المبادئ الاجتماعية المثلى ، ومعهد للتربية العملية على المحبة والإخاء ، والمساواة بين الناس .

وليت شعري هل يخسر الإنتاج أم يربح من رجل يستيقظ قبل أن تبرز الشمس من خدرها ، فيقوم فيتوضأ ويتطهر . ويصلي لربه ، ويستقبل نهاره مبكراً طيب النفس ، نشيط البدن ، منشرح الصدر ، قوى اليقين ؟

وبحق ما قاله أحد الباحثين في أثر صلاة الجماعة الإسلامية في حياة المسلم :

« وإنه - وإيم الحق - انعمة كبرى أن يكون في مكنة الإنسان التمتع خمس مرات يومياً بجو من السلام التام وسط عالم يسوده الصراع والنضال ، وبجو من المساواة على حين يسكون التباين هو النظام السائد ، وبجو من المحبة في معمعة الأحقاد الوضيعة ، والتنابذات والحصومات المفعمة بها الحياة اليومية .

إنها حقاً لأجلز النعم لأنها العرة الجلى من الحياة . فليس الإنسان بد من أن يعمل وسط التباين والنضال والصراع ، ووسط مشاهد البغضاء والتشاحن ، ومع ذلك ينتزع نفسه من كل هذا خمس مرات ليسكتته حقيقة المساواة والإخاء والمحبة من حيث أنها هي المصادر الحقة للسعادة الإنسانية .

ومن أجل ذلك كان الوقت الذي تسغرقه الصلاة غير مضيع عبثاً من

ناحية الخبرة الفاعلية ، والنفع العملي للبشرية ، إذ أنه على العكس من ذلك قد استغل أحسن استفلال ، بتعلم تلك الدروس الجليلة ، التي تجعل الحياة حقاً جذيرة باعيش فيها .

وتلك الدروس في الإخاء والمساواة والمحبة تصبح بممارستها عملياً في الحياة اليومية دعائم لتوحيد الجنس البشري ، وتخليد الحضارة الأندية ابني الإنسان .

المؤمن يعمر أرض الله بالعمل :

ولقد يفرق بعض الناس في الخيال ، فيتصورون المؤمن درويشاً في «تكيته» أوراهاً في «ديره» متبتلاً للعبادة ، منقطعاً عن الحياة ، وهذه كارثة على العمل والإنتاج .

ولكن هذه الصورة - إن عرفها بعض الأديان في بيئات معينة - لا تعرفها عقيدة الإسلام ، فالإسلام لا يعرف المؤمن إلا كادحاً عاملاً مؤدياً دوره في الحياة ، آخذاً منها معطياً لها . مستجيباً لما أراده الله من بني آدم حين جعلهم خلفاء الأرض « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

عقيدة الإسلام لا تعرف يوماً من أيام الأسبوع ، يخلص للعبادة ، وينقطع الناس فيه عن أعمال الحياة - كما تعرف اليهودية مثلاً - ولكن الأيام جميعها في الإسلام أيام عمل ، والعمل الدنيوي في الإسلام - يمكن أن يكون عبادة بصدق النية .

هذا يوم الجمعة عيد الإسلام الأسبوعي ، يقول الله تعالى فيه : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً أملككم تفلحون » .

فهذه حياة المسلم في يوم الجمعة ، عمل وبيع وتجارة قبل الصلاة ، ثم
حصى إلى ذكر الله والصلاة ، ثم انتشر في الأرض وابتغاء من فضل الله بعد
انقضاء الصلاة .

وقد حدثوا أن عمر بن الخطاب رأى قوماً قابعين في ركن من المسجد بعد صلاة
الجمعة فسألم : من أنتم ؟ فقلوا : نحن المتوكلون على الله . فعلاهم عمر بدرته ونهرهم
وقال : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني وقد علم أن السماء
لا تمطر ذهباً ولا فضة . وأن الله يقول : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض
وابتغوا من فضل الله » .

الايان بالآخرة لا يعطل الدنيا :

ويزعم بعض الناس أو يظنون أن الإيمان بالآخرة ، والإقبال عليها يعطل العمل
للدنيا ، والكفاح من أجل ترقيةها . فإن الدنيا والآخرة ككفتي الميزان لا ترجح
إحداها إلا بمقدار ما تشيل الأخرى ، وكالمشرق والمغرب إذا اقتربت من أحدها
ابتعدت من الآخرة ، وكالضرتين إذا أرضيت إحداها أسخطت الأخرى !! .
وهكذا ، فكل إقبال على الآخرة يقابله إعراض عن الدنيا .

وهذا الكلام صحيح إذا نظرنا إلى القلوب والأهداف والنيات .. فمن جعل
الدنيا غايته ونيته وهمه ابتعد عن الآخرة بقدر ما تعلق قلبه بالدنيا . والعكس بالعكس .
أى أن المطلوب من المؤمن في الدنيا ، أن يعمل ويجهد ويكافح ، ويبنى ويعمر
ويشيد ، على أن تكون الآخرة نيته ، وغايته ، وأمله .

المؤمن يتخذ الدنيا مزرعة للآخرة ، والمزرعة تحتاج إلى عمل وسعى ، ولكن
الثمرة إنما تقطف كاملة في الآخرة ، وإن أدرك بعضها في الدنيا : « قل هي للذين
آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ذلكم هو المؤمن : يسخر الدنيا لنفسه .
ولا يسخر نفسه للدنيا ، المؤمن لا يتخذ الدنيا رباً فتتخذ الدنيا عبداً .. .

ولكنه بعد ذلك عضو عامل في جسم الأمة . ودم يجري في عروقها ، يمدد بالقوة والحركة والنماء ، فهو إذا زرع أحسن ، وإذا صنع أتقن ، وإذا تاجر برع ، ودور في كل جانب من جوانب الحياة حاذق مجيد ..

قد كان أصحاب النبي ﷺ ، زراعاً وصناعاً متقنين ، ولم يقعد بهم إيمانهم بالآخرة عن العمل للدنيا ، كيف وقد قال رسولهم (١) : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها ولماذا يغرسها والساعة ستقوم ، ولا أمل في انتفاع أحد من الخلق بها ؟ إنه تكريم العمل لذات العمل ، ولولم يكن من ورائه نفع وانتفاع .

التوكل ليس معناه « التواكل » :

« إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

بهذا الجواب العمرى تندفع تلك الشبهة التي تحوكم في بعض الصدور . ذلك أن من صفات المؤمن التوكل على الله ، والتسليم له في شأنه كله ، والقرآن الكريم يقول : « وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلاً ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » ، « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

ولكن ما معنى التوكل ؟

إن التوكل ليس معناه إطراح الإنسان للأسباب التي وضعها الله ، والاتكال عليه أن يخرق له العوائد ، ويجعل السماء من فوق رأسه تمطر الذهب والفضة ، والأرض من تحت قدميه تخرج له الخبز والإدام والسمن والعسل ، بلا جهد ولا سعى ولا تفكير ولا عمل .

(١) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد ، عن أنس وكذا البزار والطيالسي ، ورجاله ثقات وأثبت ؛ كما قال الهيثمي .

إن معنى التوكل أن يرتب الإنسان المقدمات . ويدع النتائج لله .

أن يبذر الحب ، ويرجو الثمار من الرب .

أن يقوم بالجانب البشرى الذى يخصه ، ويترك الباقي لربه ، يهيم له الأسباب
ويزيل من طريقه الموانع ، وما أكثر الأسباب التى يجهلها الإنسان ، وما أكثر
الموانع التى لا يعلمها فضلاً عن أن يستطيع تذليلها .

ولقد جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فترك ناقته بباب المسجد سائبة بلا عقل ،
وزعم بذلك أنه يتوكل على الله فى حراستها . فقال له النبي الكريم كلمه التى
سرت فى المسلمين مسرى الأمثال السائرة : « اعقلها وتوكل » .

والحديث الذى يتعلق بأذياله المتبطلين : « لو توكلتم على الله حق توكله
لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خفاصاً وتروح بطاناً » هو فى الواقع حجة عليهم
لأنهم ، فإنه لم يضمن لها الرواح ملأى البطون ، إلا بعد غدوها وسعيا ، لا مع
يقاؤها فى أوكارها .

الإيمان والإصلاح

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

إن إصلاح الجماعات والشعوب لا يحىء جزافاً ولا يتحقق عفواً .

إن الأمم لا تنهض من كبوة ، ولا تقوى من ضعف ، ولا ترتقى من هبوط ، إلا بعد تربية أصيلة حقة ، وإن شئت فقل : بعد تغيير نفسى عميق الجذور ، يحول الهمود فيها إلى حركة ، والغفوة إلى صحوة ، والركود إلى يقظة ، والفتور إلى عزيمة ، والعقم إلى إنتاج ، والموت إلى حياة . تغيير فى عالم النفس أشبه ما يكون « بثورة أو انقلاب » فى عالم المادة ، تغيير يحول الوجهة والأخلاق ، والميول والعادات . تغيير نفسى لا بد أن يصاحب كل حركة أو نهضة أو ثورة سياسية أو اجتماعية — ومن غيره تكون النهضة أو الثورة حبراً على ورق ، أو كلاماً أجوف يتبدد فى الهواء . . .

سنة قائمة من سنن الله تعالى فى الكون ، قررها القرآن الكريم فى عبارة وجيزة بليغة : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ولكن هذا التغيير أمر ليس بالهين اليسير ، إنه عبء ثقیل تنوء به الكواهل ، فإن الإنسان مخلوق مركب معقد ، ومن أصعب الصعب تغيير نفسه أو قلبه ، أو فكره .

إن التحكم فى مياه نهر كبير ، أو تحويل مجراه ، أو حفر الأرض ، أو نسف الصخور ، أو أى تغيير فى معالم الكون المادى أسهل بكثير من تغيير النفوس ، وتقلب القلوب والأفكار .

إن بناء المصانع والمدارس والسدود والمنشآت سهل ومقدور عليه ، ولكن الأمر الشاق حقاً هو بناء الإنسان .. الإنسان القادر على نفسه ، المتحكم في شهواته ، الذى يعطى الحياة كما يأخذ منها ، ويؤدى واجبه كما يطلب حقه . الإنسان الذى يعرف الحق ويؤمن به ويدافع عنه ، ويعرف الخير ويحبه للناس كما يحبه لنفسه ، ويتحمل تبعته فى إصلاح الفساد . والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتضحية النفس والمال فى سبيل الحق .

إن صنع هذا الإنسان أمر عسير غير يسير .

ولكن الإيمان وحده هو صانع المعجزات ، الإيمان هو الذى يهيئ النفوس لتقبل المبادئ الخيرة مهما يكن وراءها من تكاليف وواجبات ، وتضحيات ومشقات ، وهو العنصر الوحيد الذى يغير النفوس تغييراً تاماً ، وينشئها خلقاً آخر . ويصحبها فى قالب جديد ، فيغير أهدافها وطرائقها ، ووجهتها وسلوكها ، وأذواقها ومقاييسها ، ولو عرفت شخصاً واحداً فى عهدين ، عهد الكفر وعهد الإيمان — لرأيت الثانى شخصاً غير الأول تماماً ، لا يصل بينها إلا الاسم ، أو النسب أو الشكل .

والإيمان كذلك لا يعترف بالمراحل والأعمار التى وضعها علماء النفس والتربية ، واشترطوها لنجاح المجهود التربوى .

إنهم يقررون أن هناك سناً معينة هى سن القبول لتكوين العادات ، واكتساب الصفات ، وتهذيب الطباع والأخلاق ، تلك هى سن الطفولة ، فإذا كبر المرء أو المرأة على صفات خاصة فبيها أن يحدث فيها تغيير يذكر ، فمن شب على شيء شاب عليه ، ومن شاب على شيء مات عليه :

وينفع الأدب الأحداث فى صغر

وليس ينفع عند الشيبة الأدب

إن الغصون إذا قومتها ائتمدت
ولن تلين إذا قومتها الخشب

ولكن هناك شيئاً واحداً تخطئ قواعد التربويين والنفسيين . ذلك هو الإيمان ، هو الدين . فالإيمان إذا سكن في قلب ، وتغلغل في أعماقه ، حول اتجاهه ، وغير نظره للكون والحياة . وأحكامه على الأشياء والأعمال ، وعدل سلوكه مع الله والناس ، ولم يَهَف في سبيل ذلك فتوة الشباب . ولا كهولة الكهول ، ولا هرم الشيوخ .

هل أتاكَ حديث سحرة فرعون ، الذين قص القرآن علينا قصتهم ؟ .. اقرأ هذه الآيات من سورة الشعراء : « فأتى موسى عصاه فإذا هي ثمان مابين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ حوله إن هذا اسـاحـر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ، فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فأتى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون . فأتى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . قل آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلن سوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف . ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » .

وفي سورة طه يحكى الله تهديد فرعون لهم : « لأقطعن أيديكم وأرجلكم

من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينما أشد عذاباً وأبقى . قالوا
لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض . إنما
تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من
السحر والله خير وأبقى .

كيف تغيرت شخصياتهم ؟ كيف انقلبت موازينهم ؟
كانت همهم مشدودة إلى المال «أئن لنا لأجراً ؟ » وكانت آمالهم منوطة
بفرعون « بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون » .

هذا منطقهم قبل أن يؤمنوا ... فلما ذاقوا حلاوة الإيمان كان جوابهم على
التهديد والوعيد في بساطة ويقين : « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ... » .
بعد أن كان همهم الدنيا صار همهم الآخرة « ليغفر لنا خطايانا » وبعد أن
كانوا يحلفون بعزة فرعون صاروا يقولون « والذي فطرنا » .

تغير الاتجاه ... تغير المنطق ... تغير السلوك ... تغيرت الألفاظ ... أصبح
القوم غير القوم ... وما ذلك إلا من صبح الإيمان .

وفي القصة القصيرة التي رواها الإمام مسلم في صحيحه برهان مبين على
مبلغ أثر الإيمان ، ذلك أن رجلاً كان ضيقاً على النبي صلى الله عليه وسلم فأمر له
بشاة فحلبت ، فشرب حلابها ، ثم أمر له بثانية فشرب حلابها ، ثم بثالثة
فرابعة ... حتى شرب حلاب سبع شياه ، وبات الرجل ، وتفتح قلبه للإسلام ،
فأصبح مسلماً ، معلناً إيمانه بالله ورسوله ، وأمر الرسول له في الصباح بشاة
فشرب حلابها ، ثم أخرى لم يستتمه ، وهنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم كلمته
المأثورة : « إن المؤمن ليشرب في معي واحد والكافر ليشرب في سبعة أمعاء » .

فيما بين يوم وليلة استحل الرجل من شره معن في التشبع ، حريص على ملء
بطنه ، إلى رجل قاصد عفيف قنوع ، ماذا تغير فيه ؟ ... تغير فيه قلبه ، كان

كافراً فأصبح مؤمناً ، وهل هناك أسرع أثراً من الإيمان ؟

إن الإيمان الجديد أشعر الرجل بغاية ورسالة ، وفروض وواجبات ، ونفذ ذلك إلى أعماقه نفوذاً جعله ينسى همّ أمعائه ، ويعرض عن الامعان في الطعام والشراب ، وليست هذه حادثة فردية ، أو واقعة شاذة ، فهل يمكن أن ننكر أو ننسى ما فعله الإيمان بأمة العرب جميعاً ؟

لقد حار المؤرخون من الغربيين والمستغربين ، في فهم السر العجيب الذي حول هذه الأمة من رعاة غم إلى رعاة أمم ، ومن قبائل بدواة إلى أمة حضارة ، وهياً لها سبيل النصر على كسرى وقيصر ، وفتح لها باب السيادة على معظم الدنيا القديمة في عشرات من السنين لاعشرات من القرون .

ولكن العارفين لا يدهشون ولا يحارون ، فالسر معروف ، والسبب معلوم ، إن مرده هو « إكسير » الإيمان الذي صبه محمد عليه السلام في نفوس أصحابه . فقلهم من حال إلى حال ، من وثنية إلى توحيد ، ومن جاهلية إلى إسلام .

وحسبنا مثلاً على هذا التحول الخطير رجل وامرأة عرف أمرهما في الجاهلية وعرف أمرهما في الإسلام .

الرجل هو (عمر بن الخطاب) الذي رووا أنه بلغ في جاهليته من انحراف العقل ، أن عبد إلهاً من الحلوى ثم جاع يوماً فأكله ، ومن انحراف العاطفة ، أن وأد بنتاً له صغيرة كانت تمسح الغبار عن لحيته وهو يحفر لها مكاناً في التراب .

عمر هذا ينتقل من الجاهلية إلى الإسلام ، فيتحرر عقله حتى يقطع شجرة الرضوان التي بايع النبي أصحابه يوم الحديبية تحتها خشية أن يطول الزمن بالناس

فيقد سوما ، ويقف أمام الحجر الأسود بالكعبة فيقول : أيها الحجر ، أنى أقفلك
وأنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك
ما قبلتك .

وعمر هذا ... يبلغ من سوء عاطفته ، ورقة قلبه ، وخشيته لله ، ما ملأ
صفحات التاريخ بآيات الرحمة الشاملة للمسلم وغير المسلم ، بل للإنسان والحيوان ،
حتى قل - لو عثرت بقلبة بشط الفرات أرأيتنى مسؤولاً عنها أمام الله ... لم لم
أسو لها الطريق ؟

هذا هو الرجل .

أما المرأة فهي الخساء .. المرأة التي فقدت في جاهليتها أخاها لأبيها (صخراً)
فلأت الآفاق عاياه بكاء وعويلاً ، وشعراً حزيناً ، ترك الزمن لنا منه ديواناً كان
الأول من نوعه في شعر المراثى والدموع .

يذكرنى طلوع الشمس صخراً

وأذكره بكل غروب شمس

ولو لا كثرة الباكين حولى

على إخوانهم تقتلت نفسى

ولكننا بعد إسلامها نراها امرأة أخرى ... نراها أما تقدم فلذات أكيادها
إلى الميدان ، أى إلى الموت ، راضية مطمئنة ، بل محرصة دافعة ...

روى المؤرخون أنها شهدت حرب القادسية بين المسلمين والفرس تحت
راية القائد (سعد بن أبى وقاص) ، وكان معها بنوها الأربعة ، فجاست إليهم في
ليلة من الليالى الحاسمة ، معظمهم وتمحهم على القتال والثبات ، وكان من قولها لهم :
« أى بنى ، إنكم أسلمتم طائفين ، وهاجرتم مختارين ، والذي لا إله إلا هو إنكم

فليبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أبائكم ، ولا فضحت خالككم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله اعلمكم تفليحون » ، فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالين فاغزوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائكم مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن مفاها فتيموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالغنم في دار الخلد ... » .

فلما أصبحوا باشروا القتال بقلوب فنية ، وأنوف حمية ، إذا فتر أحدهم ذكره بإخوته وصيه الأم العجوز ، فزأر كالليث ، وانطلق كالسهم ، وانقض كالصاعقة ، فونزل قضاء الله على أعداء الله ، وظلوا كذلك حتى استشهدوا واحداً بعد واحد .
وبلغ الأم نعي الأربعة الأبطال في يوم واحد ، فلم تلطم خدّاً ، ولم تشق جيباً ، ولكنها استقبلت النبا بإيمان الصابرين ، وصبر المؤمنين ، وقالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمة » .

ما الذي غير عمر القديم وصنع عمر الجديد ؟

وما الذي غير خنساء التواح والبكاء إلى خنساء التضحية والفداء ؟

إنه صانع المعجزات ... إنه الإيمان !!

الفتاح الفد لا قفال الحياة :

إن الرجوع إلى الإيمان بالله والآخرة هو الأمل الوحيد في خلاص الإنسان مما يعانيه اليوم من مشكلات تهدد الإنسان بالدمار ، دمار خصائصه الذاتية ،

ومقوماته المعنوية ، التي كان بها إنساناً واستحق بها السيادة في الـكون والخلافة في الأرض .

إن الإيمان الحق — كما جاء به الإسلام — هو الحل الذي لمعد الحياة المعاصرة التي استعصت على العالم وعلى الفلاسفة ، وحرار فيها المفكرون والمشرعون وطلاب الإصلاح .

ويطيب لي أن أنقل هنا كلمة مضيئة للداعية الإسلامي الكبير أبي الحسن الندوي ، بين فيها كيف طلعت شمس الرسالة المحمدية على العالم فأفاضت عليه نوراً جديداً ، وحياة جديدة .

وكيف فتح النبي محمد صلى الله عليه وسلم أقفال الحياة الكريمة المتعددة بفتح الإيمان العجيب ، قل الأستاذ في حديث شاعري بينه وبين نفسه عند غار حراء في مكة المكرمة :

« لقد كانت الحياة كلها أقفالا معقدة أبواباً مقفلة ، كان العقل مقفلاً أعيا فتحتها الحكماء والفلاسفة ، كان ضمير مقفلاً أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين ، كانت القلوب مقفلة أعيا فتحتها الحوادث والآيات ، كانت المواهب مقفلة أعيا فتحتها التعاليم والتربية والمجتمع والبيئة ، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحتها العلماء والعالمان ، كانت الحكمة مقفلة أعيا فتحتها المنظلمين والمنحكرين ، كانت الأسرة مقفلة أعيا فتحتها المصالحين والمفكرين ، كان قصر الإمارة مقفلاً أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك ، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحتها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرضعاء ، لقد حاول المصلحون الكبار والمشرعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ففشلوا وأخفقوا ، فإن القفل لا يفتح بغير مفتاحه وقد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة وجربوا مفاتيح

من صناعتهم ومعادنهم فإذا هي لا توافق الأقفال وإذا هي لا تغنى عنهم شيئاً ،
وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجرحو أيديهم وكسروا آلهم .

ففي هذا المكان المتواضع ، المنقطع عن العالم المتمدن ، على جبل ليس
بمخصب ولا بشامخ تم ما لم يتم في عواصم العالم الكبيرة ومدارسه الفخمة ومكتباته
الضخمة ، هنا من الله على العالم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وفي رسالته
عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية ، ذلك المفتاح هو (الإيمان بالله والرسول
واليوم الآخر) ففتح به هذه الأقفال المعقدة قفلاً قفلاً ، وفتح به هذه الأبواب
المقفلة باباً باباً ، وضع هذا المفتاح النبوي على العقل المتلوى ففتح ونشط واستطاع
أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس ، ويتوصل مع العالم إلى فاطره ، ومن
الكثرة إلى الوحدة ، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام ،
وكان قبل ذلك محامياً مأجوراً يدافع عن كل قضية حقاً وباطلاً . وضع هذا
المفتاح على الضمير الإنساني النائم فانتبه ، وعلى الشعور الميت فانتعش ، وعاش ،
وتحوات النفس الأماراة بالسوء مطمئنة لا تسيع الباطل ولا تتحمل الإثم حتى
يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته ويلج على العقاب الأليم الشديد ، وترجع
المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها
للعقوبة التي هي أشد من القتل ، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى ويخفيه في
لباسه ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير لأنه مال الله الذي
لا يجوز الخيانة فيه .

كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدرج ولا ترق ولا تلين فأصبحت
خاشعة واعية تعتبر بالحوادث وتنفع بالآيات ، وترق للمظلوم وتخز عـلى
الضعيف .

وضع هذا المفتاح على القوى الخنوقة والمواهب الضائعة فاشتعلت كاللهيب

وتدفقت كالسيل ، واتجهت الاتجاه الصحيح ، فكان راعى الابل راعى الأمم وخليفة يحكم العالم وأصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفتح الشعوب العريقة في القوة والمجد . وضع المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلمون وزهد فيها المتعلمون وسقطت قيمة العلم وهان المعلم ، فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربي والمعلم ، وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ورفاق وأصبح كل مسجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة ، وأصبح كل مسلم متعلماً لنفسه ، معلماً لغيره . ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين .

وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضياً عادلاً وكل حاكم مسلماً حاكماً مقسطاً ، وأصبح المسلمون قوامين لله شهداء بالقسط ، ووجد الإيمان بالله ويوم الدين فكثر العدل وقل الجدل ، وفقدت شهادة الزور والحكم بالجور .

وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الولد ووالده ، والأخ وإخوته ، والرجل وزوجته ، وتعدى من الأسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرتدوس والكبير والصغير ، كل يريد أن يأخذ ماله ولا يدفع ما عليه ، وأصبحوا مطغفين إذا اكتلوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ففرس في الأسرة الإيمان وحذرها من عاب الله ، وقرأ عليها قول الله « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » ، وقسم المسئولية على الأسرة والمجتمع كله فقال : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ، وهكذا أوجد أسرة عالة منجاة مستقيمة ومجتمعاً عادلاً ، وأوجد في أعضائه شعوراً عميقاً بالأمانة وخوفاً شديداً من الآخرة حتى تورع الأمراء وولاة الأمور ، وتشفوا ، وأصبح سيد القوم خادمهم ، ووالى الأمة كولى اليتيم : إن استغنى استغنى وإن انتهر أكل بالمعروف ، وأقبل إلى الأغنياء

وانتجار فزهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة وأضاف الأموال إلى الله فقرأ عليهم « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » وحذرهم من اكتناز وادخار الأموال وعدم الإنفاق في سبيل الله فقرأ عليهم « والذين يكنزون الذهب والنضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تسكنزون » .

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته انفراد الصالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستعين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية ، يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق للآخرة . فإذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين ، وإذا كان فقيراً فهو الرجل الشريف السكادح ، وإذا كان عاملاً فهو العامل المجتهد الناصح ، وإذا كان غنياً فهو الغني السخي المواسي . وإذا كان قاضياً فهو القاضي العادل الفهم ، وإذا كان والياً فهو اولى الخلق الأمين ، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتراضع الرحيم وإذا كان خادماً أو أجيراً فهو الرجل القوى الأمين ، وإذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم . وعلى هذه المبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية في بدورها ، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسياتهم ، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أميناً مؤثراً للآخرة على الدنيا متغلباً على المادة غير محكوم لها ، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته ، وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغني ومواساته ، وعدل القاضي وحكمته وإخلاص الوالي وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الحادم ، وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة مؤثرة للعباد على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة

كلها إيمان وعمل صالح ، وصدق وإخلاص ، وجد واجتهاد ، وعدل في الأخذ والعطاء
وإنصاف النفس مع الغير .

وقد ذهلت في حديثي لنفسي ، وتمثلت إلى الجماعات الإسلامية الأولى
بجمالها وتفصيلها كأنى أشاهدها وأتنفس في جوها وانقطعت الصلة بينى وبين
العالم المعاصر .

وحانت منى النفاتة إلى هذا العصر الذى نعيش فيه فقلت : إنى لأرى أقفالا
جديدة على أبواب الحياة الإنسانية وقد قطعت الحياة مراحل طويلة وخطت
خطوات واسعة وتعقدت الحياة والتوت وتطورت المسائل وتنوعت . وتساءلت :
هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق ؟ وأبيت أن أحكم
بشئ . هل أختبر هذه الأقفال وأضع عليها المفتاح . ولست هذه الأقفال
بالبنان فإذا هى الأقفال القديمة بتلوين جديد . وإذا المشاكل نفس مشا كل العصر
القديم ، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذى لا يزال لبنة
المجتمع وأساس الحكومة ، ووجدت أن هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يؤمن إلا
بالمادة والقوة ولا يعنى إلا بذاته وشهوته وأنه يبالغ في تقدير هذه الحياة ويسرف
في عبادة الذات وإرضاء الشهوات ، وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة
الأنبياء وعقيدة الآخرة ، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدنية ، فإذا
كان تاجراً فهو التاجر المحتكر النهم الذى يحجب السلع أيام رخصها ويبرزها
عند غلائها ويسبب المجاعات والأزمات ، وإذا كان فتيماً فهو الفقير الثائر
الذى يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب ، وإذا كان عاملاً فهو
العامل المطفف الذى يريد أن يأخذ ماله ولا يدفع ما عليه . وإذا كان غنياً
فهو الغنى الشحيح القاسى الذى لا رجة فيه ولا عطف ، وإذا كان والياً فهو
الوالى الغاشى الناهب للأموال ، وإذا كان سيدياً فهو الرجل المستبد المستأثر الذى

لا ينظر إلا إلى فائدته وراحته ، وإذا كان خادماً فهو الضعيف الخائن ، وإذا كان خازناً فهو السارق المختلس للأموال ، وإذا كان وزير دولة أو رئيس وزارة أو رئيس جمهورية فهو المادى المستأثر الذى لا يخدم إلا نفسه وحزبه ولا يعرف غيره ، وإذا كان زعيماً أو قائداً فهو الوطنى أو الجنسى الذى يقدر وطنه ويعبد عنصره ويدوس كرامة البلاد الأخرى والشعوب الأخرى ، وإذا كان مشرعاً فهو الذى يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة ، وإذا كان مخترعاً اخترع المدمرات والناسفات ، وإذا كان مكتشفاً اكتشف الغازات المبيدة للشعوب ، الحربة للبلاد ، والقبيلة الذرية التى تهلك الحرث والنسل ، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ لم ير بأساً بإلقاء هذه القنابل على الأمم والبلاد .

وبهؤلاء الأفراد تكون المجتمع وتأسست الحكومة ، فكان مجتمعاً مادياً ، اجتمع فيه احتكار التاجر وثورة الفقير وتطيف العامل وشح الغنى وغش الوالى واستبداد السيد وخيانة الخادم وسرقة الخازن ونفعية الوزراء ووطنية ^(١) الزعماء وإجحاف المشرع وإمراف المخترع والمكتشف وقسوة المنفذ ، وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمت طريفة ومشاكل معقدة ، تشكو منها الإنسانية بثها وحزنها ، كالمسوق السوداء وفشور الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والنضخم النقدى ، وأصبح المفكرون والمشرعون لا يجدون حلاً لهذه المشاكل وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى ، بل إن حلولهم القاصرة ومعالجتهم المؤقتة هى التى تسبب أزمت جديدة ، وتنقلوا من حكومة شخصية إلى ديمقراطية إلى دكتاتورية ثم إلى ديمقراطية ، ومن نظام رأسمالى إلى نظام اشتراكى إلى شيوعى ، وإذا الوضع لا يتغير لأن الفرد الذى هو الأساس لا يتغير ، ويجهلون ، أو يتجاهلون ، فى كل ذلك ، أن الفرد هو الفاسد المعوج ، ولو عرفوا أن الفرد هو

(١) يقصد الكاتب بالوطنية النعنة الاقليمية التى تجعل كل ولائها لأرضها حسب .

الأساس وأنه فاسد معوج لما استطاعوا اصلاحه وتقويمه لأنهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر ، لا يملكون ما يصلحون به الفرد ، ويقومون اعوجاجه ، ويحولون اتجاهه من الشر إلى الخير ومن الهدم إلى البناء ، لأنهم أفلسوا في الروح ، وتخلوا عن الإيمان ، وققدوا كل ما يغذى القلب ويفرس الإيمان ، ويعيد الصلة بين العبد وربّه ، وبين هذه الحياة والحياة الأخرى ، وبين المادة والروح ، وبين العلم والأخلاق وفي الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحي وماديتهم العمياء واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير التي تبديد شعباً بأسره وتخرّب قطراً بطوله ، حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية - إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات - لانهاية الأليمة . » ا هـ

إننا لا ننكر أهمية المجتمع الصالح ، بل ضرورته لتنشئة الفرد الصالح ، ولكن المجتمع إن هو - في الواقع - إلا بناء لبنياته الأفراد ، فإذا لم تصلح البنات في نفسها لم يتصور أن يقوم عليها بنيان سليم .

لبنات المجتمع هي أنا وأنت وهو وهي ، فإذا صلحت أنفسنا صلح المجتمع كله ، ومفتاح هذا الصلاح للنفس والخلق شيء واحد هو الإيمان .



النارِي السَّيَابِي

الباب الرابع

بين العلم والإيمان

بين العلم .. والإيمان

دعوى الاستغناء بالعلم المادى :

خيل لبعض الناس فى وقت من الأوقات — ولا يزال يخيّل لبعضهم إلى اليوم — أن الإنسان يمكنه أن يستغنى عن الدين ، وأن يعيش « متحرراً » من تكاليف الإيمان ، وخاصة فى هذا العصر ، عصر العلم ، الذى استطاع به الإنسان أن « يقهر » الطبيعة وينتصر عليها ، ويسخرها لمنافعه . فيفجر الصخر ، ويحول مسير النهر ، ويغوص فى أعماق البحر ، ويخلق فى أعالي الجو ، حتى راح يزاحم السكواكب فى فضاءها ، والأقمار فى مداراتها ، وبعد أن زاحم الحيتان والأسمك فى قاع المحيطات ... وحتى قال بعضهم فى غرور و صلف : إن الإنسان غداً سيصنع نفسه !

المكاسب المزعومة من وراء الاكتفاء بالعلم :

قالوا : فهو بواسطة هذا العلم يستطيع أن يكيف حياته ، وينظم شؤونه بعيداً عن الإيمان بالله ، وبمعزل عن رسالاته ، وهو يظن أنه بهذا يكسب عدة أشياء :
لؤلها: الصحة العقلية والنفسية . فإن عقائد الدين والإيمان بالغيب ، تسبب للشئف العصرى قلقاً ذهنياً ، ناتجاً عن إيمانه بشئ لا تقوم عليه الأدلة العلمية ، ولا تشهد له التجارب الحسية .

ثانيها: الحرية الشخصية : فإن للإيمان بالله ورسالاته قيوداً والتزامات تحد من انطلاق الإنسان ، وتقيّد من حريته ، وتضعه فى قفص حديدى محكم ، وفناً لنظرية « الحلال والحرام » التى لا يخلو منها دين . وبهذه الحرية يستمتع الإنسان بطيبات الحياة كلها دون حجب ولا تدخل من سلطة كهنوتية .

ثالثها : العمل للحياة الدنيا وترقيتها . فإن الدين بما فيه من زهد وإقبال على الآخرة ، يدير ظهره للدنيا ، ويحقر من شأنها ، ويتهم العاملين لها بأنهم معرضون عن الله وعن الحياة الباقية . فالدنيا والآخرة عنده ضربتان إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى .

نقض هذه الدعوى :

وهذا الزعم الذى نفقت سوقه فى الغرب زمناً ، ثم صدره إلينا عملاًؤه — المهواة والمحترفون — من بعد ، ليس له أساس من منطق سليم ، ولا من علم صحيح ، ولا من واقع مجرب . وسنتناول فى الصفحات التالية نقض هذه الدعوى ، وإبطال هذا الزعم ، مستندين إلى المنطق والعلم والواقع ، وكفى بها أدلة لقوم يعقلون .

مجال العلم غير مجال الإيمان :

أولاً : إن للعلم اختصاصاً لا يتعداه ، ومجالاً لا يتجاوزه ، ذلك هو مجال الماديات والمحسوسات التى تدخلها الملاحظة والتجربة ، وهى وحدها التى يمكن التحكم فيها ، وإجراء التجارب عليها ، واستخلاص النتائج منها ، وفى هذه الحدود وما مثلها يعمل العلم . أما ما عدا ذلك مما وراء الحس وما وراء المادة ، فليس من وظيفة العلم ، ولا من اختصاصه ، إنما هو وظيفة الفلسفة أو الوحي ، فإذا وجد من رجال العلم من يقول : إننى لم أجد دليلاً علمياً على وجود الله أو صدق الرسل أو وجود الملائكة مثلاً ، قلنا له : لقد عدوت قدرك ، وخنت علمك ، حيث ورطته فيما ليس من شأنه ، وهل وجدت فى مختبرك أن الله غير موجود !

إن العلم منهج صحيح لمعرفة المادة ، ولكنه ليس منهجاً صحيحاً لمعرفة ما وراء المادة . إنه يستطيع أن يعرف كيف نسير الأشياء ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن مسيرها ، ولا لماذا سيرها ؟

إن العلماء - كما قال صاحب فيض الخاطر - قد اتجهوا بمنهجهم العلمى اتجاهاً صحيحاً نحو «عجلة» العالم يفحصونها ويجربونها ويمتحنونها، واسكنهم لم يتجهوا نحو «محرك» العجلة، وليس فى مقدور علمهم وحده - وهو مبنى على الحس والتجربة - أن يضع أيديهم على محرك العجلة، لأنه لا يرى ولا يدرك بالحس ولا يدخل المعمل، ولا يجرى فى أنابيب الاختبار.

لقد تقدم العلم - وتقدم، واعتز بنفسه وملاء الغرور، ومع هذا كله لم يستطع أن يفسر إلا السطح وإلا المظاهر، ما العلة الأولى للخلق؟ من الذى بعث الحياة فى الخلية الأولى للعالم؟ كيف تفسر ملايين الحقائق فى عجائب الطبيعة؟ وفى عجائب أنفسنا؟

إن أقصى ما يصبو إليه العلم أن يعرف نصف الحقائق، وهو الظاهر والإجابة عن «كيف». أما النصف الآخر، وهو أقوم النصفين، وهو باطن الحقائق والإجابة عن «ماهى» لا كيف هى. فعاجز كل المعجز عنه لا يستطيع أن ينبس فيه بحرف.

إن من يؤمن بالعلم وحده، وينكر ما وراءه، ومن يؤمن بالقوانين العلمية، وينكر ما عداها، لا يؤبه بقوله حتى يقول: إنى أستطيع أن أفسر العالم من ألفه إلى يائه، فإما أن يفسر الآلة، ولا يفسر محركها، ويفسر تطور الحياة وتدرجها، ولا يفسر كيف وجدت لأول عهدها بالوجود فضرب من السحب، أو هو - على أحسن تفسير - كقول الطفل: لا أعلم، لأنه يريد أن يتعلم.

إن إنكار العلة الأولى للعالم، وعقل العالم الذى يدبره. يلقى على عاتقنا عبئاً لا نستطيع حمله.

« إن العالم فى حقيقة أمره بزيد عجائبنا ولا يحاها، هذا الملكى بعلمه ودقته

وحسابه ورصده وآلته ، ماذا صنع ؟ أبان بأن ملايين النجوم في السماء بالقوة المركزية بقيت في أماكنها أو أنت دورتها ، كما أن قوة الجاذبية في العالم حفظت توازنها ، ومنعت تصادمها ، ثم استطاعوا أن يزنوا الشمس والنجوم وبنوا حجمها وسرعتها وبعدها عن الأرض ، فزادونا عجباً . ولكن ما الجاذبية ؟ وكيف وجدت ؟ وما القوة المركزية وكيف نشأت ؟ وهذا النظام الدقيق العجيب كيف وجد ؟ أمثلة تخلى عنها الفلكي لما عجز عن حلها . وأبان الجيولوجي لنا من قراءة الصخور ، كم من ملايين السنين قضتها الأرض حتى بردت ؟ وكـم آلاف من السنين مرت عليها في عصرها الجليدي ، وكيف غمرت بالماء ؟ وكيف ظهر السطح ؟ وأسباب البراكين والزلازل . وكذلك فعل علماء الحياة في حياة الحيوان ، وعلماء النفس في نفس الإنسان ، ولكن هل شرحوا إلا الظاهر ، وهل زادونا إلا عجباً ؟ سلهم كلهم بعد السؤال العميق الذي يتطلبه العقل دائماً وهو : من مؤلف هذا الكتاب المملوء بالعجائب التي شرحتم بعضها وعجزتم عن أكثرها ؟ أناليف ولا مؤلف . ونظام ولا منظم . وإبداع ولا مبدع ؟ من أنشأ في هذا العالم الحياة وجعلها تدب فيه ؟ من عقله الذي يدبره ؟

« إن النشوء والارتقاء لا يصلح تفسيراً للمبدع ، وإنما يصلح تفسيراً لوحدة العالم ووحدة المصدر ، وكلما تكشفت أسرار العالم ، وتكشفت وحدته ووحدة تدرجه ووحدة نظامه وتديره ، كان الإنسان أشد عجباً وأشد إمعاناً في السؤال وليس يقنعه بعد كشف العلم عن أسرار العالم وعجزه عن شرحها وتعليلها إلا أن يهتف من أعماق نفسه « إنه الله رب العالمين »^(١) .

نتائج العلم تقريضية لا يقينية :

ثانياً : إن نتائج العلم ليست — كما يظن بعض الناس — قطعية يقينية ، مائة في المائة (١٠٠ /) وبصورة دائمة ، فإن قابلية الشك والاحتمال قائمة في كثير من

(١) فيض الخاطر ج ٤ ص ١٦٠ ، ١٦١

نتائج العلم ، ذلك أن أساس العلم هو التجربة ، والتجربة أساسها الحس ، والحواس كثيراً ما تخدع ، وهذا ما أقر به المحققون من العلماء .

يقول عالم أمريكي معاصره الأستاذ « ماريت استانلي كونجدين » في مقال له « إن العلوم حقائق مختبرة ، واسكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ، ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه وامتتاجاته ... ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود ، فهي بذلك مقصورة على الميادين السكية في الوصف والتنبؤ .. وهي تبدأ بالاحتمالات ، وتنتهي بالاحتمالات كذلك ، وليس باليقين .. ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات .. ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل والإضافة والحذف وليست نهائية »^(١) .

وتاريخ العلم يبين لنا أن كثيراً من الآراء التي كانت في بعض العصور حقائق علمية ، لا تقبل الجدل ، ولا تحمل الشك ، دار عليها الفلك دورته ، فإذا هي في عصور تالية أغاليط وأباطيل لا يقوم عليها برهان ولا شبه برهان .

بل إن بعض العلوم الأساسية قد تغيرت أسسها ، وتبدلت موازينها ، كما رأينا ذلك في قرننا العشرين .

يقول الكاتب التركي الأستاذ « بيامي صفا » في بحث له عن « المفهوم الجديد للإنسان »^(٢) .

« إن إنسان القرن العشرين يعيش في أزمة منذ أن بدأ يدرك خطأ هذا المعنى الذي أضفاه على نفسه ، منذ نهاية القرون الوسطى ، أي بدأ يدرك خطأ

(١) من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) مقال (درس من شجرة الورد)

(٢) من مجلة (المسلمون) ٨٢٠ المجلد الثامن العدد الثامن ذوالحجة ١٣٨٢ أيار (مايو)
١٩٦٤ م ترجمة الأستاذ أورهان محمد علي .

« نأليه » نفسه وما حركات التجديد في العصر الحديث إلا بديهة للنفور الموجه إلى هذا المعنى .

فقد عرف الإنسان عدم كفاية العلم الذي أراد أن يضعه مكان الدين ، ومكان موازين القيم المعنوية ، فلقد شهد العلم نفسه انهيار أساسين وقاعدتين من قواعده ، هذين الأساسين اللذين كانا بمثابة البداة حتى نهاية القرن الماضي . فكما قال « أورتا كاي كست » في اجتماع جنيف : بأن الفيزياء والمنطق اللذين هما أساسا العلم — العلم الذي قام عليه بناء المدنية الغربية — قد هدمتا نفسيهما بنفسيهما . « إن فجاعة الدراما ربما لا تكون ظاهرة لكل عين ، لأن عين غير الخبير لا تكشف في فطرة دم تحت الميكروسكوب علامات مرض قاتل ؟ ولكن كل خبير يستطيع أن يقدر بأن الوضع الذي سقط فيه المنطق والفيزياء اليوم هو أبلغ في الإشارة إلى الأزمة التي تعانيها مدنيتنا من جميع فجائع السيادة والحرب ، لأن هذين العليين كانا بمثابة الصندوق الذي يحوي فيه الغربيون فائضهم من الذهب ، استمداداً لاستقبال الأيام المقبلة بأمن وطمأنينة » .

وبعد أن شرح العالم الشهير كيف غير الفيزياء أساسه ، وكيف أن المنطق في ظرف خمسين سنة بواسطة أبحاث ودراسة « رسل » و « وايتهد » و « هليبرت » ، قد غير أساسه أيضاً ، تابع كلامه : إن مدنيتنا أصبحت تعلم الآن أن أسسها في حالة إفلاس ، ولذلك نراها تشك في نفسها ، ولكن ليس من الممكن أن تموت حالا أية مدنية مجرد هزة شك ، وإنما على العكس فإنني أرى أن المدنيات لا تموت إلا من تصاب المعتقدات وتجرها . وكل هذه تشير إلى أن شكل مدنيتنا أو بالأصح شكل المدنية التي يبجلها الغرب قد جف وانتهى » .

الرسوخ في العلم يهدي إلى الإيمان :

ثالثاً — إن العلم ليس خصماً للإيمان ، ولا ضداً له بل ، هو دليل يهدي إليه .

يقود رأينا كثيراً من العلماء اراسحين المنصفين ، هداهم علمهم إلى أن وراء هذا الكون قوة عليا تدبره وتنظمه وترعى كل شيء فيه بميزان وحساب ومقدار ، ذلك أن العالم أقدر من غيره على استبابة ما في هذا الكون من ترابط وتناسق وإحكام ، يتجلى في كل خلية من خلايا أحيائه ، وفي كل ذرة من ذرات ججاداته . في خلق السموات والأرض . في اختلاف الليل والنهار . في الملك التي تجري في البحر بما ينفع الناس . فيما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . فيما بث الله في الأرض من الدواب والأحياء . في تصريف الرياح . في السحاب المسخر بين السماء والأرض .

ولا عجب إن قرأنا لكثير من علماء الكون — في الطبيعة والفلك، والرياضيات، والاحياء وغيرها — شهادات ناصحة اعترفوا فيها بوجود الله ، وصحة الدين ، وهي شهادات تقطع ألسنة الذين يريدون أن يتخذوا من العلم سلاحاً يحاربون به الدين . إن بعض الذين ينتسبون إلى « العلم » يعيشون بعقلية قرن مضى أو قرنين ، ولا يتابعون التطور الهائل الذي حدث في ميدان العلم والفكر في هذا القرن ، فهم أولى من يستحق اسم « الرجعيين » لأنهم سجناء نظريات انقضى عصرها ، وذهبت ريحها ، وطرحت في زوايا النسيان . فليسموا ما يقول علماء هذا العصر : يقول الأستاذ « هوشل » :

« كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزل ، لا حد لقدرته ولا نهاية ، فالجولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده » .

وأفاض « هـ برت مبنسر » في هذا المعنى في رسالته في « التربية » إذ يقول : « العلم يناقض الخرافات ، ولكنه لا يناقض الدين نفسه ، يوجد في كثير من العلم الطبيعي الشائع روح الزندقة ، ولكن العلم الصحيح الذي فات المعلومات السطحية ، ورسب في أعماق الحقائق ، براء من هذه الروح ، العلم الطبيعي لا

لا ينافي الدين ، وانتوجه إلى العالم الطبيعي عبادة صامتة ، واعتراف صامت بنفاعة الأشياء التي نعانينا وندرسها ، ثم بقدره خالقها ، فليس ذلك التوجه تسبيحاً شفهياً ، بل هو تسبيح عملي ، وايس باحترام مدعى ، وإنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل ، وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد في تفهيم الإنسان استحالة إدراكه كنه السبب الأول وهو « الله » ، ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح في تفهيمنا الاستحالة بإبلاغنا جميع الحدود التي لا يستطيع اجتيازها ، ثم يقف بنا في رفق وهوادة عند هذه النهاية ، وهو بعد ذلك يرينا بكيفية لا تعادل صغر العقل الإنساني إزاء ذلك الذي يفوت العقل ... » .

ثم أخذ يضرب الأمثلة على ما ذهب إليه فقال :

« إن العالم الذي يرى قطرة الماء ، فيعلم أنها تتركب من الأوكسوجين والأيدروجين بنسبة خاصة بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئاً آخر غير الماء ، يمتد عظمة الخالق وقدرته وحكمته ، وعلمه الواسع بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعي الذي لا يرى فيها إلا أنها قطرة ماء فحسب ، وكذلك العالم الذي يرى قطعة البرد (قطعة الشاي الصغيرة النازلة مطراً) وما فيها من جمال الهندسة ، ودقة التصميم ، لاشك أنه يشعر بجمال الخالق ، ودقيق حكمته أكثر من ذلك الذي لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد »

وهذا هو الدكتور « دى نوى » الطبيب العالم الذي اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعي ، يقول :

« كثير من الأذكياء وذوى النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله ، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه ، على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمى لا يلزمه أن يتصور « الله » إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور « الكهرب » ، فان اتصور في كليتي الحالتين ناقص وباطل ، وليس

الكهرب قابلاً للتصور في كيانه المادى وإثباته — مع هذا — لأثبت في آثاره من قطعة الخشب»^(١).

وهذا العالم الطبيعى « مير أرثر طومسون » المؤلف الاسكتلندى الشهير يقول: « إننا في زمن شفت فيه الأرض الصلبة ، وقد فيه الأثير كيانه المادى ، فهو أقل الأزمنة صلاحاً للغلو في التأويلات المادية »^(١).

ويقول في مجموعة « العلم والدين » :

« ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العالم الطبيعى لا يخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة ، إذ ليست هذه وجهته ، وقد تكون النتيجة أكبر جداً من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، إلا أننا خلقاء أن نعتبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للزعة الدينية أن تنفقس في جو العلم حيث لم يكن ذلك يسيراً في أيام آبائنا وأجدادنا . فإذا لم يكن على الطبيعيين أن يبحثوا عن الله — كما زعم مسر لا نجدون دافيز خطأ في كتابه البديع عن الإنسان وعالمه — فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العالم ، أنه قد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى ، ولا نجاوز المعنى الحرفى حين نقول : إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة وحفره من ثم إلى غاية جهده العقلى ، فإذا به في كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حيث لا يتخطى مدى الفهم ، وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله »^(١).

وقد حفلت مكتبات العالم — بمختلف اللغات الحية — بكتب قيمة ، ألفها « علماء » راسخون متبحرون ، كلها تهدى إلى الله ، وتدعو إلى الإيمان به .

وحسبنا — مما كتب بالانجليزية ونقل إلى العربية — كتابان حازا شهرة عالية واسعة .

(١) عقائد المفكرين في القرن العشرين للأستاذ العاد .

أحدهما : ألقه « أ . كريسى موريسون » رئيس أكاديمية العلوم فى نيوبورك ،
وعضو المجلس التنفيذى لمركز البحوث القومى فى الولايات المتحدة وأحد أقطاب
العلوم السكونية فى عصرنا ، وعنوان كتابه فى الأصل « الإنسان لا يقوم وحده » ،
وقد كتبه رداً على « جوايان هكسلى » فى كتابه الاحادى « الإنسان يقوم وحده »
يعنى : من غير إله !

وقد ترجم الأستاذ محمود صاىح الفلكى كتاب « أ . كريس موريسون » إلى
العربية عنوان يدل على وجهة العلم فى هذا القرن . وهو « العلم يدعو للإيمان » .
والثانى : كتاب اشترك فى تأليفه ثلاثون عالماً من أشهر العلماء المتخصصين فى
أمريكا . كل واحد منهم كتب فيه مقالا ، بين كيف اهتدى إلى وجود الله
والإيمان به ، عن طريق علمه واختصاصه ، وذلك هو كتاب « الله يتجلى فى عصر
العلم » . وقد ترجمه إلى العربية الدكتور الدمرداش سرحان ^(١) .

هل وراء الاحاد مكاسب حقيقية ؟

أما المكاسب التى يزعم بعض الناس أوتوهمون أن الإنسان قد حصل عليها
— أو على الأقل يستطيع أن يحصل عليها — عن طريق الاكتفاء بالعلم ، والانسلاخ
من الإيمان ، فالواقع أن هذه المكاسب إما وهم عريض وزعم مفترى ، وإما
خسائر حقيقية فى صورة مكاسب عند بعض الناس .
ولتناقش هذه المكاسب واحداً بعد الآخر :

دعوى الصحة النفسية والعقلية .

أما ما يقال من أن الانحلال من الدين يؤدى إلى صحة النفس والعقل ، فهو

(١) أما اللغة العربية فقد كتبت فيها بحوث ومقالات وكتب شتى ، أذكر منها : (سنن
ألقه فى الكائنات) للدكتور محمد أحمد الغمراوى . و (مع الله فى السماء) للدكتور أحمد زكى
و (قصة الإيمان) للشيخ نديم الجسر . وما كتبه أخيراً الدكتور محمد جمال الدين القندى ،
والأستاذ عبد الرزاق نرفل ، بالإضافة إلى كتابات المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره
(الجواهر) والمرحوم الدكتور عبد العزيز (باشا) لسماعيل وغيرها .

أمر يكذبه الواقع ، وينفيه ما نشاهده في دنيا الحضارة الغربية الآلية المادية ، التي أخذت زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، بما أوتوا من العلم التجريبي ، والتقدم التكنيكي .

فهذا العالم الغربي «العلمي» الحديث ، يعاني من أمراض النفس والعقل ما يسهر عليه ليله ، ويكدر عليه نهاره .

وهذا أمر لاحظته وحذر منه الفلاسفة المفكرون ، وشاهده وشهد به العلماء المجربون ، وأحس به وعبر عنه الأدباء والفنانون ، وانتبه إليه وسجله الكتاب الصحفيون .

فمن الفلاسفة والمفكرين تقرأ شهادة الفيلسوف المؤرخ البريطاني المعاصر «توينبي» إذ يقول (١) :

« لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها ، وجعلتهم يسلونها قياد أنفسهم بيديها » المصاييح الجديدة « لهم مقابل « المصاييح القديمة » ، لقد أغوتهم فباعوها أرواحهم وأخذوا بدلا منها « السينما » و « الراديو » ، وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك « الصنعة الجديدة » إقفارا روحيا ، وصفه أفلاطون بأنه « مجتمع الخنازير » ، ووصفه الدوس هكسلي بأنه « عالم زاه جديد » ! .

ويأمل توينبي في نهاية البحث بأن خلاص الغرب لا يكون إلا بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين ، ولكنه لا يخبرنا كيف سيتم هذا الانتقال ، وإنما يؤكد قائلا : « إن الغربي يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفا روحيا يضمن سلامته بالقوة المادية التي أفتتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية » .

(١) نقل ذلك عنه المفكر المعاصر (كولان واسون) في كتابه (سقوط الحضارة)

فكأن توينبي يجيب بهذا على سؤال ايفان ستراد : كيف تستطيع روحية الإنسان أن تسيطر على ازدهاره المادى ؟

ويقول الفيلسوف الشاعر المسلم الدكتور محمد إقبال :

« الرجل العصرى بما له من فلسفات نقدية ، ونخصص علمى ، يجد نفسه فى ورطة ، فذهبه الطبيعى قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه ، لكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو .

« الإنسان العصرى ، وقد أعشه نشاطه العقلى ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أى إلى حياة روحيه تتغلغل فى أعماق النفس ، وهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبه للمال حباً طاغياً ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، وقد استغرق فى « الواقع » أى فى مصدر الحسن الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التى لم يسبر غورها بعد ، وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية ، هى ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه ، والذى أدركه هكسلى ((Hyxley)) وأعلن سخطه عليه»^(١) .

ومن العلماء التجريبيين الذين قضوا جل أعمارهم فى المعامل والاختبارات ، الدكتور « الكسيس كاريل » أحد أقطاب العلم الحديث الذى يقول فى كتابه « الانسان ذلك المجهول »^(٢) :

« من العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تملج بنزلائها وتعجز عن استقبال جميع

(١) تجديد الفكر الدينى فى الإسلام للدكتور محمد إقبال ص ٢١٤

(٢) ص ١٨٧ ، ١٨٨ من الترجمة العربية

الذين يجب حجزهم .. ويقول س . و . بيرس : « إن شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر » !!

« وفي الولايات المتحدة تبدى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين . ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات ، حوالى ستة وثمانين ألف حالة جديدة . فإذا استمر عدد المجانين فى السير على هذا المعدل ، فإن حوالى مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً أو آجلاً !

« فى عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية : ٣٤٠٠٠٠ مجنون ، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١٥٨٠ ، وكان عدد مطلقى السراح بشرف كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠٩٣٠ ، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المستشفيات الخاصة . وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠٠٠٠ ضعاف العقول ، واقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠٠٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء ، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة ، والإفادة مما يتلقون من علم . . . وحقبة الأمر أن عدد الأفراد الذين أعطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير . ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية ^(١) . وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد الرجل المتحضر

(١) هذه الإحصاءات قد مضت عليها سنوات غير قليلة ، وقد تضاعفت أكثر من مرة فى هذه الفترة الأخيرة .

للعطب ، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع المصري . فإن أمراض العقل خطر دائم : إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والسكلى ، بل والتيفوس والطاعون والكوليرا . ويجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضرب حتماً التفوق الذى تتمتع به الأجناس البيضاء (كذا) .. على أنه يجب أن يكون مفهوماً أنه لا يوجد ضعف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التى يوجلون بها بين أفراد الشعب !!

صحيح أن عدداً كبيراً ممن يعانون من النقص العقلية موجود فى السجون . بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة ، ما زالوا مطلقى السراح !

« ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على القصور الخطير الذى تعاني منه المدنية المصرية وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية » .

وفى مجال الأدب والصحافة نكاد نقرأ كل يوم جديداً عن السخط والقلق والتوتر الذى يسود الحياة فى الغرب ، نتيجة الانحراف عن الإيمان بالله والآخرة هو لا استغراق فى المطالب المادية وحدها .

وأكتفى هنا بنموذج مما نشرته صحيفة « الأخبار » الفهرية فى يوم واحد : فى يوم ١٢/٢/١٩٦٠ فى « أخبار الأدب » نشرت الصحيفة تحت هذا العنوان « الأفيون والتخلف » الخبر التالى :

« البوايس فى أمريكا اعتقل عشرات الأدباء والشعراء من « جمعية الأدباء الساخطين » ولم يكن السبب هو الاعتراض على آثارهم الفنية ، بل على سلوكهم الاجتماعى ، على تعاطيهم للأفيون ، ودفاعهم عن هذه المخدرات بصورة عدائية .

وعلى أثر اعتقالهم أصدر « ويليام روراك » من الأدباء الساخطين ما يلي : « إنه ، الحياة طعمها مر ، وإن الناس في تعب دائم ، وإنه لا وسيلة للهرب من « القرف » إلا الاستسلام للأحلام السعيدة ، وكسل لذيد ! » .

هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل :

وفي اليوم نفسه كتب أنيس منصور تحت هذا العنوان « هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل » يقول :

« هذه عبارة الكاتب الفرنسي « شارل موليه » في الجزء الثالث من كتابه عن « أدب القرن العشرين والمسيحية » في ٥٠٠ صفحة ، وهو في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة لا يدافع عن المسيحية ولا يهاجمها ، وإنما يجمعها حائطاً كبيراً ترجع إليه الحضارة الغربية في محنتها الروحية . وهذا الكتاب هو أحسن الكتب وأشملها عن أدب القرن العشرين فلم يظهر كتاب شامل عن أدب القرن العشرين إطلاقاً . وإنما كل الكتب التي صدرت هي دراسات خاصة مطولة عن كثير من هؤلاء الأدباء . . . ولكن هذه الدراسات الموضوعية قد انفرد بها صاراً مجتهداً شارل موليه .

والمؤلف يعتمد على النصوص الأدبية ولا يطلق حكماً دون أن يكون في يديه وفي جيبه حشيتات هذا الحكم . وهو لا يخلو للمداولة ويصدر أحكامه ، وإنما يصدرها علناً في محكمة النقد الأدبي .

والجزء الثالث هذا قد تناول فيه الآثار المميقة لكل من مالرو وكافكا وفر كور وتوله خوف ومولنيه وبومبار وفرانسواز ساجان ولاديسلاس ريون . ومن رأى المؤلف أن الفيلسوف السيامي الموسيقى الطيار أندريه مالرو هو الذي وضع أصابعه على الخطر الذي ينتظر الإنسانية . فهو وحده الذي أدرك

منذ أكثر من ربع قرن محنة الروح الأوروبية . وماز هو الذى نفت روح القلق
والأسى فى الأدب الفرنسى والأوروبى بعد ذلك .

والغريب فى هذا الجزء الثالث ماقاله المؤلف عن الأدبية الفرنسية فرانسواز
ساجان التى صدرت لها قصتان هما : « مرحباً أيها الحزن » .. و « ابتسامة ما »
فهو يرى أن ساجان قد سجلت روح اليأس والمرارة واللامبالاة والتواكل ،
تلك الروح التى عبر عنها سارتر فى أعقاب الحرب الأخيرة ، والذى يتذكر
ما قال سارتر فى الأعداد الأولى من مجلة « العصور الحديثة » يحده يصرخ
ويقول : « لقد انتهت الحرب فى فرنسا الجائعة ، ولكن السلام لم يبدأ . إننا
نعيش فى محنة ما بين الحربين . لقد كذب هؤلاء الذين قالوا : إن السلام من
طبيعة الأشياء وإن الحرب مسألة عارضة .. فما هذا الذى نحن فيه ؟ إله الحرب
والسلام معاً . إنها المحنة دائماً ! ! » .

وهذا الذى قاله سارتر فى قصصه وكتبه إنما هو تعميق للإحساس بالمأساة
واليأس والمرارة ، وقد عبر عنه الشاعر الألمانى بروشتر الذى توفى سنة ١٩٤٧ ،
فقل فى قصته « أمام الباب » : نحن جيل بلا رابط ولا عمق ، عمقنا هو الهاوية ،
نحن جيل بلا دين ولا راحة . شمسنا ضيقة . حبنا وحشية . وشبابنا بلا شباب !!

إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد .

وكان لابد أن تظهر هذه الصورة الشابة المعذبة فى طلبة الجامعات والمدارس
وأعماق الأديرة . ومن هذه الأديرة ، ومن الرهبانية القائمة ، خرجت فرانسواز
ساجان لتعلن فى قصتها : إننى لا أفكر ، ولا أستطيع . ولا أطيق أن أبقى
وحدى . ولا أريد لأحد أن يكون كذلك . وأريد أن أعيش مثل شئ جديد ،
ولو كان فيه عذاب . المهم أن يكون جديداً .

وكذلك فعلت سسيل بطلة قصة «مرحباً أيها الحزن». ولم تتردد «دومنيك» طالبة الحقوق وبطلة قصة «ابتسامة ما» .

سسيل ودومنيك صورتان لأبناء هذا الجيل الذى يتحرك ويتألم ويروح ويحيى ، ويحارب ويصرخ فى الظلام ، بلا حدود ولا قيود يؤمن بها ، ولا أمل فى أن يكون لديه أمل . وكفى بهذه الوثائق مستنداً .

الحرية الشخصية وأثارها :

أما الحرية الشخصية التى يدعى أنصار الفكر المادى الملحد أنهم ربحوها من وراء «التحرر» من الدين ، والإيمان بعتائده الغيبية ، وأخلاقه القسرية ، فالذى نريد أن نقوله : إن الحرية إذا كان معناها العبث من الشهوات بلا حساب ، والانطلاق وراء المتع الحسية بلاحياء ، والتحلل من عرى الفضائل والأخلاق والقيم العليا التى هى أغلى ماورثته الإنسانية من تاريخها الطويل ، فهذه الحرية ليست حينئذ كسباً يسعى إليه ، ولا غنائم يحرص عليه ، بل هى خسارة جسيمة على البشرية ، وهزيمة منكرة للمعانى الإنسانية التى بها صار الإنسان إنساناً .

إن القيود التى يفرضها الدين على الإنسان ، لا يريد لها عذابه ولا حرمانه ، إنما يريد بها أن يرتفع به من الحيوانية الهابطة إلى الإنسانية الصاعدة ، وبذلك ينتصر الجزء السماوى فى الإنسان على الجزء الأرضى ، ينتصر الروح الشفاف على الجسد الكثيف ، ينتصر العقل والإرادة على الشهوة البهيمية أو السبعية .

إن هذا الانتصار على النفس — فضلاً عما له من قيمة ذاتية وخلقية — ليمنح النفس لذة أعمق وأبقى من لذة الانطلاق وراء المتع الحسية التى لا يدوم التلذذ بها أكثر من لحظات قصار ، ثم ينطفئ أوارها فإذا هى رماد .

على أن للقيود التى يفرضها الدين على المرء معنى آخر لا تصلح الحياة الاجتماعية إلا به ، ذلك أن الحياة لا تخلو من قيود توجبها ضرورة التشابك والزحام ، وليس

فى الإمكان أن يعيش إنسان حرّاً طليقاً من كل قيد ، إلا إذا تصورنا — جدلاً — أنه يعيش وحده فى إقليم فسيح « كبطل قصة حى بن يقظان » .

إننا نجد السيارات مقيدة بالسيرة على الجانب الأيمن من الطريق ، والتوقف عند كل إشارة حمراء ، والدوران فى مناطق معينة وفق تعليمات المرور ، وليس هذا انتقاماً من السيارات وأصحابها ، وإنما هو تنظيم اقتضاه منع الاصدام بين السيارات بعضها البعض ، وبين الركبان والمشاة ، ولو تصورنا طريقاً خالياً من الناس دائماً ، لأمكن أن يسير السائق فيه بسيارته أنى شاء وكيف شاء .

فتدخل الدين هنا فى حرية الفرد ، ووضع الإشارات الحمراء أمامه فى بعض المواقف ، إنما هو تنظيم « لمرور » الإنسان ، وسيره فى طريق الحياة . إنما هو عمل على منع « الاصدام » بينه وبين غيره من الناس ، حماية له من الخطر أن يصيبه هو ، أو يصيب غيره من جراء انطلاقه بلا قيود ولا حدود .

وكل مجتمع يخرج على هذه القيود ، أو يهون من شأنها ، فإنه يعرض نفسه للخطر ، ويقرب نفسه من حافة الهاوية ، وإن كان لا يدرك هذا إلا بعد تجربة وزمن ، تتجلى فيه آثار التحلل وأخطاره بارزة للعيان .

ويكفيها أن نقرأ فى الصحف هذه الأخبار :

(١) أصدرت الجمعية البريطانية لمعالجة الشذوذ الجنسى تقريراً اليوم قالت فيه : إن مليون رجل فى بريطانيا — وربما أكثر — مصابون بالشذوذ الجنسى .

(الأهرام القاهرية فى ١٩٦٥/٥/٧)

(ب) ٧٢ مليون أمريكى يتناولون الخمر ، منهم ٢٠ مليوناً يكلفون الدولة بليونى دولار كل سنة ، السبب تغيبهم عن العمل .

(الأهرام القاهرية فى ١٩٦٥/٥/٣)

(ج) خرجت النساء السويديات في مظاهرة عامة ، تشمل أنحاء السويد ، احتجاجاً على إطلاق الحريات الجنسية في السويد ، اشتركت في المظاهرات حوالي ١٠٠.٠٠٠ (مائة ألف) امرأة . (أخبار اليوم القاهرية في ٢٤/٤/١٩٦٥)

(د) الجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية هي وصمة وسبة في الجبين . فسجلات الشرطة تزخر بحوادث النشل من المحلات التجارية أثناء التسوق ، وخطف حقائب السيدات ، وقاعات المحاكم « موحلة » بجرائم الاغتصاب ، والقتل والسفك . والخلاصة أنه بأي مقياس ومن خلال أي زاوية ، فالإحصاءات مرعبة وأثرها باد في الحياة الأمريكية على مختلف مستوياتها الاجتماعية . فكل ولد من بين ستة يساق إلى محاكم الأحداث لاقتراه جريمة أو جرائم !! سوى جرائم السير، وذلك قبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره !!

وفي كثير من المناطق السكنية المأهولة العامرة يلزم أكثر من نصف السكان منازلهم بعد غروب الشمس خوفاً من تعرضهم لأي اعتداء أثناء تجوالهم أو مرورهم بسياراتهم ..

والثالث ينخلع رعباً عندما يشاهد وجهاً غير مألوف في الحى !! والخمس ملء خوفاً واضطراباً حتى إنهم يفضلون النزوح والهروب ، ولكن لا يدرون أين يجدون الأمن .

وترتفع كل سنة وبشكل غير عادي ، نسبة الحاملين لرخص نقل وحيازة الأسلحة النارية والبنادق في منازلهم وسياراتهم ، وكلاب الحراسة الضخمة الشرسة أصبح وجودها في المنازل أمراً طبيعياً كوجود القطط والجرار المدللة !!

وفوق هذا كله يزداد الشعور بأن الحكومة ، على جميع مستوياتها الولائية والفيدرالية ، لا تقدر أو لا تريد أولن تحمي المواطن العادي !! والحالة في أنصع صورها تبدو مستحيلة ، ولكن الحقيقة مرعبة تماماً !!

هذا ما توصلت إليه لجنة الرئيس جونسون المشكلة لمحاربة الجريمة بمد ١٨ شهراً

من الدراسات المتتابة والمقابلات المتعددة ، وبعد زيارات لانهاية لها للمحاكم والسجون ومراكز الشرطة . وببساطة ذكرت أن قصة الجريمة كاملة في الولايات المتحدة لا تقدر على وصفها أو أخبارها !! فالإحصاءات التي وضعتها إنما تعكس الجرائم الظاهرة ، لأن الجرائم الناجحة بالتعريف هي غير ظاهرة ومغلقة بستار كثيف من السرية لا يقدر على حل رموزها وكشفها أحد !! .

ولكن الملاحظات الجانبية لتقرير اللجنة الذي جاء في ٣٠٠ صفحة مخيفة للغاية ، فالحالة سوداء قاتمة ، حتى أنها تكاد تطيح ببناء المجتمع « الجونسوني » العظيم الذي يحلم الرئيس جونسون برؤيته !!

نسبة الجرائم تشطح رأسياً سنة بعد أخرى ، ففي عام ١٩٦٦ سجلت أكثر من ٣ ملايين سرقة كبيرة ، أي أن واحداً من بين ٧٠ مواطناً أمريكياً هو اخص كبير !! ويبدو للمواطن العادي أن بداية الحل الوحيد يتطلب :

١ — محو جميع المدن الكبيرة لأنها تفقد سدس القتلة في الولايات المتحدة وثلاث اللصوص والنشالين .

٢ — حجب ومنع اختلاط المراهقين من الجنسين لانهم هم أكبر مجموعة سائبة خلقياً وتصرفياً .

٣ — تدمير جميع السيارات لأن معدل سرقة السيارات يتجاوز أكثر من نصف مليون سيارة سنوياً .

٤ — إزالة الأعمال التجارية والمالية الكبيرة لأنه بعلم هذه المؤسسات أو بدون علمها تشجع الأعمال المالية الاحتيالية . وتقدم فرصاً مغرية للاستثمارات المالية العائدة للملك الاختلاس والسرقة !! .

(الشهاب اللبنانية^(١) عن مجلة « تايم » الأمريكية في ٢٤ آذار سنة ١٩٦٧)

العمل والانتاج للحياة :

أما العمل والإنتاج للحياة ، وترقية الجانب المادي منها ، والسعي لتحقيق

حياة طيبة للبشر في الأرض ، والزعم بأن الإيمان بالله والآخرة يعوق ذلك أو يؤخره - فنحيل الرد عليه ، إلى ما ذكرناه من قبل عن « الإيمان والإنتاج » .

علم النفس لا يغنى عن الإيمان :

ولا بد أن نعرض هنا لشبهة تحيك في بعض الصدور :

إن بعض الناس قد يخيل إليه أن علم النفس الحديث ، بمكشافاته وإمكاناته وعباداته النفسية ، ركشنه عن دخائل النفس ومخباتها بواسطة ما يسمى : « التحليل النفسى » يستطيع أن يعالج الأفس للمريضة وكل العقد المستعصية ، ويقوم بالدور الذى كان يقوم به الدين فى الماضى ، بطريقة علمية مأمونة ، مستمدة من واقع الأرض لا من غيبات السماء ! ولن أورد على هذه الدعوى بنفسى ، ولن أدع ردها لأحد من علماء الدين ودعائه المتحمسين له ، فربما يقال : إنها بضاعتهم ، ومن شأن التاجر أن يروج لبضاعته .

ولكن أدع الرد لأقلام كتّاب « مدنيين » ليسوا « مشايخ » ولا أحراراً ولا رهباناً ، إنما هم قوم يستندون إلى الواقع ، وبحكمون بمنطق التجربة ، فلا عذر بعد ذلك للواقمين ، ولا حجة للنجريبيين .

فلنستمع أولاً إلى الصحفي المصرى المعروف محمد زكى عبد القادر ، يناقش هذا الموضوع فى إحدى « يومياته » بجريدة « الأخبار » القاهرة ، فيقول :

« تلقيت هذا الخطاب : استمعت إلى محاضرتكم فى كلية الزراعة بجامعة الاسكندرية عن « مشكلات الشباب الجمعى » ، وقد ذكرتم أننا حتى الآن لا نعرف شيئاً محدداً عن النفس الإنسانية وأرارها ، وإن علم النفس ومدارسه والعبادات النفسية لم تزد روادها إلا تعقيداً ، وأمرتم إلى أن العبادات النفسية كثرت فى أمريكا كثيرة غير عادية ، وأنها مع ذلك لم تؤد إلى النتائج التى كان يرجوها من يلجأون إليها ، بل إن الكثيرين خرجوا منها وقد ازدادت أمراضهم النفسية سوءاً .

إني أرى أنكم بذلك حطمت علماً حيويًا ناجحًا إلى حد ما ، فبفضله ونضله التحليل النفسي والعالم فرويد والنوريم المنطاطيسي استطاع العلماء أن يصلوا إلى باطن الإنسان ومعرفة أمراضه وعقده وشفى الكثيرون » .

هذا هو الخطاب الذي بحث به طاب بكليّة الآداب بجامعة الاسكندرية .

ويجب الأستاذ عن هذا الخطاب فيقول :

« عرضت لهذا الموضوع ، وأنا أتحدث عن نطاق الإيمان المستند إلى وجود قوة عليا مسيطرة ، وقلت : إن الإيمان بالله ضرورة يدعو إليها العلم وليست الأدباني وحدها . وقلت : إن العلم لم يستطع - وإن استطع - أن يحل المشكلات التي يعانيها الإنسان في هذه الدنيا ، فهذه حوادث مفاجئة ومأس تقع دون أن تكون لها أسباب مفهومة ، ونحن نسندها عادة إلى القدر وإرادة الله... فلو لم تكن على درجة من الإيمان ، ما استطعنا أن نتعزى عنها أو نحتملها... الأم التي تفقد أولادها .. كارثة الخيران التي تودي بمائة بأمسرها أو تقتل الأب والأم وتترك الأطفال ، أو تقتل الأطفال وتترك الأب والأم .. حوادث الفرق والانهار والأعاصير والزلازل والبراكين .. غضب الطبيعة على أية صورة وقع هذا الغضب .. الأمراض التي لا شفاء لها .. المتاعب النفسية والعقلية والقلبية والجسدية التي يعجز الإنسان عن إيجاد وسيلة للبرء منها .. وعشرات المصائب في المستشفيات والبيوت ومثل المشوهين بالخلقة هنا وهناك .. وكل ما نراه حولنا من مأس يعجز العلم عن إيجاد حل لها ، ويعجز الإنسان - بكل ما أوتي من براعة وقوة وساطان - عن التخلص منها .. كل هذه المتاعب والآلام كيف يتحملها المصابون بها ؟ وكيف يتحملها المحيطون بهم إن لم يستشعروا الإيمان بالله ، ويتوجهوا له أن يتقدم مما عجز الإنسان عن إنقاذهم منه ؟ كيف يتحملونها إن لم يؤمنوا أن هناك قوى نجمل حكماتها ؟ وأن هناك في الدنيا أشياء وتعرفات

فلا يمكن أن نعيها بما أوتينا من علوم ومقاييس ؟ فلا وسيلة لنا أمامها إلا أن نسلم بوجودها ، ونسلم في الوقت نفسه بقصورنا عن إدراك كنهها ؟ ..

وليس معنى ذلك أن ننكر العلم ومجالاته ، بل معناه أن نؤمن بالعلم في أوسع مجالاته ، وأن نترك له الحرية يطرق ما يشاء ، ويبحث عما يشاء ، فإذا وافق فنحن مؤمنون بما بلغه ، وإذا لم يوفق فنحن مؤمنون بالقوة العليا ، إلى أن يتاح للعلم أن يحل ألغاز المشكلات ، التي تحيرنا .

إن العلم حتى الآن ، بكل ما له من تاريخ ناصع ، وانتصارات عظيمة رائعة مجيدة ، لم يستطع أن يعرف : كيف تعمل أعضاء الإنسان كلها ، وكيف تتصرف وتنشأ وتمرض وتموت ؟ ؟ لقد وفق في علاج كثير من الأمراض ، ولكنه لم يوفق في علاج كثير آخر منها .. وفق في معرفة بعض وظائف الأعضاء ، ولكنه لم يوفق في معرفة سائر الوظائف .. وفق في تشخيص بعض الأمراض ، ولكنه عجز عن اقتحام الأغزى الأكبر : هل عرف كيف وجد الإنسان ؟ .. ولماذا وجد ؟ وكيف يموت ؟ .. ولماذا يموت ؟ .. وماذا بعد الموت ؟ .. وماذا قبل الحياة ؟ ! ...

كل هذه ميادين لا تزال بكراً ، وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلت ، وعلى الرغم من كل الادعاءات المستندة إلى فهم والمستندة إلى تدجيل وسوء فهم ... كل هذه الميادين لا تزال — وستظل إلى ما شاء الله — مجال الإيمان الذي لا يستطيع العلم أن يقتحم منطقته ...

ولنأخذ نفس الإنسان ، ذلك الجوهر الذي يسعده ويشقيه ، يمرضه ويشفيه ، يجعله مرحاً كأن الدنيا بين يديه ، وفجأة تضيق وكأنها قفص إبرة .. هذه النفس التي تنحرف وتعتدل ، تزكو وتضمحل ... تكون عبقرية ، كأنما يوحى إليها من السماء ، وتكون شريرة كأنها لهب من الجحيم ... هذه النفس هل عرفناها ؟ .. هل حددناها ؟ .. هل صورنا أمراضها واهتدينا إلى علاجها ؟

إن علم النفس بكل الجهود التضنية التي بذلها لا يزال يقف عند الشاطئ ، ولا تزال نظرياته مجالاً للاختلاف والشك ، ولا تزال تتطور جيلاً بعد جيل ، وطرائق بعد طرائق ...

كان « فرويد » أستاذ هذه المدرسة ، وتبعه كثيرون ، منهم من سار على منهجه ، ومنهم من عارضه ، ومنهم من اختلف وإياه في الطريق والهج . . . ترى هل وفق علم النفس حتى اليوم ، إلى معرفة النفس ؟ . . قد يكون وفق إلى معرفة بعض مظاهرها وانفعالاتها . . قد يكون وفق إلى ردها إلى أسباب تصدق أو تكذب ، ولكنه لا يزال جامداً هذه النفس .

وقد تعاقب الناس بعلم النفس ، لأنه علم الحياة ، وابتهجوا به وانصرفوا إليه ، ظانين أنه سيدقدهم من الانحرافات والاندفاعات . من الأمراض العصبية والعقلية ، ولكن هل حقق كل ما علقوه عليه من آمال ؟ . . هل حقق بعض ما علقوه عليه من آمال ؟ . . الجواب — كما قلت في المحاضرة — عند العيادات النفسية الكثيرة المنبثة في أمريكا يبدد أوفر مما في غيرها !! في هذه العيادات مأس لجأ أصحابها إلى المحللين النفسيين ياتمسون عندهم الشفاء ... فهل نجحوا ؟ . . هل شفى اليائسون من الحياة ، لأن نفوسهم مضطربة قلقاً معقدة ؟ . . إن الإحصائيات لا تستطيع أن تؤكد — وحتى في الحالات التي شفى فيها المريض — أن التحليل النفسي — والتحليل النفسي وحده — كان السبب في الشفاء !!

وفي أمريكا بالذات تكثر الأمراض النفسية والعقلية بصورة لا مثيل لها^(١) وفي أمريكا هذه توجد عيادات نفسية لا حصر لها ، وكل ما يقوله المحللون النفسيون ، أو أكثر ما يقولونه لرؤد هذه العيادات إذا كانوا شباناً أو فتيات : أن اذهبوا واتصرفوا كما تشاؤون !! إن أمراضكم النفسية سببها الكبت والخوف

(١) راجع الإحصائيات التي ذكرها الكسيس كاولر ، ونقلناها عنه في الصفحات

من التقاليد ولأمراض والعار ! . فإذا كانت النتيجة ؟ .. كانت هذه الانحرافات التي لا حصر لها ، وهذا التحليل الذي دُمر — أو كاد — الحياة العائلية ، ثم لم يمنح أصحابه السعادة التي كانوا ينشدونها !

هذا هو ما قلته ... وهو لا يتضمن إنكاراً لفضل علم النفس ، ولكنه يتضمن أن علم النفس لم يوفق ، حتى الآن ، إلى كشف تلك المنطقة الهائلة الرائعة الصغيرة الكبيرة ، منطقة النفس . وأن كل ما بلغه تحليل لبعض الظواهر وتعليل لبعض التصرفات ، فقد يكون صادقاً وقد لا يكون .

إن ما نعلمه عن الحياة وأسرارها بفضل كشوف العلوم وتفسير المفكرين لا يزال ضئيلاً جداً إذا قيس إلى ما لا نعلمه ولا نستطيع تعريفه ولا تعليله ... هذا النطاق الواسع مما لا نعلم هو مجال الإيمان بالله .. وهذا النطاق الضيق الذي علمناه هو مجال الإيمان بالعلم ، ولا تعارض بين الاثنين ، بل بينهما التقارب والتكامل .

أمرنا الله أن نسمى ونعرف ونبحث ، وبسط أمامنا آفاق الدنيا لنذهب بها كيف نشاء ، وأطلق فينا شرارة من لدن ذاته العليا ، هي العقل ... هذا العقل يجب أن يرود كل المجاهر ، ويحاول كشف الألغاز وتيسير الحياة وتوجيهها وجعلها ممكنة ومحتملة ، وإيماننا به إيمان بذات الله العليا ... ولكن هذا العقل قاصر ، وكل ما ينتجه مهما يكن لن يبلغ حدود الشمول فالشمول من اختصاص الذات العليا .

إيمان بالعلم هو إيمان بالعقل الذي هو شرارة إلهية يجب أن تنطلق من غير حدود ، وإيمان بالله هو إيمان بالمصدر والوحي والكل والشمول والأزل والأبد ... وكل من يقول بغير هذا يدعى ، ولا يعطى دليلاً على ما يدعى .

علم النفس كغيره من العلوم مجال للاحرام والتشجيع . ولكن أن أعتمد عليه

لكي يكشف لي كل غامض هو اعتماد من غير سند ، لا من حقيقة ولا مما وصل إليه ولا مما ننتظر أن يصل إليه . « ١٥ » .

الطب النفسى فى موكب الايمان :

على أن كثيراً من الأطباء النفسيين قد ثبت لديهم بالتجارب المتكررة أن الإيمان بالله والآخرة من أعظم الأدوية الفعالة فى القضاء على الأمراض النفسية ، وكثير منهم استعان بالدين فى علاج مرضاهم فنجحوا أعظم نجاح ، وسجلوا ذلك فى بحوث ومقالات وكتب نشروها على الناس .

واحد أبرز مثل يحضرنى الآن هو الطبيب النفسى الأمريكى الشهير الدكتور « هنرى لنك » الذى كفر يوماً بالدين الذى ورثه ، وخلع معتقداته القديمة كما يخاع المرء نعله ، وعاش عدة سنوات ملحداً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فعل ذلك باسم العلم الذى رآه فى ذلك الوقت يتعارض مع الدين ، أو على الأقل ، لا يثبت ولا يؤيده . فالعلم — حسب قوله — لا يستطيع أن يثبت وجود الله ، كما لا يستطيع أن يثبت عدم وجوده ، وبناء على ذلك لا يسع اللبيب إلا أن يقول : « أنا لا أعرف » أى يكون شاكاً أو ملحداً . هذا الرجل الذى جرفه العلم بعيداً عن الدين ، عاد عن طريق العلم مرة أخرى إلى الدين ، وسجل ذلك فى كتاب نشره على الناس وطبع إلى ما قبل سنوات فى أمريكا ٤٧ مرة ، وقد سمي كتابه « العودة إلى الإيمان » .

ولنستمع إليه نفسه يحدثنا عن أسباب عودته وظروفها وكيفيتها فيقول : « وهأنذا أسجل أن عودتى إلى حظيرة الإيمان لم تكن وليدة الضائقة المالية التى اكتسحت العالم وقتاً ما ، ولو أنى أعترف مع ذلك بأن تلك الفترة قد ساعدت على نضوج بعض الحقائق النافعة لى . وما كان تقدم سنى أو اقترانى من الشيخوخة — هذان الشبحان اللذان غالباً ما يؤثران على تفكير المرء — هما السبب فى عودتى إلى حظيرة الإيمان ، فإنى ما زلت فى مستهل الخامسة والأربعين

وهي من معتبر مبكرة نوعاً ما ، ومازلت بحمد الله موفور الصحة ، قوى البنية .
قادراً على الانحاء عشر مرات متواليات ، وسباحة ميل كامل والتهام كل ماأشتهى
من طعام دون خشية أية عواقب .

فعودتى إلى الإيمان لا ترجع إلى تدهور صحتى ، ولا إلى ما عساه أن أكون
قاسيته من الآلام التى تؤثر على عقلية المريض ، فتجرفه فى تيار التمنى للتخاص
من هذه الحياة والإخلاد لحياة أخرى ، كلها راحة واطمئنان . كما إنى أقرر أنها لم
تأت فى أعقاب مصيبة أو كارثة من كوارث الحياة ومشاكلها ، بل بالعكس ،
جاءت بعد أن قضيت ستة عشر عاماً فى حياة زوجية هائلة ، فأنا رجل محظوظ
لى ثلاثة أطفال هم مصدر سعادتى وغبطتى ، وأحرزت من النجاح أكثر مما كنت
أصبو إليه . أما إيرادى فى روى على حاجتى ومطالب أسرتى ..

ومن هذا ترى أن هداى لم تصطحبه أية حبكة روائية أو إثارة ما لعواطفى . فلم
أمر بتحريرة قاسية ، ولم تحرك إحساسى كارثة ، كما لم يبهربصرى اكتشاف جديد
قد يحدث هذا التبدل الذى أسجله الآن .

لقد أتانى الهدى وثيداً حتى إننى لم أتيبته فى نفسى خلال مراحل الأولى ، وما
كان مرجع هذا التبدل إلا تلك التجارب المتواصلة التى صادفتنى فى أثناء ممارستى لمهنتى
كطبيب نفسانى^(١) ..

فهذا الرجل الطبيب العالم يعلن فى ثقة ووضوح أنه لم يعد إلى حظيرة المؤمنين
نتيجة لتأثر وقى ، أو انفعال عارض ، ولم يعد إلى الإيمان ، بناءً على نظريات نفسية
اعتنقها ، أو آراء فلسفية تبناها ، فإن النظريات والآراء قابلة للصدق والكذب ،
ومحتملة للصواب والخطأ ، إنما عاد الرجل إلى الإيمان ، بناءً على تجارب مارسها
بنفسه . وعلى ملاحظات متكررة شاهدها بعين رأسه ، وهذه التجارب

والملاحظات هي أساس علم النفس التجريبي الذي يدرس الظواهر النفسية دراسة تقوم على القياس والاختبار والإحصاء والأرقام ، والتي بها أصبحت الدراسات النفسية « علماً » ولم تعد « فلسفة » .

وهاهو يوضح هذا المعنى ويؤكدده ، فيقول :

« إن علم النفس الحديث القائم على أساس الرياضيات والأرقام ، والذي يطبق على البشر لا على الورق ، هو الذي قلب آرائى ومبادئى رأساً على عقب دون أن أشعر بالتطور الذي حل بى من مدة طويلة .

وهنا لا يجوز الخلط بين هذا العلم ، وبين التحليل النفسى ، الذى أدى إلى ظهور نظريات تأملية لا يمكن تماماً الجزم بصحتها كلها ، كالتعبير عن الذات والقمع والأحلام والعقل الباطن والليبدو^(١) وعقدة النقص والتربية التقدمية الخ . وما أقل ما يعرفه الناس عن علم النفس العلمى الذى بلغت دقته الدرجة التى وصلت إليها الكيمياء والطبيعة منذ قرن من الزمان . وبرغم أنهم سمعوا عن اختبار الذكاء أو مقياس الذكاء ، إلا أن القليلين منهم هم الذين يدركون أن هناك أكثر من ١٠٠.٠٠٠ اختبار نفسى أجراها رجال علم النفس ، وأن معظم هذه الاختبارات تستخدم الآن فى الحياة العامة . والقليلون أيضاً يعلمون أن مؤسسة روكفلر قد وهبت جماعة من علماء النفس نصف مليون دولاراً لاكتشاف اختبارات التعاون المستخدمة الآن بمعظم المدارس . وقد أمضى أساتذة علم النفس فى جامعة « مينيسوتا » خمس سنوات فى بحث متواصل ، حتى اهتموا إلى استنباط ثلاثة اختبارات تقياس مدى كفاية المرء الآلية ، واستمداده الطبيعى لاستخدام الأجهزة الآلية . أنفقت فيها مائة ألف دولار ، تبرع بها مجمع الأبحاث الوطنى وغيره من المؤسسات ..

(١) الليبدو : هى الطاقة الحيوية فى الانسان قصد بها (فرويد) الحرمان الجنسي أو الجانب العقلى للفريزة الجنسية ، ولكن (بونج) توسع فى معنى التعبير ، وأطلقت بصفة عامة على الطاقة الحيوية بأسرها (المترجمه)

ويكاد الجمهور الذي ينفق ملايين الدولارات على دراسة الموسيقى لا يعرف شيئاً كذلك عن دقة اختبار «سيشور» لاكتشاف المواهب الموسيقية الفطرية في الإنسان، وقد وضعه بعد بحث مجهود دام خمسة وعشرين عاماً، بمعاونة عدد من رجال علم النفس المساعدين . وقليلون أيضاً هم الذين سمعوا عن الجهاد العنيف الذي بذله أمثال : ريدورث وفيرستون وألبورت وولز وروث ورنرويتز ، وغيرهم في مجال الشخصية وحدها .

وهكذا ظهر تحسن ملحوظ في القدرة على تفهم الشخصية ، وترقيتها والتقدم بها، بواسطة الاختبارات المتقدمة الذكر واستخدامها في علاج المرضى بالعيادات الطبية . فقد أجرى اختبار قياس الشخصية وحده على حوالى نصف مايون نفس عام ١٩٣٥ في عيادات الولايات المتحدة ومدارسها .

هذا الفرع من علم النفس هو الذى أدت مكشفاته إلى تبديل معتقداتى الدينية ، وهى - كما سبق أن أوضحت - تختلف عن تلك النظريات الجذابة الشائعة بين الناس كما أنى قد قدمت هذا النوع من علم النفس العلمى الكثير من المعونة لحازت القول . وأما مكتشفاتى التى سيرد ذكرها فيما بعد ، فلم تكن ممكنة التحقق بدون تلك التجارب العلمية التى قام بها غيرى من العلماء النفسيين ، وأما كون النتائج المستحصلة من هذه الدراسات تؤيد بل تطابق بعض المعتقدات الدينية الأساسية ، فهذا ما سيلمسه الجميع حتماً بمرور الزمن .

وقد طبقت مكتشفات علم النفس تطبيقاً واسع النطاق على معظم المشكلات الإنسانية ، فقد أجرت مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك اختباراً نفسياً على ١٥٣٢١ نفساً من الرجال والنساء المتعطلين فى فترة لا تتجاوز ستة عشر شهراً . وفى ضوء هذه الاختبارات أمكن توجيه كل منهم إلى المهنة المناسبة والتدريب المطلوب له حتى يصير لائقاً لهذه المهنة .

وفي كثير من الأحيان كانت النصيحة تقدم استناداً على المشكلات والعقد المكتشفة في شخصية كل منهم ، والتي تكون عادة السبب الاساسي في تعطلهم . وقد تسكفت هذه العملية أكثر من مائتي ألف دولار، تبرعت بمعظمها مؤسسة كارنيجي . وجمعية مساعدة العمال العاطلين بمدينة نيويورك ، ولما كنت قد عينت مستشاراً خاصاً في هذه العملية ، ونيط بي وضع الخطط ومراقبة الدراسات الإحصائية المستخاصة لعشرة آلاف نفس ، ممن جرى عليهم الاختبار ، وقد أجريت عليهم ما قدره ٧٣٢٢٦ اختباراً نفسياً ، وسجلت تقريراً شخصياً شاملاً لكل فرد منهم . وفي هذا الوقت بالذات بدأت إدراكى لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان ، ووجدت من نفسى استعداداً مضاهياً تجاربي السابقة على مرضاى ، بالنتائج الباهرة التى أتت بها تلك الاختبارات العظيمة التى توليت الإشراف عاها ، وقد استخلصنا من هذه الاختبارات نتيجة هامة ، ولو أنها لم تنشر فى التقرير النهائى . وهذه النتيجة هى : « إن كل من يعتقد ديناً أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل مما لا دين له أولاً يزاوول أية عبادة » .

وعلى ذلك لم تكن رجعتى إلى الدين رجعة الضال الذى اهتدى إلى دين صائب ، أعنى أن هذه الرجعة لم تصاحب شعوراً متوقفاً أو نغرة عاطفية ، لكنها كانت رجعة عن طريق العقل فحسب لسوء الحظ ! ولا أظن أن كافة المتدينين يقرون هذه الحقيقة ، حتى أنا نفسى لا أعتقد أنها الطريقة المثلى ، ففكرت عن الدين تتضمن بضم معتقدات لا تؤيدها مذاهب دينيه معينة ، وتنبد بعض الآراء التى تراها مذاهب معينة جوهرية . إذن ... فما هو الدين ؟ .

الدين هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة ، هذه القوة هى قوة الله ، مدبر الكون ، خالق السموات ، وهو الاقتناع بالدستور الخلقى الإلهى الذى سنه الله فى كتبه المتعاقبة ، واعتبار التعاليم السماوية أئمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية ،

وهي أسمى في مرماها من العلوم كلها مجتمعة^(١) .

والحق أن هذا الرجل - ككثيرين غيره - حين كفر وألحد ، لم يكفر بدين الله الحق ، وإنما كفر بالتحريفات التي أضيفت إليه ، وما ابتدع فيه .. وحين آمن وعاد إلى الدين ، لم يعد إلى الدين الذي أنكره من قبل ، بل عاد إلى دين ترضى عنه فطرته ، وإن لم ترض عنه مذاهب كنيسة معينة ، وهو ينبذ معتقدات تراها بعض المذاهب جوهرية ، ولو أتيح للرجل أن يعرف الإسلام على بصيرة ، لأيقن أن الدين الذي اهتدى إليه وأعلن عودته إلى حظيرته ، إنما هو في الواقع دين الإسلام ، دين الفطرة والعقل ، دين الحياة والقوة ، فهذا الدين هو سلاح الأقوياء وليس ملجأ الضعفاء ، كما يقول الدكتور في فقرة من كتابه :

« لقد أدت دراستي العميقة للأفراد إلى مشاهدتي ذلك القبس المضيء من نور الهداية . وسواء كان أمل الإنسان هو في الحصول على الوظيفة اللائقة أو الأمن الانتصادي أو الاطمئنان الاجتماعي أو السعادة الزوجية ، فلن يعم الرخاء إلا إذا حارب الناس أسلوب الحياة الراهنة والمجتمع الحالي حرباً لا هوادة فيها ، توقد جذوتها عدة من المثل العليا العملية الصادقة .

فالدين الذي أنكلم عنه ليس ملجأ الضعفاء ، ولكنه سلاح الأقوياء ، فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها ، لا فريستها وعبدها الخانع^(٢) .

وليس الدكتور هنري لنك وحده الذي عاد إلى الإيمان عن طريق التجربة والعلم ، فهناك غيره كثيرون .

لقد حدثنا الكاتب الأمريكي المشهور « ديل كارينجي » مؤلف « دع القلق وابدأ الحياة » وغيره من الكتب - أن موجة الشك والقلق انتابت إيمانه فترة

من حياته ، وأوشك أن يكون جاحداً ملحداً ، يرى أن الحياة تسير بلا غاية ، وإلى غير مقصد . ويحسب أن البشر مجردون من الأهداف السامية مثل حيوانات « الدينسور » العملاقة التي كانت تجوب الأرض منذ مائتي مليون سنة ، وأن النوع الإنساني مصيره إلى انقراض يشبه انقراض حيوان الدينسور .

ثم هبت على الرجل نفحة إيمان جعلته يشعر أن الحياة متناهية مضلة ، وصحراء قاحلة مهلكة بغير واحة الإيمان .

ومما قاله في هذا الصدد : إنني يهمني الآن ما يسديه إلى الدين من النعم ، تماماً كما تهمني النعم التي نسديها إلينا الكهرباء والغذاء الجيد ، والماء النقي ، فهذه تعيننا على أن نحيا حياة رغدة ولكن الدين يسدي إلى أكثر من هذا . إنه يمدني بالمتعة الروحية ، أو هو يمدني - على حد قول « وليم جيمس » - بدافع قوى مواصلة الحياة . الحياة الحافلة ، الرحبة ، السعيدة ، لراضية . إنه يمدني بالإيمان والأمل والشجاعة ، ويقضي عنا الخواف والاكتئاب والفاق ويزودني بأهداف وغايات في الحياة ، ويفسح أمامي آفاق السعادة ، ويعينني على خالق واحة خصبة وسط صحراء حياتنا .

لقد كان الفيلسوف « فرانسيس بيكون » على حق حين قال :

« إن قابلاً من الفلسفة يمنح بالعقل إلى الإلحاد ، ولكن التعمق في الفلسفة خليق أن يعود بالمرء إلى الدين » .

إن السطحيين وأنصاف المتفلسفين ، والمغرورين بقشور العلم والفلسفة هم المذنبون بتهورهم فيتورطون في اقتراف الخطيئة الكبرى : خطيئة التوراة على الدين ، والتعرد على الله ، بل الجحود لوجوده سبحانه . ومنهم من يفعل ذلك تظاهراً بالتححرر وطلباً للشهرة . ومنهم من يفعله تبريراً لفرقه في الشهوات ، وجريه وراء المتع والم لذات ، فهو يريد أن يهدم الدين من أساسه ، ليسوغ

لنفسه السقوط والانحلال ، بلا تخرج ولا حياة من الناس ، ولا حساب من ضمير .
أما الراسخون في العلم ، المتمقون في الفكر ، فهم أعقل من أن يقطعوا
أنفسهم عن هذا النور الذي لا يخبو ، والزاد الذي لا ينفد ، نور الإيمان ،
وزاد اليقين .

ولا غرو إن رأينا أعلام المشتغلين بالحياة النفسية ، فلسفة ونظراً ، أو علاجاً
وطباً ، يعلنون اعتصامهم بالعروة الوثقى ، عروة الدين . ويدعون الناس إلى
ذلك بصوت جهير .

قال « ولیم جیمس » العالم النفسى الشهير بمذهبه فى المنفعة العلمية :
« إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم ، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه
— سبحانه وتعالى — تحققت كل أمنياتنا وآمالنا » .

وقال : « الإيمان من القوى التى لا بد من توافرها ، لمعاونة المرء على العيش ،
وقد لها نذير بالعجز عن معاناة الحياة » .

وقال حين كان أستاذاً للفلسفة بجامعة هارفارد :

« إن أعظم علاج للقلق — ولا شك — هو الإيمان » .

ويعقب على ذلك « كارنيجى » بقوله : « ولا يتحتم أن تتعلم فى هارفارد
لتدرك هذه الحقيقة ، فقد أدركها والدائى فى يدهما الرينى المتواضع ، فما استطاعت
الفيضانات ولا الديون ، ولا النوازل أن تنال من روحهما القوية ، المستبشرة
الظافرة ، ويسعى الآن أن أسمع فيتردد فى أدنى صوت أسمى تترنم بالأغنية التالية ،
بينما هى تدير شؤون المنزل :

الأمان ، الأمان ، . . يا لروعة الأمان

إذ يسكبه فى نفوسنا الرحيم الرحمن

إليك اللهم أدعو أن تحيطنى بالأمان

فياضاً غامراً يملأ القلب والجنان .. »

ويقول « ديل كارينجى » أيضاً :

« إنى لأذكر تلك الأيام التى لم يكن للناس فيها حديث سوى التنافر بين العلم والدين ، ولكن هذا الجدل انتهى إلى غير رجعة ، فإن أحدث العلوم — وهو الطب النفسى — يبشر بمبادئ الدين . لماذا ؟ .

« لأن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى ، والاستمسك بالدين ، والصلاة كفيلة بأن تقهر القلق والخاوف والتوتر العصبى ، وأن تشفى أكثر من نصف الأمراض التى نشكوها .. نعم إن أطباء النفس يدركون ذلك ، وقد قال قائلهم الدكتور « ا. ا. بريل » : « إن المرء المتدين حقاً لا يعانى مرضاً نفسياً قط » .

« وعندى أن أطباء النفس ليسوا إلا وعاظاً من نوع جديد . فهم لا يحضوننا على الاستمسك بالدين توكيلاً لعذاب الجحيم فى الدار الآخرة ، وإنما يوصوننا بالدين توكيلاً للجحيم المنسوب فى هذه الحياة الدنيا .. جحيم قرحات المعدة والانهيار العصبى ، والجنون ... الخ ...

يقول الدكتور « كارل يونج » — أعظم الأطباء النفسيين فى هذا الجيل بأمريكا — فى كتابه : « الرجل العصرى يبحث عن روح » :

« استشارنى فى خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة ، وعالجت مئات من المرضى ، فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر — أى الخامسة والثلاثين أو نحوها — لا ترجع فى أساسها إلى افتقادهم الإيمان ، وخروجهم على تعاليم الدين .. وبصح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض ، لأنه حرم سكينة النفس التى يجلبها الدين — أى دين — ولم يبرأ واحداً من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه ، واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة » .

« لماذا يجلب الإيمان بالله ، والاعتماد عليه - سبحانه وتعالى - الأمان والسلام والاطمئنان ؟ »

سأدع « وليم جيمس » يجيب على هذا السؤال :

« إن أمواج المحيط المصطحبة المتقلبة لا تتكر قط هدوء القاع العميق ، ولا تقلق أمنه ، وكذلك المرء الذى عمق إيمانه بالله خليف بالآلة تكسر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة ، فالرجل المتدين حقاً عصى على الفلق . محتفظ أبداً بآثرانه ، مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتى به الأيام من صروف (١) » .

ونشرت جريدة الجمهورية يوم السبت ٢٩/١١/١٩٦٢ ، تحت عنوان :
« العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراض العقلية » :

عزاء وسلوان لأولئك الذين تشبثوا بدينهم ، ولم يتزعزع إيمانهم فى أحلك لحظات المدنية وأنصعها ، أقصد تلك اللحظات التى يتشوق فيها دعاة النظريات العتيدة ، وفى مقدمتها نظرية النشوء والارتقاء « لداروين » ويتشددون فيها بأن الدين بدعة ، وبأن الإنسان يقف وحده فى هذا الكون ، كما زعم « جوايان هاكسلى » .

إن علماء الأمراض العقلية ، لا يجدون اليوم سلاحاً مضى ، وأبعد فاعلية لعلاج مرضاهم من الدين والإيمان بالله .. والتطلع إلى رحمة السماء . والنشبت بالرعاية الإلهية ، والالتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عند ما يتضح عجز كل قوة سواه !!

لقد بدأت التجربة فى مستشفى بولاية نيويورك ، وهو مستشفى خاص بمرتكبي الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية .

(١) عن كتاب (دمع القلق وابدأ الحياة)

بدأت التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج ، بجانب الصدمات الكهربائية لخلايا المخ ، والعماقير المسكنة والمهدئة الأعصاب .

وكانت النتيجة رائعة .. إن أولئك الذين تعذر شفاؤهم .. بل فسدوا الأمل فيه ، انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء ... أولئك الذين ارتكبوا أفظع الجرائم وهم مسلوبو الإرادة ، باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم ، ويذرفون الدمع ندما ، وكلهم أمل في رحمة السماء ومغفرة الله .

واستسلم العلماء ، ورفعوا أيديهم إلى السماء ، يعترفون بضعفهم ويعلنون للدنيا أن العلم يدعو إلى الإيمان . وليس أبداً إلى الإلحاد .

ولم يقف الأمر عند الأطباء النفسيين ، بل تجاوزوه إلى أطباء الأجسام أنفسهم ، يرون أن الإيمان بالله ضرورة لنجاح كثير من الأمراض الجسمية والعصبية . وخاصة إذا اجتمع إيمان الطبيب وإيمان المريض ، فذلك أجدراً أن يقصر مدة العلاج ويقرب حلول العافية .

يقول الدكتور « بول أرنست أدولف » — أستاذ مساعد النشرىح بجامعة سانت جونز وعضو جمعية الجراحين الأمريكيين — : « لقد أيقنت أن العلاج الحقيقى لا بد أن يشمل الروح والجسم معاً فى وقت واحد ، وأدركت أنه من واجبى أن أطبق معلوماتى الطبية والجراحية ، إلى جانب إيمانى بالله وعلمى به ، ولقد أقمت كلتا الحالتين على أساس قويم ، بهذه الطريقة وحدها ، استطعت أن أقدم لمرضى العلاج الكامل الذى يحتاجون إليه ، ولقد وجدت بعد تدبر عميق ، أن معلوماتى الطبية وعقيدتى فى الله ، هما الأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة .

وقد وجدت أثناء ممارستي للطب ، أن تسلحي بالنواحي الروحية ، إلى جانب
إلمامى بالمادة الطبية يمكنانى من معالجة جميع الأمراض علجا يتسم بالبركة
الحقيقية ، أما إذا أبعد الإنسان ربه عن هذا المحيط ، فإن محاولاته لا تكون إلا
مصف العلاج ، بل قد لا تبلغ هذا القدر .

فما هى الأسباب الرئيسية لما نسميه الأمراض العصبية .

إن من الأسباب الرئيسية لهذه الأمراض : الشعور بالإثم والخشية والحقد
والخوف والتناق والكبت والتردد والشك والغيرة والأثرة والسأم . ومما يؤسف
له أن كثيراً من المشتغلين بالعلاج النفسى قد ينجحون فى تقصى أسباب الاضطراب
النفسى الذى يسبب المرض ، ولكنهم يفشلون فى معالجة هذه الاضطرابات ،
لأنهم لا يلجأون فى علاجها إلى بث الإيمان بالله فى نفوس هؤلاء المرضى .

فإذا كان بعض المثقفين فى أوطاننا لا يصغون إلا لصوت يجيئهم من الغرب ،
فإن عليهم أن يستمعوا وينصتوا لتلك الصيحات المخلصة ، التى أطلقها أناس ليسوا
بالأدعياء المتطفلين على العلم ، ولا بالسطحيين المحكومين بالعاطفة ، ولا بالخياليين
المتعلقين بالأحلام ، الذين يسبحون فى غير ماء . إنما هم « علماء » متعمقون يحكمون
منطق العلم العصرى وحده ، القائم على الملاحظة والتجربة والاستقراء .

والعجب أن تصدر هذه الصيحات من بلد بلغ القمة فى الارتقاء العلمى والفنى
المادى ، وازدهار الاقتصادى ، واستطاع أن يضع أقدام أبنائه على سطح القمر !
بلد يؤمن بالمنافع العملية ، والحياة الواقعية ، لا بالمدن الفاضلة والمثل الأفلاطونية .
ولكن أعلامه — كما رأينا — ينادون بضرورة التثبيت بالإيمان ، وقاية وعلاجاً ،
وزاداً وسلاحاً ، وهداية ونوراً ، وصاحباً ودليلاً .

فلنر كل بقوة وإلى الأبد تلك الأ كذوبة الكبرى ، التى يرددها هنا أناس
لا يمتازون إلا بصفاة الوجوه وعمى القلوب : أن العلم يناقض الإيمان ، أو يستغنى
عن الإيمان ! هيهات هيهات لما يدعون .

الخاتمة

أحسب بعد ما عرضناه في هذا الكتاب — أن الطريق ، قد اتضحت وجهته واستبان معالمه .

إنه طريق واحد يتعين على أمتنا أن تسلكه ، ولا خيار لها في ذلك . إنه طريق الإيمان . إنه الطريق الفذ لتحقيق كل ما نريد من أهداف ، وما نصبو إليه من آمال . .

إن كنا نريد الآخرة .. فطريقها هو الإيمان .

وإن كنا نريد الدنيا .. فطريقها هو الإيمان .

وإن كنا نريدهما معا .. فطريقهما هو الإيمان .

أما الآخرة فلها حديث في غير هذا الموضع .

وأما الدنيا وآمالنا فيها ، وغاياتنا منها ، وسعادتنا بها ، فتد تبين لنا من خلال هذه الدراسة — أن الإيمان الحق هو سبيلها ، لا سبيل غيره .

إن كنا نريد السعادة الشخصية ، فلا سعادة بغير سكينة النفس ، ولا سكينة بغير إيمان .

وإن كنا نريد الحياة النظيفة ، فلا نظافة بغير استقامة ، ولا استقامة بغير إيمان .

وإن كنا نريد التماسك الاجتماعي ، فلا تماسك بغير إخاء ، ولا إخاء بغير إيمان .

وإن كنا نريد النصر العسكري على عدونا الجاثم على صدورنا . فلا نصر بغير أبطال ، ولا بطولة بغير تضحية ، ولا تضحية بغير إيمان .

وإن كنا نريد الرخاء الاقتصادي ، فلا رخاء بغير إنتاج ، ولا إنتاج بغير أخلاق ، ولا أخلاق بغير إيمان .

وإن كنا نريد التقدم « التكنولوجي » فلا تقدم بغير إخلاص ، ولا إخلاص بغير هدف ، ولا هدف للحياة بغير إيمان .

وإن كنا نريد الإصلاح الجذري لحياتنا ، فلا إصلاح إلا بتغيير نفسى ، ولا ولا تغيير إلا بتصميم ، ولا تصميم إلا بالإيمان .

وإن كنا نريد الحكم العادل ، فلا عدل بغير قانون ، ولا فائدة فى قانون بغير ضمائر ، ولا أمل فى ضمائر بغير إيمان .

الإيمان هو قوة الخلق ، وخلق القوة ، وروح الحياة وحياة الروح ، وسر العالم ، وعالم الأسرار ، وجمال الدنيا ، ودنيا الجمال ونور الطريق وطريق النور .

الإيمان هو واحة المسافر . ونجم الملاح ، ودليل الخيران ، وعدة المحارب ، ورفيق الغريب ، وأنيس المستوحش ، ولجام القوى ، وقوة الضعيف .

الإيمان هو مصنع البطولات ، ومحقق المعجزات ، ومفتاح المغاليق ، ومغارة الهدى فى كل طريق .

الإيمان — فى كلمة واحدة — ضرورة للحياة الإنسانية : ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويرقى ، وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويبقى .

والإيمان الذى عنيته هو إيمان الإسلام ، فى شموله وتوازنه وعمقه وإيجابيته ، إيمان القرآن والسنة ، إيمان الصحابة والتابعين لهم باحسان : معرفة ونية واعتقاداً وعملاً . لا الإيمان العقلى الخالص الذى أراده المتكلمون ، ولا الروحى المحض الذى أراده المتصوفون ، ولا الشكلى الجاف الذى عنى به المتفقهون الجامدون . هذا الإيمان ليس مجرد شعار يرفع ، أو دعوة تدعى . إنه أسلوب حياة متكامل .

للفرد والأمة . إنه ضياء ثاقب، ينفذ إلى الفكر والعاطفة والإرادة في دنيا الفرد .
فيجرى في كيانه عصارة الحياة ، وينشئه من جديد ويحوّله من مخلوق تافه إلى
إنسان ذى رسالة وهدف . ومن حيوان أو سبع إلى كائن أشبه بالملك .

ويمتد إلى المجتمع بأشعته الوهاجة المشرقة ، فإذا دم الحياة قد جرى في عروقه
والعافية قد سرت في أوصاله ، فيشفيه وهو سقيم ، بل يحياه وهو رميم ، أليس فيه
نفحة من سر الألوهية التي تقول للشيء : « كن » فيكون ؟

الإيمان الحق هو الذي يخط آثاره في الحياة كلها ، ويصبغها بصبغته الربانية
في الأفكار والمفاهيم ، والعواطف والمشاعر ، والأخلاق والعادات . والنظم
والقوانين ، « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » .

والأمة التي تريد أن تحيا بالإيمان لابد أن « تكيف » حياتها ومناهج
تفكيرها وسلوكها وفقاً لما يوجبها عليها منطق الإيمان . وأن تحرر وجودها من
كل ما يعوق هذا الإيمان أو يحجب نوره وسنائه وإلا ، كان إيمانها حبراً على ورق ،
ودعوى بلا برهان .

فاللهم اهد أمتنا إلى صراط الإيمان . « صراط الذين أنعمت عليهم ،
غير المغضوب عليهم ولا الضالين » آمين .



النارِي السَّيَابِي

فهرس

المقدمة

١٥ - ٥

الإيمان الدينى عموماً والإسلامى خصوصاً	١٢	قضية الإيمان هى القضية المصيرية الأولى للإنسان	٥
مفتاح شخصية هذه الأمة هو الإيمان	١٢	اهتداء أولى الألباب إلى الإيمان بأنه بطرق شتى	٥
دور الإيمان فى معركتنا مع العدو	١٣	ضرورة الإيمان للحياة حتى لو سللنا بمقياس المنفعة	٧
العمل ضد الدين عداء للأمة ومساعدة لعدوها	١٤	الغرض من هذا الكتاب بيان أثر الإيمان فى حياة الإنسان	٨
نحن قوم مؤمنون	١٥		

الباب الأول

الإيمان الذى نعنيه

١٦ - ٥٦

١ - حقيقة الإيمان : ١٩ - ٤٦ .

مفهوم الإيمان الذى نعنيه	١٩	إنما الله إله واحد	٢٨
محتوى الإيمان الذى نعنيه	٢٤	كأن الله تعالى	٣٢
عقيدة الإسلام وعناصرها الأساسية	٢٥	الإيمان بالنبوات	٣٧
وجود الله تعالى	٢٦	الإيمان بالآخرة	٤١

٢ - مزايا العقيدة الإسلامية : ٤٧ - ٥٦ .

عقيدة واضحة	٤٧	عقيدة مبرهنة	٤٨
عقيدة الفطرة	٤٧	عقيدة وسط	٤٩
عقيدة ثابتة	٤٨	وهى عقيدة وسط فى صفات الإله	٤٩

الباب الثاني

أثر الإيمان في حياة الفرد

٥٧ - ١٩٩

أثر الإيمان في حياة الفرد : ٥٩ - ٦٠

١ - الإيمان وكرامة الانسان : ٦١ - ٨٠

أثر هذه المعاني والمشاعر في	٦١	الإنسان في نظر الماديين
٧٢	٦٤	الإنسان في نظر المؤمنين
مقارنة بين النظرة الإسلامية	٦٥	مكانة الإنسان من الله
والنظرة الغربية المادية للإنسان ٧٣	٦٦	مكانة الإنسان في الملائكة
٧٤	٦٧	مكانة الإنسان في هذا العالم المادي
٧٥	٦٨	علماء الإسلام يشيرون بمكانة الإنسان
٧٧	٧٠	عزة الإيمان بعد عزة الإنسانية

٢ - الإيمان والسعادة : ٨١ - ٩٠

هل السعادة في العلم التجريبي ٨٦	٨١	أين السعادة ؟ هل السعادة في النعم
٨٨	٨١	المادي ؟
٩٠	٨٥	هل السعادة في الأولاد ؟

٣ - سكينة النفس : ٩١ - ١٣١

١٠٠	٩١	لا سعادة بلا سكينة
نجاة المؤمن من عذاب	٩٢	لا سكينة بلا إيمان
١٠٧	٩٤	أسباب السكينة لدى المؤمن
وضوح الغاية والطريق عند المؤمن ١١٢	٩٤	استجابة المؤمن لنداء الفطرة

المصلاة والدعاء من بواطن السكينة ١٢٦	أنفس المؤمن بالوجود كله ١١٩
المؤمن لا يعيش بين دلو ،	المؤمن يعيش في معية الله ١٢٢
١٢٩ ود ليت ،	المؤمن يعيش في صحبة النبيين والصديقين ١٢٥

٤ - الرضا : ١٣٢ - ١٥٤

المؤمن راض بما قسم الله له من رزق ١٤٥	الفرح والروح في الرضا واليقين ١٣٢
١٤٧ معنى الرضا بما قسم الله	المؤمن راض عن نفسه وعن ربه ١٣٤
١٤٨ قصة وعبرة	المؤمن راض عن الكون والحياة ١٣٦
الرضا مصدر قوة لصاحبه ١٥١	المؤمن عميق الإحساس بنعم الله عليه ١٣٧
الرضا لا يقتضى السكوت على الباطل ١٥٤	المؤمن راض بما قدر الله عليه ١٤٣

٥ - الأمن النفسى : ١٥٥ - ١٦٣ .

مخاوف الملحددين والشاكين ١٥٨	أهمية الأمن النفسى لتحقيق السعادة والسكينة ١٥٥
المؤمن آمن على رزقه ١٥٩	نموذج للخوف والاضطراب ١٥٥
المؤمن آمن على أجله ١٦٠	نموذج للأمن والاستقرار النفسى ١٥٧
المؤمن لا يخاف الموت ١٦١	الإيمان مصدر الأمان ١٥٧

٦ - الأمل : ١٦٤ - ١٧٥ .

الإيمان يلد الأمل ١٦٧	أهمية الأمل في تحقيق السكينة والسعادة ١٦٤
ضرورة الأمل للحياة ١٧٢	تلازم اليأس والكفر ١٦٦

٧ — الايمان والحب : ١٧٦-١٩٢

١٨٣	حب الناس	قيمة الحب وأهميته في تحقيق
١٨٤	المؤمن سليم الصدر لا يحسد ولا يحقد	السعادة ١٧٦
١٨٧	الإيثار من خصائص المؤمنين	المؤمن يحب كل شيء حتى الكارثة ١٧٧
	عاطفة الكره وإلى أين وجهها	حب الله ١٧٨
١٨٩	الإسلام	حب الطبيعة ١٧٩
١٩١	التسامح جزء من العقيدة	حب الحياة ١٨١
		حب الموت ١٨٢

٨ — الثبات في الشدائد : ١٩٣ — ١٩٩

	مصائب الدنيا تهون عند	الحياة لا تخلو من الشدائد ١٩٣
١٩٧	المؤمن	الملحدون أشد الناس جزعا ١٩٤
١٩٨	بعض الشر أهون من بعض	ثبات المؤمنين ومصدره ١٩٥
	حلاوة الثواب ومرارة الألم —	الإيمان بالقدر يهون على المؤمنين
	الملحدون يعترفون بأثر	البلاء ١٩٦
١٩٩	الإيمان في الأزمات	شعور المؤمنين بنعمة الله في السراء والضراء ١٩٧

الباب الثالث

الايمان في حياة المجتمع

٢٠١ - ٣٣٢

تمديد : ٢٠٣ - ٢٠٤

الايمان والاخلاق : ٢٠٥ - ٢٦٥

٢٣٤	أثر الإيمان في تكوين الضمير	٢٠٥	الحيوان تكفيه غريزته
	أثر الضمير الديني في مجالات الحياة	٢٠٥	غرائز الإنسان متضاربة
٢٣٨			القانون وحده لا يكفي لضبط السلوك الإنساني
٢٣٨	في أداء الحقوق المالية	٢٠٧	
	في الاعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة	٢٠٩	الفلسفة الأخلاقية لا تغنى
٢٤٠		٢١٠	الأخلاق لا الفلسفة الأخلاقية
	في رعاية القوانين والأمانات	٢١١	لأخلاق من غير دين
٢٤٣	في السياسة والحكم	٢١٢	لإيمان والمثل الأعلى
٢٤٧	في التجارة والمعاملة		متاع الحياة وخطره على الأخلاق
٢٤٩	في المواساة والإيثار	٢٢٠	سلطان الغريزة وسلطان الإيمان
٢٥٣	اعتراضات وشبهات	٢٢٣	الإيمان ينتصر على الأنانية
	تقييد بعض الملحدون بالفضيلة وتفسيره	٢٢٥	سلطان العادة وسلطان الإيمان
٢٥٤		٢٢٦	سلطان العادة وقوته
	الخوف من الله واليوم الآخر وأثره في التربية	٢٢٧	سلطان الإيمان أقوى
٢٥٥			تحريم الخمر بين الولايات المتحدة وأمة العرب
	الدكتور (منرى لك) يرد على خصوم التربية الدينية	٢٢٨	
٢٥٦		٢٣٠	شلت الأساطيل ونجح الإيمان
٢٦٢	خرافة الضمير بلا إيمان	٢٣٢	الضمير ومكانه في الأخلاق

البذل والتضحية : ٢٦٦ — ٢٧٣

٢٦٨	سبيل الواجب	الإنانية جزء من السكبان الفطري
	أهمية الجزاء الأخرى في حل	للإنسان
	هذه العقدة ومكافأة كل عامل	الإيمان يهون على الإنسان كل
٢٦٩	على عمله	صعب في سبيل الحق
٢٦٩	نماذج مؤمنة للبذل والتضحية	الفلسفة الأخلاقية المادية لم تحل
		عقدة الشهيد الذي يموت في

القوة : ٢٧٤ — ٢٩٣

	من ثمار هذه القوة في نفس	حاجة الفرد والمجتمع إلى القوة
	المؤمن وأخلاقه	النفسية
	(أ) التزام الحق مع القريب والبعيد ٢٨٢	٢٧٤ مصادر القوة عند المؤمن —
	(ب) الاستهانة بالقوى المادية ٢٨٣	٢٧٥ الإيمان بالله
	(ج) الإخلاص في القول والعمل ٢٨٤	٢٧٦ الإيمان بالحق
	(د) التحرر من الخوف والحرص ٢٨٦	٢٧٧ الإيمان بالخلود
	(هـ) الاستخفاف بالجبابة والطغاة ٢٨٧	٣٧٨ الإيمان بالقدر
٢٩٠	شهادة التاريخ	٢٨٠ الإيمان بالأخوة
٢٩١	سر الوهن	على قدر الإيمان تكون القوة ٢٨١
٢٩٢	التماوت والضعف يناقيا الإيمان	

الرحمة : ٢٩٤ — ٣٠٥

	الأوقاف الخيرية: وقف الزبدي	قيمة الرحمة الإنسان — رحمة
	وقف الكلاب الضالة —	المؤمن من رحمة الله تعالى ٢٩٤
	وقف الأعراس — وقف	من لا يرحم لا يرحم ٢٩٦
٢٩٩	الناضبات	من آثار الرحمة في المجتمع
٣٠٠	وقف مؤنس المرضى والغرباء	الإسلامي ٢٩٨

٣٠١	ببعض	٣٠٠	وقف خداع المريض
٣٠٢	مثلان من أمثلة الرحمة المزمونة		الجرائم البشعة وليدة الكفر
٣٠٣	المثل الأول	٣٠٠	والقسوة
٣٠٥	المثل الثاني		ما صنعه الشيوعيون بعضهم

الايان والانتاج ٣٠٦ - ٣١١

٣١١	أثر الاستقامة فى الإنتاج	٣٠٦	الإيمان والعمل
٣١١	إحساس المؤمن بقيمة الوقت	٣٠٧	دافع المؤمن إلى العمل دافع ذاتى
٣١٣	العبادات والإنتاج		الفوز فى الآخرة بالعمل
٣١٥	المؤمن يعمر أرض الله بالعمل	٣٠٧	لا بالأمانى
٣١٦	الإيمان بالآخرة لا يمتل الدنيا	٣٠٩	النجاح فى الدنيا بالعمل
٣١٧	التوكل ليس معناه التواكل	٣٠٩	المؤمن يخشى الله فى عمله فيتقنه
		٣١٠	أثر السكينة النفسية فى الإنتاج

الايان والاصلاح : ٣١٩ - ٣٣٢

	أمثلة لما صنعه الإيمان : سحرة		ضرورة التغيير النفسى لكل حركة
٣٢١	فرعون حين آمنوا	٣١٩	ونهمضة ناجحة
٣٢٣	تأثير الاسلام فى نفسية العرب	٣٢٠	صعوبة هذا التغيير وعسره
٣٢٣	عمر بن الخطاب		بناء الإنسان أصعب من بناء
٣٢٤	الخنساء بين الجاهلية والاسلام	٣٢٠	السدود والمصانع
٣٢٥	المفتاح الفذ لأقفال الحياة		الإيمان يبنى الإنسان خلقاً
		٣٢٠	آخر

الباب الرابع

بين العلم والايمان

٣٣٢ - ٣٧١

شهادات من الغرب والشرق	دعوة الاستغناء بالعلم المادى -
٣٤٤ تنقض هذه الدعوى	المكاسب المزعومة من وراء
هذا الجيل بلا حدود ولا قيود	الاكتفاء بالعلم ٣٣٥
٣٤٩ ولا أمل	تنقض هذه الدعوى : مجال العلم
٣٥١ الحرية الشخصية وآثارها	غير مجال الايمان ٣٣٦
٣٥٢ العمل والإنتاج للحياة	نتائج العلم تقريرية لا يقينية ٣٣٨
٣٥٥ علم النفس لا يغنى عن الايمان	الرسوخ في العلم يهdy إلى الايمان ٣٤٠
٣٦٠ الطب النفسى فى موكب الايمان	هل وراء الاتحاد مكاسب حقيقية ٣٤٤
	دهوى الصحة النفسية والعقلية -

خاتمة ٣٧٢ . ٣٧٤ .

استدراك

وقع خطأ إملائي في كلمة « الرضى ، والصواب « الرضا ، في موضوع
« الرضا ، صفحة ١٣٢ .



النارِي السَّيَّابِي

للمؤلف

- | | |
|------------------------------|------------------------------------|
| ط سادسة — القاهرة | ١ — الحلال والحرام في الإسلام |
| ط أولى القاهرة | ٢ — العبادة في الإسلام |
| ط أولى دار العربية بيروت | ٣ — مشكلة الفقر وكيف عالجه الإسلام |
| ط أولى مكتبة المنار — الكويت | ٤ — الناس والحق |
| ط أولى دار الإرشاد — بيروت | ٥ — عالم وطاقية |
| ط أولى دار الإرشاد — بيروت | ٦ — درس النكبة الثانية |
| | ٧ — فقه الزكاة — في جزئين |

دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة .

كتب تالية

- ١ — حتمية الحل الإسلامى .
- ٢ — تيسير الفقه في ضوء الكتاب والسنة .



هذا الكتاب

✽ ان قضية « الايمان » هي اعظم « قضية مصيرية » بالنسبة للانسان .
فهى ليست أمراً على هامش الحياة كما يتخيل البعض . يجوز
لنا أن نغفله أو نستخف به . ! كلا ، انها أمر يتعلق بوجود الانسان
ومصيره . .

✽ وهذا الكتاب « الايمان والحياة » يلقي الضوء على هذه « القضية »
موضحاً الآثار الطيبة « (الايمان) » في حياة الانسان . . وقيمة « (الايمان) »
بالله وبرسالاته وبالدار الآخرة . . كما أن الانسان بغير دين
ولا ايمان . انسان قلق حائر ، لا يعرف حقيقة نفسه ، ولا سر
وجوده .

✽ ويناقش المذاهب العقائدية المختلفة . مبيناً أن « عقيدة الاسلام »
قد احتوت جميع المذاهب المختلفة ، بعد أن أزالنا عنها ما علق
بها من شوائب . . ويرد على تلك الفرية الظالمة التى زعمت أن
الدين مخدر للشعوب ، ومعموق للحياة - كما زعم كارل ماركس
اليهودى - وتلقفها عنه الببغاوات يرددونها ترديد الحاكى ، بغير
تفكير ولا تمييز .

✽ ويمضى الكتاب فى سرد حقيقة « الايمان الذى نغنيه » و « أثر
الايمان فى حياة الفرد » و « الايمان فى حياة المجتمع » و « بين
العلم والايمان » هذه وغيرها « قضايا » ناقشها الكتاب بعمق
واخلاص ، وجلى كل شئ فيها . .

✽ والمؤلف بدراساته الاسلامية المتخصصة ، ليس غريباً على معالجة
هذه الموضوعات . أما علمه وفكره . فلندع القارئ يلتمس من
خلال صفحات هذا الكتاب ، علماً غزيراً وفكراً ثاقباً . .

✽ ويسر « مكتبة وهبة » أن تقوم بنشر هذا الكتاب ، ليكون
شمعة تنير طريق الباحثين عن « الايمان » ويزيد رصيد « الايمان »
فى قلوب المؤمنين . .